عين الفيلسوف

محمد نبيل كبها

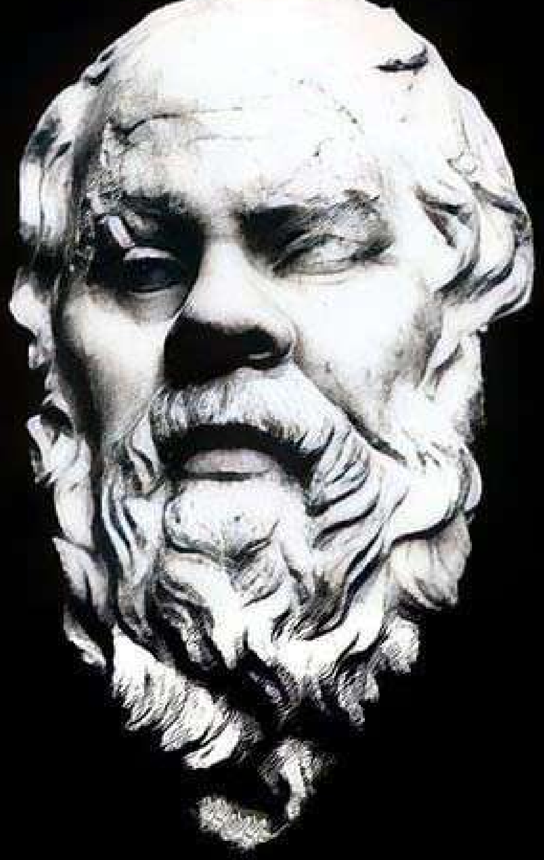

عين الفيلسوف

عين الفيلسوف

المفكّر الإسلامي
محمد نبيل كبها

الطبعة الأولى
2024م

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing of the writer

جميع الحقوق محفوظة، يمنع ترجمة أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها لأغراض تجارية بدون إذن خطّي من المؤلّف.

إهداء

كنت وما زلت أدمن القراءة، فلقد كانت رسالة الله سبحانه وتعالى لنبينا محمد ﷺ عبر وحيه هي "إقرأ"، ولا زال شغفي في هذه الأربعة أحرف ليس له حد أو بعد، أتناول كل المواضيع على الصعيد الأدبي أو الديني أو المعرفي أو العلمي أو الفلسفي أو الرقمي أو غيرها من الحقول، وأحياناً أبلغ منها إلى طور ينفك فيه عقلي عن النظر.

وفي أحد الأيام كنت أطير حول العالم على جناح إحدى الكتب الفلسفية، وإذا به يلقيني على بقعة من العالم ألا وهي فرنسا، وتحديداً في عقل الفيلسوف (رينيه ديكارت) وأثناء سيري في طرقات عقل هذا العملاق، أوقفني مطب صغير، كان هذا المطب هو عبارة عن جملة، ألا وهي "عاش من بقي في الظل".

تعجبت حقّا من هذه العِبارة "عاش من بقي في الظل!"، ووقفت أمامها طويلاً مبتغياً فهم وإدراك ما الذي دفع ديكارت لكي ينثر عبارة كهذه؟ هل كان يشعر بعدم الأمان؟ أم أنه كان يظن أنه غير مفهوم للآخرين؟ أم أنه كان يرى نفسه دخيلاً في مجتمعه؟ أيّاً كان السبب، لابد أنه كان يعاني من صداع فكري ومغص وجودي عِلّتهُ ضيق وأزمة معرفيّة كانت تسيح في عصره.

أحياناً لا يكون الرحم مكانا آمنا دوماً، لأن أجنة أسماك القرش تفترس بعضها داخله! وهناك فرق كبير بين أن تولد في عائلة وبين أن تصنع فيها، وتأكد يا عزيزي أنه ليس كل من هو في هذه العائلة سعيد أو يحبها؟

غالباً من كثرة ما أنال من القراءة تكون الأفكار والمعلومات في رأسي أشبه ببركان تتدفق الحمم بداخله، ثم تنبجس لتخرج منه رغماً عنه، وأعاني حينها من ألم شديد في غضون وضع هذه المعلومة، تماماً كطفل يخرج من رحم أمّه ساعة المخاض!

يلتقط هذا العالم المشوّه هذه المعلومات ولكنه لا يرحب بها، لتمكث كلقيط متروك على عتبة الرصيف، وتعيش غريبة بلا وطن!

لقد أعرب أستاذ الإسكندر الأكبر الفيلسوف اليوناني (أرسطا طاليس) الملقب "بالمعلم الأول" والمشهور لدينا ب (أرسطو) عن أهمية الكلمة وقوتها، فإستخدم عبارته الشهيرة "تكلّم حتى أراك"، لأن المرء مخبوء تحت لسانه كما قال الإمام (علي بن أبي طالب) كرم الله وجهه، بل إن قيمة المرء لا تعرف إلا عندما يتكلم من زاويتي، فالكلمة هي أنت.

ولكننا أحياناً لا نستطيع البوح بما هو في أحشائنا! فكما أنّ هناك أجزاء فينا لا يمكنكم رؤيتها، وكذلك الأفكار!

لقد رد الروائي والفيلسوف الروسي (دوستويفسكي) بعد أكثر من ألفي عام على أرسطو قائلا: "قد يكون في أعماق المرء ما لا يمكن نبشه بالثرثرة، إياك أن تظن أنك عرفتني لمجرد أني تحدثت إليك".

أحيانا كثيرة أنكفأ على نفسي، وأجد عزائي في أبيات الشاعر المصري (إبراهيم ناجي) والذي كتب يقول فيها: "كل شيء صار مُرّاً في فمي بعدما أصبحت في الدنيا عليما ... آه من يأخذ عمري كله ويعيد الطفل والجهل القديما".

وإن أردت الصدع بما يجول ويثور في عقلي أُتّهم بالتشكيك، وتوجه لي التساؤلات وأصابع الإتهام "هل أنت شيعي؟ أم أنك أنت صوفي؟ لابد أنك قرآني! يبدوا أنك أقرب إلى الشيوعية! لالا، أعتقد أنك ملحد! أنت كافر!"، وتغدوا غير مفهوم حتى من أقرب الناس إليك! فتفقد الأمان، وتشعر أنك غريب عن مجتمعك من أعيان وعموم، كمريض نفسي

إنفصل عن الواقع! وينتهي بك الحال مُكرهاً أن تكون أمام مسلكين، إمّا تُعزَلْ أو تَعتَزِل، وعلى الحالتين ستمكث وحيداً بصحبة هذه الأفكار.

وهذا ما وقع مع رينيه ديكارت، وأدركت حينها لماذا قال "عاش من بقي في الظل"..

لقد أضحيت في هذا الزمن أكثر إتصالا مع نفسي، وأتجه إلى التحرر من العلائقية، ولا يهمني من يجلس في القطار، أو بمن إختار أن يترجل منه في أي محطة.

لا أخفيكم أن العلم هو العمود الفقري لفهم الوجود والموجود وما وراء هذا الوجود، ولكن العقل القياسي والترادفي هو سيد هذا الزمن، فهناك من ترك تركة إستبدادية قتلت روح التفكّر والسؤال في هذه الامة! وهناك من ذهب يؤوّل المفاهيم والمعاني على هواه، وفي سبيل الحق المطلق ذهب يتوسّل الكذب! وهناك من بدّل وراح يفتي حسب المصلحة ولتقديس الماء والتراب! وهناك من إنطوى على عقدة نقص فيه، ليرى نفسه عالماً في الدين، يخوض حروبه على الأكابر ويعلّم الصغائر!

لقد تم حقننا بإبر حمل في مؤخرة العقل بأفكار فلان وزمرة علان، وفلان هذا أصبح في زماننا نموذجاً لما سيصبح عليه العقل المسلم في المستقبل، وما عليه العقل المسلم الآن لا يطمئن!

نحن نعاني من أزمه فكريّة في الموروث الهائل الذي يختزله العقل العربي الإسلامي القياسي المحفور في ذاكرة العامّة، فاذا كان خاصة أمة محمد ﷺ والذين يتكلمون باسم الدين بهذه العقلية الغير منضبطة منهجياً وعلمياً، والذين هم أقل نضجاً ووعياً وإدراكاً من أحقر عالم لا ديني أو فيلسوف ملحد، إذن فنحن في سواد عظيم!

على الانسان أن يتعلم كيف يفكر منهجيّاً، وكيف يغربل الأدمغة بين حق وباطل، حتى لو كان صاحبها من كبار المفكرين والعلماء والفلاسفة! فعندما تخسر مالك فإنك تخسر بعض الشيء، ولكن عندما تخسر عقلك فإنك تخسر كل شيء..

وصحيح أن ديكارت قال "عاش من بقي في الظل"، لكاننا لا نريد للفكرة أن تنحني خلف هذا الظل، وأن يواصل الصندوق المغلق أسرها! نحن بأمس الحاجة إلى كسر الصمت وفتح هذا الصندوق، لذلك سأخرج عن صمتي وسأحطم القفل وأقهر الصندوق، وسأكتشف باذن الله سر العيش في الأجساد التي نحملها.

ولكن في البداية علينا صنع عالمنا الخاص، والذي نعوم فيه لوحدنا لكي نفهم الوجود، ولا نكن كسمكة "تريستال فيش" التي تعيش في ذلك الكهف الصغير المرتفع عن مستوى سطح الماء بثلاثة أقدام في ولاية ميكرونيسيا في المحيط الهادي لأنها لا تعرف السباحة!

تأكد يا عزيزي أن هناك من يرقبك لقدحك وقذفك ورجمك وإخراجك من المِلّة، ولكن لا بأس، فلقد إتُهِم رائد الفيزياء وصاحب النسبيّة (ألبرت آينشتاين) من قبلك بالتخريف وبالجنون، ثم أزيل دماغه في غضون سبع ساعات من وفاته لإجراء الأبحاث والدراسات عليه لكونه أحد أهم عباقرة القرن العشرين!

ألم يُجرّح ويُرمى حبيبي وقدوتي رسول الله ﷺ بأنّهُ ساحر ومجنون فقط لأنه جاء بأفكار تُخالف من كان قبلهُ ومعهُ! لذلك كن مُلتزماً بحبوة التحقيق، وابحث عن الحق في حقول وبساتين العلم والمعرفة، ثم تعامل بالمبدأ والحجّة، فإنسانية الإنسان تكمن في عقله، وعليه يجب علينا إحترام عقولنا إحتراماً لإنسانيتنا.

ولا يجب أن نَحصر أو نُضيّق مفهوم الله بشكل مُخصخص ومقتصر على طائفة ما، أو حزب ما، أو دائرة معيّنة، لأن الله تعالى ليس رب المسلمين فقط، وإنما هو رب العالمين!

مفهوم الله هو مفهوم عام وشمولي لكل الناس، فقال تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (الأية رقم 13 من سورة الحجرات) يتبين لنا من قوله سبحانه في الآية "أيها الناس" أن الله تعالى يتحدث إلى كافّة النوع الإنساني، لأنه سبحانه لم يقل: "يا أيها المسلمون أو المؤمنون!"، بل قال: "يا أيها الناس!"، ولهذا الداعي الكتاب "القرآن" هو رؤيا عالميّة وكونيّة.

كما أنه لا يجب علينا إهمال أن المسلم الحق هو من يتأدب حتى مع الكفّار والملاحدة، فيناقشهم بلطف ويحاورهم بالحجة، قال تعالى: "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (الأية رقم 99 من سورة يونس) وليس هذا فحسب، بل عليه أن يدعوا لهم بالهداية لا عليهم! ولا يفرح بأن فلان قد ضلّ الطريق وهو في النار، لأن حبيبنا ورسولنا ﷺ كان يعتريه الحزن على ضياعهم، فقال الله سبحانه واصفاً ذلك: "فلعلك باخع نفسك على اثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا" (الأية رقم 6 من سورة الكهف).

لقد سادت الساحة الاسلامية اليوم السطحيّة، بل وطفت فيها إغتصاب الجنة وتكفير الناس، والدين أدب وحياء وخُلق ورحمة وعلم أولاً، وليس عصبية جاهلية للحزب وللطائفة وللفرقة وللشيخ الفلاني والعلامة العلاني! لأن العالم والفيلسوف الحقيقي هو من يقرأ للكل ويأخذ للكل ويميز من الكل، ولا يكون مُنفعلاً لأمر أو ومتعصباً لمبدأ أو طائفة أو مدرسة أو شخص، ويسقط عدالة الآخرين على الضفّة الأخرى، حتى لو كانوا مخالفين!

ويجب أن يكون مقصودك هو الله، أما محسودك فدعه لله، فإن أصبنا في قولنا فهو من الله، وإن كان غير ذلك فهو من أنفسنا وشيطاننا، ونسأله سبحانهُ المغفرة وأن ويتجاوز عنا، فما تفوهنا بأي كلمة أو نطقنا بأي حرف سوى حُبّاً في الله، ولكي يقال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

أحيانا تقذفنا الصبيانية وعدم التفكير لإرتكاب خطأ يتوجب علينا رتقه، والوضع القائم كمن يضع لاصق جرح على نزيف حاد لا يمكن حبسه، وهذا يتطلب التدخل العاجل لإجراء عملية جراحية لوقفه.

لذلك وفدت يد التغيير، والتي ستقوم بإذن الله بإزاحة الصّغار، وتستبدل مكانهم الرّجال الحقيقيّين، وهم أولياء الله حقّاً وخاصّته، الذين عند ظهورهم سيبزغ فجر عصر جديد، ويوضع فيه مساراً مُحدث، يُقدّم في ثناياهُ مفهوماً جديداً للمعرفة والعلم والدين.

وهذا سيصنع عواصف من الجدل الفكري بين النوع الإنساني والذي سيعصف به المفكر، ولكن لا بأس، فليس المتعة بالشوكولاتة، بل بالأشخاص الذين نشاركهم بها.

لذلك، كن إستثنائياً يغير الوجود لمن هو موجود، كن كالسابع من أكتوبر والذي كان العالم سالفهُ شيء، وأضحى عُقبهُ شيئاً آخر!

في النهاية:

إني لا أخاف الموت، ولكني أخاف ألا يفهمني أحد!

إلى نفسي، إلي....

المقدّمة

العالم جميل جداً، وهذا الجمال متروك لك أيها الإنسان لإلتقاطه، فقط المطلوب منك هو أن تنظر، وأن تفتح عينيك وتبصر.

إنّني هنا أحاول أن أبحر في بعض منه، في عمق نظرة الإنسان إلى هويّتهِ وما وراء الجسد، فالإنسان هو نسيج من جسد وروح.

الجسد يلتصق بالعالم الفيزيائي والحسّي والمادي، بينما الرّوح تلتصق بالعالم الماورائي والغيبي، وتتطلّع دائما إلى المجهول، وإلى ما وراء الوراء وما خلف السماء، وتشتاق للعودة إلى منزلها الحقيقي والأبدي والأوّل عند الله تبارك وتعالى.

هناك جزء كبير فينا يشعر أنه غريب عن هذا العالم المادي وعن هذا الوجود! وهذا البعضُ هو سبب حزن الإنسان مهما بلغ من الماديّات والشهوات والأشياء، مهما نال منها إلّا أنّ هناك حزن يعتصره في الأعماق، وهذا الحزن مصدره أرواحنا التي تحن إلى الله وإلى لقياه، لذلك لا يستتشيج العمق فينا إلا بذكر الله الذي يطلبه الجزء الغير مادّي فينا ألا وهي الروح.

إن الإنسان مُركّب من جسد وروح، والإنسان دائما يعزف على أوتار الجسد، وأنا أردت أن أوجّه العزف على أوتار الرّوح.

وها أنا أحمل كماني مرّة أخرى لأعزف به على أوتار الروح في الجزء الثاني: عين الفيسلوف.

قبل أن نبدأ

لماذا يضحي الإنسان بحياته البيولوجية من أجل قيمة أخلاقية؟!

كان العلماء وما زالوا يتحايلون على معضلة الموت، فتراهم تارة يبحثون في العلوم عن إكسير الحياة، وتارة أخرى ينبشون في الطبيعة عن عطر الخلود.

كان أسبقهم وأبرزهم الكاتب العمومي الفرنسي (نيكولاس فلاميل) صاحب الكتاب الشهير "الخيميائي" والذي زعم فيه أنه نجح في التوصل لمادة تسمى "حجر الفلاسفة"، وهي مادة أسطورية تتيح لمالكها تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب لإنتاج إكسير الحياة، ولكن كل هذا لم يكن صواباً، فلم يكن فلاميل سوى كاتب، ولم يكن خيميائيّاً من الأصل!

على الضفة الأخرى سؤال، لماذا يفني الإنسان نفسه وينهيها من أجل الحب كالشاعر عبد الكريم الدجيماء؟ أو من أجل الوطن كالطبيب الفلسطيني عبد الله أبو تين؟ لماذا؟!

لماذا يضحي الإنسان بحياته البيولوجية من أجل قيمة أخلاقية؟ الحيوانات لا تفعل هذا، ولكن الانسان فعلها! صنعها بالشق الغير مادي فيه، بالأفق الأخلاقي والروحاني فيه.

هذا دليل حقيقي على أن الإنسان لا يقتصر تركيبه على المادة فقط، بل يتجاوزها ويعدمها من أجل الجزء الروحاني فيه، وسيبقى هذا الجزء في أحشائنا يُشْكِل ويرفض بل ويتمرّد على ماديّة الإنسان..

الجانب الآخر لهذا الوجود وللموجود.

هناك كفّ أخرى لهذا الوجود، هناك حرف فينا لا ينتمي إلى سطر هذا العالم الماديّ، فهو ليس من مكوّنات المادّة المغلقة على ذاتها، لذلك نلاحظ أن الإنسان يهتم بأمور وعلوم بعيدة جدّا عنها! ونرى مفكرين وعلماء إنعطفوا من الإلحاد إلى الإيمان عبر محرك الروح.

خِلاف الذين إختزلوا الإنسان في المادّة، وحاولوا هدم جوهره وإعدام حقيقته الروحيّة، كالمفكّر السعودي (عبد الله القصيمي) صاحب الكتاب الشهير "العالم ليس عقلا"، والذي إنقلب فيه حالهُ من مؤمن سلفي إلى مُلحد شرس، فرسم حدود عقله في الأرض وما فيها فقط، وأعدم الفكر الميتافيزيقي وكل ما هو وراء الطبيعة! وهذا هو تفكير البهائم في الحقيقة، لأن حافّة العالم البسيطة والسُّفليّة هي المادّة والتي نتشارك فيها مع الحيوان، وحين الإرتقاء إلى الجانب الآخر ستصل إلى الروح، ستصل إلى الإنسان..

الشّك الإبستمولوجي

المفكّر الحقيقي من يبدأ بالشك الإبستمولوجي وينتهي باليقين

عالم الفيزياء التجريبي العراقي (الحسن ابن الهيثم) كتب مرّة يقول: "الحقيقة تكمن في بطن الشّك"، والأديب العراقي(الجاحظ) والذي كان يعتبر الشك أساس المنهج العلمي المفضى إلى المعرفة اليقينية، خط فيه قائلا: "الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يَقينٌ قط حتى كان قبله شكّ، ولم ينتقل أحد من إعتقاد إلى آخر حتّى يكون بينهما حال من الشكّ"، أما الكاتب والأديب المصري (توفيق الحكيم) والذي خاض بدورهِ معاركهُ الشكية الفكرية مُتجاوزاً خط الدين، نثر هو الآخر هذه العبارة: "التفكير هو حركة الشك"، بينما راح الرّوائي والكاتب والأديب الروسي العميق (فيودور دوستويفسكي) يعلن ويسطر فلسفة الشك بهذه الكلمات: "إنني لم أؤمن بالله ولم أعترف به كما يفعل الطفل، وإنما أنا وصلت إلى هذا الإيمان صاعداً من الشك والإلحاد بمشقّة كبيرة وعذاب أليم".

إنّ كل إنسان مفكر يعتريه الشّك في مرحلة من حياته، ولكن ليس الشّك الساذجة "Skepticism" لشيخ الشكاك الفيلسوف اليوناني (بيرون) مؤسس هذه المدرسة الشكيّة، لأن هذا الإتجاه الفلسفي يعتمد على توقيف القرار في الأشياء، ففي هذه المدرسة كل شيء وكل مسألة قابلة للنفي والإثبات والسّلب والإيجاب بقوى متساوية ومتعادلة، فتبقى المسألة معلّقة ويضيع القطع والتّأكيد فيها، وعليه فإن الإنسان يصبح غير قابل للمعرفة من خلالها.

مؤسس هذا المذهب الشكّي هو الفيلسوف اليوناني (بيرو أو بيرون) وملخّص الشك لديه ولدى الشكّاك هو: "أني لا أدري، ولا أدري أنّي لا أدري"، بمعنى: "أنا أشك، وأشك في شكي، وأشك في أنني أشك".

لقد تبع خُطاهُ الفيلسوف اليوناني (أنيسيديموس) كما تأثر به الفيلسوف (تيمون) والذي حمل لواء الشك من بعده وكان خليفته، وعندما مات تيمون مات الشك، ولكن تم إنعاشه ليحيي من جديد في مصر لفترة زمنيّة بعيدة ثم إنتهى بعدها.

أنا لا أتحدث عن هذا الشك المذهبي الغرير، وإنما عن الشك الإبستمولوجي "الشك المعرفي"، وهذا الذي قصده (الحسن ابن الهيثم، والجاحظ، وفيودور دوستويفسكي، وتوفيق الحكيم، وحجّة الإسلام "الغزالي"، والفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكارت") وهذا ما حدث معي أنا أيضاً في مرحلة ما في حياتي، ويحدث مع كل مفكر واضح وفيلسوف جَلِيّ على صحن الأرض، يبحث عن حقيقة وجوده وحقيقة الوجود الموضوعي من حوله، حيث يكون شكّهُ منهجيّاً، فيبدأ به وينتهي باليقين.

ولكي يتّضح المقال، سأضرب مثالاً على شك الفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت) حيث كان شكّه سُلّماً وطريقاً للوصول إلى اليقين، فمن وجهة نظره لا نستطيع التمييز بين الحق والباطل إلا إذا أعدنا إختبار كل آرائنا وأفكارنا، لذلك كان شكّه منهجي، ولم يكن مذهبي وإعتقادي، لأنه بدأ بالشكّ وانتهى باليقين.

لقد قام بإرسال رسالة للراهب والقس (ميلان) يقول له فيها: (مثل الشك المعرفي كمثل سلة فيها تفاح، جزء منها سليم وجزء منهم مريض، فليس من الصّواب والسّداد أن نقول: "التفاح في السلّة سليم"، كما أنه ليس من الصّواب أن نقول: "التفاح في السلّة مريض"، وفي ذات الوقت لا يجب أن نَدع التفاحة المريضة بقرب السليمة لكيلا تنقل لها العدوى فتُتلفها! وإنما الحل السليم والصحيح هو أن نُفرغ كل سلّة التّفاح، ولا نعيد إليها سوى التفّاحة السليمة بعد إمعان النّظر فيها وتفحصها، والتفّاحة المعطوبة والمُصابة والمريضة نُنحّيها، وهكذا ننجوا من أن تغتال التفّاحة المريضة التفّاحة السليمة).

ما أراد أن يُوصله ديكارت هو أنّ التفّاح هو الأفكار، والسلّة هي الدماغ، بمعنى أن تُخرج وتُفرغ كل ما في دماغك من أفكار، وتضعها في ماعون التفتيش والتنقيب، والمحكمة العلميّة والعقليّة، فالصحيح منها تعيده إلى السلّة "الدماغ" والمصاب والمعطوب منها تستبعدها، وهكذا تنجوا من أن تغتال الأفكار المريضة الأفكار السليمة.

بهذا الشك المعرفي يصبح لديك دماغ مُمْتَلِئ بالأفكار السليمة، ويغدوا لديك عقل سليم الفكر والإعتقاد، وهذا هو الشكّ الإبستمولوجي، وهذا ما حدث مع الإمام الغزالي، حيث إعتزل الناس 11 عام، فغادر بغداد في شهر ذي القعدة "سنة ثمان وثمانين وأربعمئة"، فحج وتوجه إلى الشام، وأقام بها عشر سنين، قضى بعضها في بيت المقدس، وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة، ورياضة، ومجاهدة للنفس بتزكيتها، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما أنه وأثناء تواجده في سوريا، كان يعتكف في منارة مسجد دمشق طول النهار، لينتهي ويعود بعدها صوفي الإتجاه.

لقد نشب بي ما جرى معه، إلّا أنني لست صوفي الإتجاه، ولكني إعتزلت الناس عامين كاملين باحثاً عن نفسي وعن سرّها وعن حقيقة وجودها ومُوجدها، ولم يكن لي في هذه الرحلة صديق ولا رفيق سوى الكُتب.

بدأت سفري بالشك الإبستمولوجي، وإنتهيت منه موقناً أن الرسول ﷺ حق، والإسلام حق، والقرآن حق، والله هو الحق، قال تعالى: "ذلك بأن الله هو الحق" (الأية رقم 62 من سورة الحج) إن الله عز وجل هو الحقيقة الأولى والكليّة والمُطلقة، والذي قال بكلمته وكتب بيده كل الحقائق.

في النهاية:

الإنسان ليس حجراً أو صنماً أو شجرة أو بقرة، بل إنه مفكّر، لكن عندما يبدأ بالشك وينتهي به، فإنه يصبح هنا غاية لنفسه ولذاته، ولا يُتَطلع من خلاله إلى غاية أخرى أو هدف مُغاير، ولكن عندما يبدأ شاكّاً وينتهي موقنا ومعتقداً بشيء ما، هنا تصبح المعرفة ممكنة وسليمة.

إن كل مفكر أو عالم أو فيلسوف تحدثث عنه، عَبّر عن شكهِ وإنتهائهِ لدين معين أو إيمانه بإله كان وفق مفهومه هو للإله، وليس وفق مفهومي أنا! لأنني إنتهيت إلى لا إله إلّا الله محمد رسول الله، قال تعالى: "ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ" (الأية رقم 62 من سورة الحج).

لذلك، إنتبه أن تغتال التفّاحة المريضة التفّاحة السليمة!

الشك الإيجابي بوّابة لإستيلاد وإستخراج الأفكار

هناك الشكّاك، وهؤلاء الشكّاك لا يعرفون، فيعلّقون الحكم على الأشياء، ولو تطرّقنا لكوكبنا الأزرق كمثال، سيتبيّن لنا أن هناك أدلة على كرويّة الأرض وأخرى على أنّها مسطّحة، وسنجد موقف الشكاك من هذا الجدل كالآتي: "نحن لا نعرف هل الأرض كروية أم أنّها مسطّحة؟!"، ويقيّدون فتواهم لتكافؤ الأدلّة.

وهناك المُنكرون، الذي ينفون قضية ما "كإنكار الله مثلا"، ولكنهم يؤمنون بقضية أخرى على النقيض "كوجود الدّين مثلا".

ومن هنا راح الفيلسوف النّمساوي (كارل بوبر) يسأل: هل يمكن أن نعرف؟ وما هي إمكانية المعرفة؟ وما هي طبيعة هذه المعرفة؟ وما هي الوسائل التي نستخدمها لكي نصل إلى المعرفة؟ وهل هناك حدود لها، أم أنّ المعرفة لا شفير لها؟

وهذه المسائل هي نظريّة المعرفة "الإبستمولوجيا"، وهي جوهر ومحور فلسفة كارل بوبر، والذي خصّص كامل وقته للإجابة عنها، فدرس علوم مختلفة كالرياضيات والفيزياء والفلك وغيرها لكي يجيب عليها.

ومن إستفسارات بوبر ننطلق، هل يمكن أن نعرف؟ وهل خُلقنا لكي نعرف؟

هناك من أنكر المعرفة كالفلاسفة الشكّاك، وهناك من أطلقها بلا حدود، وقالوا أن الإنسان قادر على أن يعرف كل شيء وبلا حدود كالفلاسفة الدوغمائيون، وهناك من جمع بين الإثنين كالفيلسوف الفرنسي (إيمانويل كانت) والذي كان فيلسوفاً تجريبيّاً، وفي نفس الوقت إعتمد على العقل ولياقته، وليس هذا فحسب بل وضع حدوداً للمعرفة، وأنّ الإنسان مُعيّن، ولا يستطيع أن يكون مطلق الدّراية.

يجب أن نَعِيي أنّ المعرفة تبدأ بالشكّ، وهو مقتصر على مسائل المعرفة فقط، أما الوجدانات كالحب والكره وغيرها فلا يشملها، بل إنّ الشّاك يمكن أيضا أن يكون متديّن ويؤمن بعقيدة ما، لذلك لا تجدهُ إلّا في المسائل المعرفيّة والعلميّة فقط.

الفيلسوف اليوناني (أرسطو) في كتابه "ما بعد الطبيعة" يدعوا إلى الشك المنهجي، وأن تشتبه في كل شيء، والفلاسفة (أفلاطون، ورينيه ديكارت، وديفيد هيوم) نادوا بذلك أيضاً.

لكن هناك بعض الفلاسفة طرحوا شكّا معرفيّاً مُطلقاً، كشك (بيرون، وتيمون، ومونتيه) والذين عرضوا كما أسلفت أنّ جميع المسائل متماثلة البراهين، فهم يعتقدون أنه يمكن إثبات وجود الله، ويمكن إنكار وجوده أيضاً!

وجاء قسم آخر من الفلاسفة طرحوا شكّاً معرفيّاً مذهبيّاً، حيث قيّدوهُ في عقيدة ما أو أيدولوجيا ما، وأنه غاية لنفسه، كزعيم الفكر السوفسطائي (بروتاجوراس).

وهناك آخرون شيّدوا شكّاً معرفيّاً مَنهجيّاً، كشك (رينيه ديكارت، وأبو حامد الغزالي، والحسن بن الهيثم، وسقراط) وهذا الشكّ هو المُراد، وهو الذي أريد أن أضوي عليه، لأنّه طريق للوصول إلى هدف ما أو عقيدة ما، حيث أن الشاك يبدأ مشواره بالشّك وينتهي موقناً ومُعتقداً بفكرة معيّنة، وعندما يصل إلى غايته فإنّهُ ينتهي منه.

الفيلسوف الكلاسيكي اليوناني الشهير (سقراط) هو من شيوخ الشكاك منهجيّاً، وكان لا يُلقّن أحداً، فلم تكن طريقتهُ بإطعام الأفكار وإستجوافها وبلعها، وإنما كان يسعى إلى إستيلادها، حيث كان يُشكّك المُتحدّث أمامه في أفكاره.

كان يعتمد في تشكيكهِ لمُناظرهِ ومُحاورهِ على شكّان: الأوّل "السلبي"، ويُطلق عليه "التّهكُّم السقراطي"، فكان يعتمد التّهكّم على خصمهِ، لكي يُخْلِيَ عقلهُ من الأفكار الفاسدة والغير صالحة، فيقوم بِطَرح مسألة معيّنة عليه مثلاً، ليبدأ

الأخير بالحديث عنها وفق ما يعتقد، وفي المقابل نجد سقراط يستخدم السّخرية منها، بل ويجعل الحاضرين يستهزؤون منها أيضا حتى يتخلّى الأخيرعنها.

ثم يباشر بالشك الثّاني "الإيجابي"، والذي يقوم من خِلاله بإستيلاد الأفكار الصالحة عن طريق الحوار العميق والهادئ والهادف مع الغريم، وفي النهاية يشعر المُنافس أنّه تلميذ وأستاذ في نفس الوقت أمام سقراط، "تلميذ إزاء دهاء سقراط"، "وأستاذ لأن الفكرة كانت لديه، وسقراط هو من جعله يصل إليها بضرب من ضروب الهداية عبر الحوار".

العالم المسلم والفقيه الكوفي (أبو حنيفة النعمان) كان أيضا لا يلقن تلاميذه، وإنما يستخرج الأفكار والأحكام منهم بالحِوار، مع أنّ عدد تلاميذه كان يصل أحياناً إلى الآلاف، إلّا أنّه كان يعتمد على تشكيكهم بأفكارهم عبر الحوار الذي كان يستمر إلى أشهر في بعض الأوقات.

في النّهاية:

كانت قريش إذا سمعت بقدوم أحد من العرب، يهرعون إلى تحذيره من رسول الله ﷺ، فيصفونه ﷺ بكل نقيصة خشية ألا يدخل الناس في الإسلام بسببه.

كان ﷺ صلب الإرادة، يعود ويدعوهم إلى الإسلام، وكان هناك شاعر يُدعى (الطفيل بن عمرو الدوسي) يخاطب نفسه حائراً: "واثكل أمي، والله إني لرجل شاعر لبيب ما يخفى عليّ الحَسَن من القبيح! فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ إن كان الذي يأتي حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته".

ومكث حتى إنصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فتَبِعهُ حتى إذا دخل بيته دخل عليه وقال: "يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا، ثم إنّ الله أبى إلا أن أسمع قولك، فأعرض عليّ أمرك"، فعرض ﷺ عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فقال: "ما سمعت قولا قطّ أحسن منه ولا أمرا أعدل منه"، وأسلم.

لا يوجد حقيقة تُتناول من غير مُسائلة

بداية الشك المنهجي تنحدر إلى الفيلسوف اليوناني (سقراط) ثم إلى النص الإسلامي كأمثال (أبو حامد الغزالي، والحسن بن الهيثم، والجاحظ).

عندما طالعت العالم الموسوعي العربي والمسلم (ابن الهيثم) والذي كان مُبدعاً في كشوفاته العلميّة في مجال البصريات والتي بثّها في كتابه الخالد "المناظر"، أدهشني إسهامه الواسع في أنواع العلوم كالرياضيات والفيزياء والفلك والفلسفة وغيرها، والذي أذهلني أكثر هو لمسته الابستمولوجية والتي كانت سبباً في حيرتي! خاصّة تلك التي جاءت في مقدمة كتابه "الشكوك على بطلميوس".

يقول ابن الهيثم في مقدّمة كتابه "الشكوك على بطلميوس" أنّ الطريق للحق وعر وصعب، وأنّ سبيل الحق مغموس ومزيّن بالهوى والشّهوات والمُحرّمات، وأنّ الحق مطلوب لذاته.

وأضاف أنّ العامّة والأغلبيّة يثقون ثقة عمياء بالعلماء وكتبهم، فيبصمون على جُلّ ما قالوه وكتبوه دون تفكير وتمحيص وتدقيق! ويغفلون أنّ العلماء هم في نهاية الأمر بشرا وليسوا منزّهين من الخطأ، وعلمهم ليس بريء من الزّلل، مُبرّرا ذلك أنهم لو كانوا معصومين لما إختلفوا فيما بينهم!!

وختم يقول أنّ طالب الحق لا يُقدِّس العلماء، بل يشكّ فيهم، فالعالم إنسان في نهاية المطاف، ومجبول من ماء وطين، ولذلك ينال منه الخطأ والنقص، كما أنّهُ نبّأ أنّ طالب الحق والباحث عنه يجب عليه أن يتّهم نفسه ويتّهم الكاتب، بمعنى أن يُنازع ويُجادل الكاتب ونفسه معا لكي يكون حياديّا، فالحق في النهاية فوق الجميع.

لقد حاول ابن الهيثم تطبيق المنهج الذي قرّرهُ على عالم الرّياضة والفلك اليوناني الشهير (كلوديوس بطليموس) مؤلّفا كتابه تحت عنوان "الشكوك على بطلميوس"، حيث نجد ابن الهيثم في البداية يمدح ويثني على بطليموس في كتابه، وأنّه هو عبارة عن خُلاصة علم الفلك القديم، وأن كتابه "النّحو الرّياضي Syntaxe Mathematique" كان له الدّور الكبير في علم الفلك، حيث أطلق العرب عليه "المجسطي" وتعني"العظيم" إحتراما وتقديرا له.

ولكنه إنعطف يقول إنه عندما أردنا أن نُفتش وننقب ونُنبش وجدنا مواضع الشبهة والتناقض فيه، وأكّد في النهاية أنه لا يجب السكوت والتكتّم عن عيوب بطليموس وسَتْرها، لذلك كان ابن الهيثم هو أوّل من وضع مُقترحا لإصلاح فلك بطليموس الذي وصف فيه مركزيّة الأرض.

قام بتأسيس مكتبته الخاصّة، والتي دعا إليها أكبر العلماء عقلا وعلما للمشاركة، فساق إليها كل من (مؤيد الدين العرضي، ويحيى المغربي، وقطب الدين الشيرازي، ونظام الدين النيسابوري) الذين إنتهت أبحاثهم وأعمالهم في يد عالم الرياضيات والفلكي الشهير (نيكولاس كوبرنيكوس) والذي قام بدوره بهدم وردم نسق وفلك بطليموس، وليس هذا فحسب، بل قام بتحريك الأرض! ليتم توليد ثورة فلكيّة حديثة من رحم الفلك العربي.

في النّهاية:

لا يوجد حقيقة تُتناول وتؤخذ من غير تحقيق ومُسائلة، ولهذا السبب تحركّت الأرض بعد أن كانت ثابتة وساكنة لسنوات عديدة.

حريّة الإختيار لا تُعرف إلّا من خلال الجانب الآخر

بالمرحلة الوثنية كان هناك إلهين "إله للخير وإله للشّر"، وفي الأديان السابقة أيضا كان هناك إله للخير وآخر للشر، ففي الزارديشتية مثلا أو ما يعرف ب "الماجوسيّة الزارديشتية"، وهي إحدى الديانات الإيرانية القديمة ولكن بفلسفة دينيّة آسيويّة، كانت هذه الديانة هي الرسميّة للإمبراطوريات الإخمينيّة والبارائيّة والساسانيّة، وهي أحد أقدم الديانات في العالم، والتي شُيّدت على يد رجل الدّين الفارسي (زارديشت) كانوا يتّخذون فيها إلهين أيضاً.

الزاديشتيّين كان يعبدون "أهورا مَزدا" وهو إله الخير، و"أهريمان" وهو إله الشر، وهو عينه "أنغرا ماينو" بلغة الأفستا "Avestan"، وهي قريبة من الّلغة الفارسية، و"أهريمان" هو المتعارف لدينا "بالشيطان- إبليس".

بينما نحن المسلمين نعبد إله واحد فقط، وهو الله تبارك وتعالى، ورمز الشر بالنّسبة لنا هو "إبليس"، وهو ليس إله وإنما مخلوق من مخلوقات الله، رفض كلمة الله تعالى بالسجود لآدم ليصبح لاحقاً علماً لكل ما هو سيّء.

لماذا هذا الملعون "إبليس" وإغوائه وعصيانه ليس حادثة أو ظاهرة أو قصّة بالنسبة لنا، وإنما ضرورة! بمعنى، لماذا يخلق الله تعالى هذا الشر؟ وهل وجود إبليس ضروري؟ لقد كان وما زال هذا السؤال الأهم للنوع الإنساني، ولبعض الإتجاهات مثل المشكّكين "Skeptics"، واللّاأدريين "Agnostics"، واللّادينيّين "Not religious"، والملاحدة "Atheist"، فهو عبارة عن نافذة بالنسبة لهم جميعاً، فمن وجهة نظرهم هم يتنفّسون الهواء ويبرّرون أفعالهم بسؤالهم: كيف يخلق الله نقيضهُ ثم يأتي ليحاسبنا على أعمالنا؟ هذا ظُلم ولا يُصُح وليس من العدل في شيء!!

إنّني أجد بكل تواضع أنّ وجود إبليس ضروري، وبالتالي وجود الشر لازم لنا، لأن حريّة الإختيار لا تُعرف إلّا من خلال الجانب الآخر، ولن يكون هناك معنى للحرّية إذا لم يكن هناك حيّز للشّر بالتواجد إلى جانبنا، وتخيّل معي أنّ إبليس ليس له وجود، معنى ذلك أنّه لا يوجد شر، وبالتّالي لن نرتكب المعاصي والذّنوب والأخطاء، وعليه فإننا أصبحنا تماماً كالملائكة، لا فرق بيننا وبينهم، ولن يكون للإنسان ولحريّته وإختياره أي معنى، لأن الله تعالى لا يريد مخلوق مبرمج على طاعته، ولو أراد هذا لأخلف الملائكة عِوضا عن الإنسان، ولقد طلبت الملائكة ذلك من الله عندما قالت: "قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ" (الأية رقم 30 من سورة **البقرة**) ولكن رؤية الله سبحانهُ وخُطّته مختلفة تماماً.

الله سبحانه صاغ مخلوقاً يختلف جملة وتفصيلاً، فقد ركّب سبحانهُ فيه الخطأ، وبالتّالي فإنّ آدم عبّر عن حريّة إختياره في المعصية لا في الطاعة، لأن الحريّة تعبّر بكلّا قبل نعم، وهذا يعني تمكين القدرة له على الرفض قبل القبول، لأن وجود المعصية هو دليل على الحريّة، ورب العالمين يُحب أن يُعصى فيُستغفر، وهنا جدليّة التوبة والطاعة والمعصية، لذلك قال رسول الله ﷺ: "كل بني أدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون".

وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال، قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فَيُغفر لهم".

ولكن علينا أن نَعي أن الله تعالى قال: "وما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك" (الأية رقم 79 من سورة النّساء) ولهذا جائت الرسالة، فقال تعالى: "وأرسلناك للناس رسولا" (الأية رقم 79 من سورة النّساء) فبعث الله عزّ وجلّ لنا الرّسل والرسول الأعظم محمد ﷺ، ليوضّح لنا الأوامر والنواهي والحلال والحرام، فقال تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي" (الأية رقم 90 من سورة النّحل).

يقول ﷺ لنا بما معناه: إن الله لا يأمر بالزنا، إن الله لا يأمر بالكذب، إن الله لا يأمر بالقتل، لذلك ما أصابك من سيئة فمن نفسك، لأن تلك الفاحشة التي فعلتها كانت بإرادتك وبإختيارك الحر، وهذا هو عملك وصُنعك، ولا شكّ أنّ الله تعالى خلق الخير والشر، ولكن الشر يُنسب لنا، فهو من أيدينا ومن أعمالنا.

في النهاية:

الملائكة نتيجتها ونهايتها ومصيرها معروف، ووظيفتها وقَدَرها ومقامها مَعلوم ومُحدّد، بينما الإنسان يجب أن يكتب قدرهُ ومصيرهُ، وهذا ينقلنا إلى أن المَلك هو كائن ناجٍ لا محال، ولا يوجد إحتمال خسارة بالنّسبة له، لأنه لم يطلب الحريّة، بينما الانسان طلبها، وهو يحاول أن يبحث ويكتشف ويتعلّم ويحلل ويَخرُج بنتيجة لكي ينجوا بكل الوسائل، وبالتالي فإن الإنسان إزاء إحتمالين، إمّا النجاة أو الخسارة، ولا معنى للنّجاة بغير إحتمال خطر الخسارة.

الرّوح

الروح هي جزء مفارق يسكن الجسد

في البداية "الرّوح" تُذكّر وتؤنّث، وهي أحد موجودات ومخلوقات الله تعالى، وهي من المعرفة التي إختصّها الله سبحانه وتعالى بعلمه فقط، وليست من العلوم التي تتّسم بثقافة النوع الإنساني.

الروح هي جزء مفارق يسكن الجسد، ولا تنثني تحت جناح الزّمكان، أمّا النفس هي جزء مادي يخضع لقوانين الجسد، وهي تخنع للزمان والمكان.

ولكن هناك بعض الإسلاميين من أعادها إلى المادّة، فقالوا أنّ الجسد إذا إنخرط ببعضه البعض تكوّنت النّفس والرّوح، فإذا إنحلّ إنحلّت النّفس والرّوح وكل شيء، بمعنى أن الرّوح مكوّن مادّي من أجزاء الجسد، وليست عنصراً آخر مفارقاً له، وهم بقولهم هذا تماما كالذين قالوا بأنّ الله تعالى هو جزء من مكوّنات هذا الوجود، وأنّه ليس مفارقاً له! وهؤلاء هم الواحديّون "Pantheism" أو ما يعرف ب "مذهب الإتحاديّة" أو "وحدة الوجود"، وهو إتجاه فلسفي مختصره يقول أن الله والطبيعة حقيقة واحدة، وأن الله هو الوجود.

ومنهم من وافق الروح بالنفس، وكأنهما حقيقة واحدة، فقالوا إذا أوعبت الروح في الجسد واقترنت به تكوّنت النفس، وهذا ما عليهِ أكثريّة الإسلاميّون الذين ساوُوا بين النفس والروح، والجدير بالذكر أن معادلة النفس بالروح هي إغريقية الأصل، وقالت بها الهيلينيّة، وصوفية الهند، وإنتقلت إلى الفلسفات الإسلامية من حكماء ورجال دين وجمهور.

وفي رأيي المتواضع أن كل ما تقدّم ذكره هو تبيين ماديّ لا صحّة له، سواء على صعيد المذهب الفلسفي "الواحديّة" أو على غِرار الذين عادلوا بين النفس والروح وخصوصاً علماء الإسلام وشيوخهم.

وأحد أهم نظريّات بطلان جُلّ ما سلف هو "الأحلام الإستشرافيّة"، أو ما يُعرف عند المسلمين "بالرُّؤى"، لأن الذي يرى في تلك الّلحظة هو جزء غير مادّي فينا.

لقد وردت الكثير من الأحاديث الصحيحة في هذا الباب، فعن أبي قتادة رضي الله عنه حِينَ نَامُوا عَنِ الصَّلاَةِ، قَالَ النَّبِيﷺ: "إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ"؛ رواه البخاري (7474). وعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرِهِ الَّذِي نَامُوا فِيهِ حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: "إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْكُمْ أَرْوَاحَكُمْ، فَمَنْ نَامَ عَنْ صَلاةٍ فَلْيُصَلِّهَا إِذَا اسْتَيْقَظَ، وَمَنْ نَسِيَ صَلاةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَ"؛ رواه أبو يعلى في المسند (192/2).

وكثيرا ما يحدث أن شخص ما عندما يخلُد إلى النوم، فإنه يرى في منامه إحدى معارفه، حيث ينبئهُ الأخير بأمر ما سيحدث معه في المستقبل، وحينما يستيقظ من غفوته، وتمضي الأيام، فإن رؤياه تتحقّق في الواقع تماما كما رآها قبل بضعة أيام في منامه، وهذا موضوع متواتر جدّا بين النّاس سواء كان مؤمناً أو ملحداً، وهو مؤشر خطير على أنّ هناك مكنون غير مادّي يسكن هذا الجسد المادّي، وهو الذي رأى، وهي الرّوح.

هذه الرّوح ليست شريحة من جسماننا، وإنما عارض فيه، ولا يستطيع أي مفكر أو عالم أو فيلسوف حقيقي أن يُنكر هذه الثّنائيّة وهذا الجوهر الغير مادّي المجبول في نسيجنا.

لقد ذهب (ابن سينا) في هذه الجزئية يقول: "بما أن الانسان يدرك الماضي والحاضر والمستقبل، إذا هذا يعني أنه يوجد في تركيبه شيء غير مادّي، لأنّ المادّة تخضع للزمن، فالبصر يضعف، والشّعر يشيب، والظهر ينحني، والجسم عبر الزمن يتهدّم حتى يموت، لكن الجزء الغيبي-الروح- في الإنسان لا يموت، لأنّ الزّمن لا يتخلّلها، فهي تشعر بالزمن ولكنّها غير متزمّنه".

وإنني أجد ما قاله ابن سينا صحيح ومنطقي، فبما أن الإنسان يشعر بالزّمن هذا يعني أنّ هناك جزء منه لا ينتمي لطبيعة الجسد والوجود والمادّة، وهو بالتأكيد لا زماني ولا مكاني، لأنهُ لا يوجد معنى للزمان والمكان بالنسبة لهذا الأفق، لذلك صرح عالم الوراثة والأحياء البريطاني (جون هولدين) قائلاً: "لو كان الإنسان مادّي والوجود هو مادّة وليس فيه إلّا المادّة لن يُدرك الإنسان ذلك؟! ولأنّه أدرك ذلك هذا يعني أن في الإنسان شيء غير مادّي".

أستاذ اللغة العربية في جامعة بغداد (فاضل السامرائي) كان ملحداً، وأوعب في الإسلام لأنّه بان له بعد برهة من الزمن أنّ في الإنسان لبابة غير مادّية، وكان ذلك بعد أن رأى رؤية تنبؤيّة في منامهُ، حيث جائهُ والدهُ الذي توفّي منذ وقت طويل في منامه ليخبره أن يَسُدّ عنهُ دينهُ لرجل معيّن، فما كان من الأستاذ فاضل السامرائي إلّا أنّه ذهب ليتحقّق من رؤياه، ليتفاجئ أنّ أبوه في الحقيقة كان عليه هذا الدّين لذلك الرجل!؟

يقول على إثرها أنّ الذي جائه في الحلم ليس والده المادّي "الجسد"، وإنّما روح والده، وهي التي تحدّثت معه في المنام، وتواصلت معه عَبر الجزء الغير مادي فيه وهي روحه هو!

والأعجب من ذلك قصّة الطبيب والكاتب المصري (مصطفى محمود) والذي دَخَل في دَوّامة فكريّة جعلته يُعيد النّظر والحسابات في كل شيء، فقد كان تفكيره علمانيّاً وماديّاً لقرابة 30 عام، ولم يكن لديه أي إهتمامات بالله تعالى أو في الدّين.

وفي إحدى أيّامه وهو على مشارف النّوم يتّصل به مساءاً صديقه الكاتب المصري (جلال العشري) فيجيبه الدكتور مصطفى وهو شبه نائم، لينتبه لذلك جلال العشري ويقول له: "يبدوا أنك نائم يا دكتور، أنا متأسّف، سأتّصل بك غدا صباحا".

فما كان من د. مصطفى إلا أنهُ وضع سماعة الهاتف جانباً وغرق في النوم، وإذا به يرى حُلما عجيباً وغريباً كان سبباً في تغيير أفكاره ونظرته للوجود، يقول الدكتور: (حَلِمت أنّي أرى صديقي الكاتب "جلال العشري" الذي إتّصل بي، يسير في شارع في مصر إسمه "سليمان باشا"، وبصحبته زميله الرّوائي والمسرحي "شوقي عبد الحكيم"، ويتكلمون في حلمي عن الرّوايات والكُتب ونقدها).

إستيقظ بعدها د. مصطفى من منامه، ورفع سمّاعة هاتفه ليتّصل بصديقه الكاتب جلال العشري، وعندما إستجاب قال له: ("تخيّل أنّي رأيتك في حلمي تسير بصحبة شوقي عبد الحكيم في شارع سليمان باشا! حتى أنني أذكر أنك تحدّثت معه في الرّوايات والكُتب ونقدها!") فردّ عليه جلال العشري قائلا: ("مستحيل! غير معقول! لا يُمكن! ما رأيته في حُلمك يا دكتورمصطفى حدث معي حقّاً! أنا فعلا كنت برفقة شوقي عبد الحكيم في شارع سليمان باشا وتحدّثنا في الرّوايات والكُتب ونقدها!؟").

وهنا كانت الصّفعة الكبرى للدكتور مصطفى فتلجلج في الإتصال وسقطت سمّاعة الهاتف من يده! لقد كان ما حدث معه باعثاً لإنخراطه في دَوّامة فكريّة جعلته يُعيد النّظر والحسابات في كل شيء.

يقول الدكتور وهو في حيرة من أمره: ("معنى هذا الحُلم وما وَقع فيه من أحداث هو أنّني رأيت من غير أعين! وأصغيت من غير آذان! كيف حدث هذا! كيف رأيت وسمعت زملائي الإثنين "جلال العشري" و "شوقي عبد الحكيم" يتحدثون عن الرّوايات والكُتب ونقدها من دون جسد فيزيائي!؟ من غير أن تبصرهم عيني، وتسمعهم أذني، وأنا راقد على سريري ومستغرق في النوم!؟).

يكمل: ("أنا لم يكن لدي أي إهتمامات دينيّة وقتها، ولكن كان لدي عِناية بالفلسفة واليوغا، فتَنَاولت موضوع الأحلام والإتصال من خلال التأمّل وغيرها، وعكفت على معظم كتب الفلسفة واليوغا والتي تحدّثت عن موضوع الجلاء البصري و الجلاء السمعي، وأنّه يمكن من خلالها تقوية هذه الموهبة، فذهبت إلى لندن لشراء كتب في التأمّل وفي

التركيز "Meditation و Concentrations" ولم أكتفي بالكتب فقط، بل إتجهت إلى صديقي السفير الهندي "أبابانت" وأخبرتهُ بحُلمي، لينصحني السفير بتمرين مشهور يدعى"Shoria namashkar"، وقام بتعليمي إيّاه).

ثم أردف يتحدث: ("فعلت كل ما ذكرته الكتب، وأنجزت كل ما قاله السفير لي، ولكن النتيجة كانت صفر! فلم أتمكّن من أن أستعيد تجربتي في الحُلم، ولم أستطع أن أقوّيها").

ثم ختم بهذه الكلمات: ("لقد خرجت بتفسير واحد فقط لما حدث معي، وهو أنّ هذه ظاهرة خارجيّة من الله، حيث أن الله عز وجل يقوم من حين لآخر بتبيان معلومة للإنسان، وهذه المعلومة يقصد بها إمّا رحمة أو فتنة أو إبتلاء، وذلك ليقيم حجّته على كل إنسان، وما حدث معي كان رحمة من الله، حيث قام بتبيان معلومة لي يستدرجني من خلالها بلطف أني كنت على خطأ في تفكيري المادّي، والحقيقة هي أن هناك جوهر في نسيج الإنسان المادّي، وهو أعمق من فيزيائيّته، وهو الرّوح").

وهذا ليس ببعيد عن رؤية والدتي "أمّ محمد" حفظها الله، والتي هيّجت تفكيري وحرّكت فيه الإنقلاب، حيث أن لي أخ صغير إسمه "علي"، وكانت جدّتي لأبي رحمها الله تحبّه جدّاً، ولحظة نزاعها همست في أذن أمّي قائلتاً: (أوصيكي بأن تشتري لحبيبي "علي" حقيبة مدرسيّة عندما يصبح في الصف الأول، وأن تخبريه بأنها هديّة من جدّتك) وبعد بضعة أيام إنتقلت جدّتي إلى الرّفيق الأعلى وفارقت الحياة.

مضت الأيام والأشهر، ودخل أخي "علي" الصّف الأوّل في المدرسة، وكانت أمّي حفظها الله قد شغلتها أمومتها وأنستها وصيّة جدّتي رحمها الله.

وفي إحدى أيّام أمّي كانت تستعد للنّوم، وغالباً كانت لا تنام إلّا بعد تلاوة ما تيسر لها من كتاب الله، وكعادة النوم ينسل في أركان أمي كلص يتسلّل بهدوء جدران ذلك البناء، لترى على وهلة جدّتي رحمها الله في منامها، فاقتربت منها، وهمست بأذنها قائلتاً: (حبيبي "علي" صار بالصف الأوّل، وإنتي نسيتي وصيتي) ثم انطلقت.

إستيقظت أمّي من النّوم، ولكنها لم تلق بالاً لما رأته في حلمها، وقالت: "لعلها أضغاث أحلام!"، وجرت الأيّام، وفي إحدى اللّيالي وإذا بجدّتي رحمها الله تقفز في منام أمي على بغتة وتخبرها بنبرة حادّة: ("علِي" صار بالصف الأوّل، وإنتي نسيتي وصيتي) ثم توارت.

نهضت أمي وقد نال الخوف بعض منها، وقالت في نفسها: "عادي! متخافيش! بتصير مع كتير إنو الحلم يتكرر، عادي!"، وإنطلق نهار أمي وليلها في سباق طويل، حتى توقف عند تلك اللّيلة والتي وثبت فيه جدتي رحمها الله على حين غرّة كعادتها، ولكنها كانت غاضبة هذه المرّة، فصرخت في أمي: ("علِي" صار بالصف الأوّل، وإنتي نسيتي وصيتي!!) ثم إختفت.

قامت أمي هذه المرة مفزوعة! وراحت تهدئ من روعها وتقول: "هادا مش حلم، هاي رؤية حقيقيّة"، ودأبت تسأل ذاتها: ("إيش وصّتني حماتي قبل ما تموت؟! إيش وصّتني؟") لتتذكّر أخيراً أن جدتي أوصتها بشراء حقيبة مدرسيّة لأخي علِي عندما يصبح في الصّف الأوّل في المدرسة، وأن تخبره أنها هديّة له منها.

فما كان من أمّي إلا أن ذهبت على عجالة إلى السوق، وابتاعت لأخي علِي الحقيبة، وأرسلت خلفه، وأخبرتهُ: ("هاي الشنطه هدية من سِتّك إلك، وصّتني إني أعطيك إياها لما تصير بالصف الأول").

العجيب في كل القصّة، أن جدتي رحمها الله توقّفت عن الظهور بعد ذلك لأمي في منامها!!

عندما حدّثتني أمي حفظها الله عن رؤياها هذه، إنتفض بدني وثار فكري على أرض عقلي، واستغرقت لأيام عديدة في التحليل، لأنتهي أخيراً بأنّ الإنسان مخلوق ثلاثي مركّب من ثلاثة أركان: "جسد، نفس، روح".

إن الذي حدث مع والدتي حفظها الله وهو أن روحها إلتقت بروح جدّتي رحمها الله في فضاء ليس له أبعاد، فجسد أمّي راقد فوق السرير، ونائم في سبات عميق! وجسد جدّتي تحت الأرض، ولقمة للدّود! لذلك كانت الوسيلة لنقل الرسالة والوصية عبر الإتصال الروحي بينهما، من خلال هذا الجزء المفارق المقترن في أجسادنا والمهاجر منها، لقد كانت هي "الروح"...

في النّهاية:

الرّوح هي التي رأت بعينها التي ليست كأعيننا، وصغت بأذنها التي ليست كأذننا، سواء في قصّة الدكتور مصطفى محمود رحمه الله، أو في قصّة أمّي حفظها الله.

لذلك، أنا على قناعة تامّة أنّ هناك جزء من الإدراك لا ينحل بإنعدام الجسد سواء في حالة النوم أو الموت، لأن حقيقة الإنسان هي الرّوح وليس الجسد.

الروح في عيني ليست هي النفس في عين سقراط

إن الموت لا يخرج عن حالتين، الأولى هي العدم، والتي نادى بها الفيلسوف الواقعي (أرسطو) والثانية هي الإنتقال، والتي نادى بها الفليسوف الطبيعي (سقراط).

لقد كان الموت إحدى أهمّ الموضوعات في فلسفة سقراط، فكان يقول لتلامذته: "إذا كان الموت نوم بلا أحلام، فهذا جميل، فكم يتوق الإنسان إلى أن يكتفي من المتاعب والهموم، وأن ينتهي من آلامه وأحزانه، وأمّا إذا كان إنتقال فهذا أفضل".

الموت بالنسبّة لسقراط لم يكن النهاية، بل كان إنتقال، حيث كان يرى أن النفس ترتحل من حياة إلى أخرى قبل الجثوم في الجسد أو بعد مغادرته، ولهذا كان يعتقد أن النفس واقفة بذاتها، ولا تموت عند موت الجسد، وإنما تنفصل عنه.

وكان يؤمن بوجود حياة أخرى، وهذا ما جعله يواجه الموت ويقدم عليه مدافعاً عن أفكاره ومتمسكاً بمبادئه، فاحتسى فنجان الموت أمام صراخ أحبّائه وإعتراض تلامذته وبكاء السجان!

لم يكن يمثل الموت بالنسبة لسقراط أيّة معضلة أو همّ، لذلك لم يبرّر هربهُ من هذه الحياة التي وهبها الله تعالى إياها، فساغ سقراط إقدامه على الإنتحار بتجرّعهِ للسم بأن الموت ينزل بيد الإله الذي خلقنا ووهبنا الحياة حتى لو كان إنتحاراً، لأن الموت والحياة موضعان يحدثان دون إرادة الإنسان ودون تدخل منه.

المؤلف (جون هيرست) صاحب كتاب "أوروبا تاريخ وجيز" يصف لنا طريقة إعدام سقراط والتي كانت عبر إرتشافهِ السم، حيث خطّ لنا في صفحاته كيف قصّ لنا الفيلسوف المثالي (أفلاطون) تلميذ سقراط هذه الحادثة، وكيف واجه أستاذه سقراط الموت أمام تلامذته متجرّعاً ذلك السّم، ولم يتخلى عن مبادئه وأفكاره وفلسفته.

وبصرف النظر عن حكمة سقراط وشجاعته، إلّا أنّه في رأيي المتواضع كان يعادل بين النفس والروح، ومعظم علماء العصر الحديث على الصعيد الإسلامي أو غيره يعدّون الروح والنفس شيئاً واحداً، مبرّرين ذلك وفق مفهومهم لما ورد في النصوص الشرعية، ومنهم من يعتقد أن الروح إذا حلّت في الجسد إستحالت إلى نفس، ومنهم من ذهب على أن النفس تُطلق على الروح والجسد معاً.

وإنّني أرى بكل تواضع أن كل ما تقدّم ذكره هو في بعضه باطل، وفي غير ذلك هو ضرب من ضروب الكِناية "Metahpor" وليس الحقيقة، مؤكداً على أن هناك علاقة بين الروح والنفس، ولكن الروح كَمبنى ومعنى تختلف كليّاً عن النفس، وعند الإمعان في كتاب الله ستقف على الفروقات بينهما.

قال تعالى: "وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله كتاباً مؤجلاً" (الأية رقم 145 من سورة آل عمران)، وقال تعالى: "وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت" (الأية رقم 34 من سورة لقمان)، وقال تعالى: "وإذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون" (الأية رقم 93 من سورة الأنعام)، وقال تعالى: "كل نفس ذائقة الموت" (الأية رقم 185 من سورة آل عمران)، وقال تعالى: "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين" (الأية رقم 155 من سورة البقرة)، وقال تعالى: "اللهُ يَتَوَفى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمى إِن فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكرُونَ" (الأية رقم 42 من سورة الزمر)، وقال تعالى: "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ" (الآية رقم 27 من سورة الفجر)، لو طالعنا الآيات السبعة التي تم ذكرها آنفاً سنجد أن المخاطب بالموت هي النفس، بينما الروح لا!

بل إن الله تعالى حرّم قتل هذه النفس الإنسانيّة سواء كانت مؤمنة أم غير ذلك، فقال تعالى: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا" (الأية رقم 32 من سورة المائدة)، وفي موضع آخر قال تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوا النفْسَ التِي حَرمَ اللهُ إلا بالحق" (الأية رقم 151 من سورة الأنعام).

كما أنّ النفس هي المأمورة وهي المسؤولة، وهي ما يدور عليها التكليف من عمل أو قول، فقال تعالى: "ونفس وما سوّاها، فألهماها فجورها وتقواها" (الأية رقم 8 من سورة الشمس)، وقال تعالى: "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ" (الأية رقم 32 من سورة فاطر)، وقال تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: "تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إنكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ" (الأية رقم 116 من سورة المائدة) بينما الروح لا!

إذن، النفس هي محل للتكليف، قال تعالى: "لا يكلف الله نفسا الا وسعها" (الآية رقم 186 من سورة البقرة) وقال تعالى أيضاً: "وتوفى كل نفس ما كسبت" (الآية رقم 281 من سورة البقرة) إضافة إلى أن النفس تشتهي، قال تعالى: "وفيها ما تشتهي الأنفس" (الآية رقم 71 من سورة الزخرف) بينما الروح لا!

كان بإمكانه جل في عُلاه في كُل الآيات السالف ذكرها أن يقول "روحي" عِوضا عن "نفسي"، أو أن يقول "روح" بدلاً من "نفس"، أو "الروح" إستعاضة عن "النفس"، ولكنه سبحانه أخبرنا أنها "النفس" للدلالة على أن النفس تختلف عن الروح.

أمّا عن الروح فقد قال الله تعالى فيها: "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي" (الأية رقم 92 من سورة الحجر)، وقال تعالى في أمّنا مريم عليها السلام: "والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا" (الأية رقم 91 من سورة الأنبياء).

نلاحظ أن الروح نُسبت إلى الله في القرآن، ولا ينسب الى الله الا كل شريف، بخلاف النفس، لأنها عالم من المتقابلات والمتضادات، فإما ان تكون مطمئنة أو لوّامة أو أمارة بالسوء، وإما أن تكون موطن للشهوة، أو مسكن للوسوسة، قال تعالى: "فطوّعت له نفسه قتل أخيه" (الآية رقم 30 من سورة المائدة) وقال تعالى: "إن النفس لأمّارة بالسّوء" (الآية رقم 53 من سورة يوسف).

وعلي أن أنوّه هنا إلى أن الروح لها معاني مختلفة، ومصاديق ومسمّيات مختلفة، الأول وهو "جبريل عليه السلام"، قال تعالى: "نزل به الروح الأمين" (الآية رقم 193 من سورة الشعراء) وقال تعالى: "تنزل الملائكة والروح فيها" (الآية رقم 4 من سورة القدر) وقال تعالى: "اذ ايدتك بروح القدس" (الآية رقم 110 من سورة المائدة) والثاني وهو ملك يدعى "روح"، قال تعالى : "يوم يقوم الروح والملائكة" (الآية رقم 38 من سورة النبأ) والثالث وهو "القرآن"، قال تعالى : "كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا" (الآية رقم 52 من سورة الشورى) ورابع وهو "المسيح عيسى"، قال تعالى : "وروح منه" (الآية رقم 171 من سورة النساء) والخامس وهو ما يُعرف ب "سر الحياة"، قال تعالى: "ويسألونك عن الروح" (الآية رقم 85 من سورة الاسراء) وقوله تعالى: "ونفخت فيه من روحي" (الآية رقم 29 من سورة الحجر).

كما أن النفس لها معاني ومصاديق مختلفة، الأول وهو "ذات الإنسان"، قال تعالى: "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها" (الآية رقم 111 من سورة النحل) والثاني وهو "ذات الله"، قال تعالى: "ولا اعلم ما في نفسك" (الآية رقم 116 من سورة المائدة).

في النهاية:

أمّا عن هذا السائح الغيبي، وهذا الطائف الأثيري، فإنّهُ سيبقى العالم المجهول الذي يتخلّل أجزائنا ما حيينا، قال تعالى: ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (الأية رقم 85 من سورة الإسراء).

روح الإنسان ومشروع خلوده

في مجال الأنثروبولوجي، يطرح كتاب "إنكار الموت" للمؤلف والكاتب وعالم النفس الأمريكي (د. إرنست بيكر) عام 1960 م فكرتين:

الأولى هي أن الإنسان كائن فريد، حيث أنه الحيوان الوحيد "مع تحفّظي على إطلاقه لفظ الحيوان على الإنسان" ولكنه قال أن الانسان هو الحيوان الوحيد القادر على تصور نفسه والتفكير بها بشكل مجرد، وهذا صحيح، فلو جئنا للحيوانات مثلا فلن نجد الكلاب تجلس هنا وهناك قلقة على حياتها المهنية! ولن نرى القطط تفكر في الأخطاء التي إرتكبتها في الماضي، أو نبصرها تتسائل عما كان بالإمكان أن يحدث لو أنها فعلت شيئا بطريقة مختلفة! ولن نعاين أن القردة تدور بين مجادلات حول معادلة فيزيائية! أو نمعن تلك السمكة تتسائل إن كانت بعض الأسماك الأخرى ستحبها إن كانت زعانفها أطول مما عليه أم لا!

لكن نحن البشر نَنْعم بالقدرة على تخيل أنفسنا في حالات إفتراضية، فنصنع عالم ونستبدل آخر، ونسبح في الفضاء ونعوم في تلك الكبسولة، ونسكن ذلك الكوكب، ولقد إنطلقت من حنجرة الفيزيائي الرهيب (ألبرت آينشتاين) كلمات وصفت هذه القدرة حيث قال: "المعرفة تأخذك من نقطة أ إلى ب، بينما الخيال يأخذك إلى كل مكان".

يقول "بيكر" أن الإنسان نتيجة هذه القدرة العقلية الفريدة يدرك حتمية موته عند نقطة ما، وبما إنه قادر على تصور نسخة أخرى من الواقع، فهذا يعني أنه الجنس الوحيد القادر على تخيل نفسه في واقع لا يكون له فيه وجود من الأساس، وبسبب هذا الإدراك والذي أطلق عليه بيكر إسم "رعب الموت" تجلّى فينا قلق وجودي عميق يستبطن كل ما نفكر فيه وكل ما نفعله.

والثانية هي أطروحات مفادها أن لنا "نفسين" من حيث الأساس، الأولى هي النفس الجسدية "المادية"، والتي تأكل وتنام وتشخر وتتغوط، وأما الثانية هي النفس "المتخيّلة"، والتي تتكوّن من أفكار، وهي هويتنا، ومصباحنا الذي أنار في عقلنا السؤال بكيف نرى أنفسنا.

يضيف "بيكر" أن كل إنسان يدرك أن نفسه الجسدية سوف تموت في مآل الأمر، فالموت جبري، وهذه الحتمية تخيفنا كثيراً على مستوى غير واع، ومن هنا وحتى نعوض عن خوفنا من الخسارة المحتومة لنفسنا الجسدية فإننا نعمل على إنشاء نفس "متخيلة" قادرة على العيش الى الأبد.

وهذا هو السبب الرئيس الذي يجعل الناس مهتمين كثيراً بوضع أسمائهم على المباني وفي بطون الكتب، ونحت تماثيل لهم، وتدوين حياتهم وتسجيلها على أشرطة الفيديو، فهذا ما يجعلهم يشعرون بالحاجة الى قضاء وقت طويل لتكريسه للآخرين، وخاصّة للأطفال، أملا منهم أن يدوم تأثيرهم فيهم من خلال هذه النفس الإفتراضيّة، الى ما بعد فناء النفس الجسدية "المادية"، حيث تكون آمال الآخرين معقودة على أن هناك من يتذكّرهم ويوقّرهم ويجلّهم بعد زمن طويل عندما تكف أنفسهم الجسدية عن الوجود.

لقد أطلق "بيكر" على كل ما مضى مسمى وهو "مشروعنا للخلود"، والذي يسمح لأنفسنا المتخيلة بالعيش زمنا طويلاً بعد نقطة موتنا الجسدي، فمن وجهة نظره أن الحضارات البشرية جميعها ليست أكثر من نتيجة لمشاريع الخلود هذه "من مدن، وحكومات، وسلطات، ومنشآت، وصروح قائمة إلى اليوم"، هي في النهاية مشاريع خلود أقامها رجال ونساء عاشوا قبلنا، وهي البقية الباقية من أنفسهم المتخيلة التي إمتنعت عن الموت.

إن الذي قام بتأسيس دولة أو حزب أو علم أو فن أو مشروع، هو في الحقيقة فعل ذلك لكي تتعاقب الأجيال عليه بعد موته، وإنني أرى أن كل ما في حياتنا من معنى ناجم عن هذه الرغبة الأصيلة فينا وهي أننا لا نريد أن نموت! فسبحان من قهر عباده بالموت، ومن سيطوي بساط هذا العالم وتلك السماء بيده، فكل من عليها فان، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام (الأية رقم 27 من سورة الرحمن).

في النهاية:

يُذكر في مبدأ التركيب أن كل شيء يخضع للتفكيك فإنه سينحل، وهذا المبدأ الفلسفي هو منظور الفيلسوف الواقعي أرسطو قديماً.

الماهيّة التي تعتاد البساطة تكون أقرب الى الصحّة، والتي تعتاد التخليط تكون أقرب الى الفساد، والملائكة هي كائنات مخلوقة من عنصر واحد بسيط، وهو النور، لذلك هي أقرب الى الصلاح.

أما الانسان هو كائن مركب، مخلوق من عناصر مختلفة، ففيه نفحة من روح الله، وفيه طبع بهيمي، وفيه نزغة نار من الشيطان، وفيه لمّة نور من الملائكة.

الإنسان هو كائن أرضي مخلوق من طبقات هذه الأرض، قال تعالى: "قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا" (الأية رقم 95 من سورة الإسراء) وكأن الآية تقول أنهُ من عاش في الأرض وتوطّن فيها يفسد طبعه حتى لو كان ملكاً، فيستدعي الأمر أن يُرسل اليه ملكٌ من جنسه لإصلاحه.

لذلك، إن أردت كائناً أخلاقي فهم الملائكة، وإن أردت كائناً غير أخلاقي فهم الشياطين، وإن أردت كائناً محايداً أخلاقيّاً فهم الحيوانات، أمّا إن أردت كائن يدور بين كل هذا فهو الإنسان.

إن الإنسان أمام ثلاثة مسالك، فإمّا أن يجلب النّار من بطنه ويتلوّن إلى شيطان، وإمّا أن يتناول الغريزة ويتحوّل إلى حيوان، وإمّا أن ينادي النور بداخله ليستحيل إلى ملك، فإختر لنفسك ماذا ستسكب في وعائك!

الرّوح هي خصِّيصة الإنسان فقط

ما هو الفرق بين الجسد والجسم والنفس والروح؟

- **البدن:** هو البناء المادّي والهيكل الفيزيائي "الطّين" الماء+تراب، فقال تعالى: "إني خالق بشرا من طين" (الأية رقم 71 من سورة ص).

- **الجسد:** هو البدن إذا إنفصلت عنه النّفس، فقال تعالى في العجل الذي صنعه السامري: "فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ" (الأية رقم 88 من سورة طه).

- **الجسم:** هو البدن إذا إتصلت به النّفس، فقال تعالى في طالوت: "إِنَّ اللہَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ" (الأية رقم 247 من سورة البقرة).

- **النفس:** هي التي تتنفس الأكسجين، وتشمل كل الكائنات الحيّة بما فيها الحيوانات، فقال تعالى: "كل نفس ذائقة الموت" (الأية رقم 185 من سورة ال عمران).

- **الروح:** هي النّفحة الربّانية التي نُفحت في الإنسان وحده، هي خصيصة الإنسان فقط، فقال تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" (الأية رقم 29 من سورة الحجر).

هذه الماهيّة المقدّسة "الرّوح" نُفحت حصراً في الانسان من قِبل الله تعالى، وعلى إثرها غدا الإنسان مسجود الملائكة وإبليس، وهذا برهان على أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يوجد في تركيبه هذا الطائف الغيبي، ولو أنها نفخت في غيره من الكائنات لتم السّجود لهم! لكنها دُبّت في الإنسان فَحَسْب.

الروح هي التي جعلت الإنسان يبحث عما وراء الوراء وعن وما خلف السماء، ويسير إلى الماضي ويتنبأ في المستقبل، ويبحث ويسأل في الموت والهلاك والإنتهاء والفناء والعدم، على خلاف الحيوانات التي لا تعلم شيء عن الموت، وقد بيّن رسول الله ﷺ ذلك في هذا الحديث: "لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم بنو آدم ما أكلتم منها سمينا".

لقد أضاف الله تعالى الروح إلى ذاته إضافة تشريف، فقال عز وجل: "ونفخت فيه من روحي" (الأية رقم 29 من سورة الحجر) كأن تقول: "الكعبة بيت الله"، هل هذا يعني أن الله تعالى يسكن الكعبة؟ طبعا لا، وإنما أضاف البيت الحرام إلى ذاته إضافة تشريف، أو كأن تقول: "ناقة الله"، هل يعني ذلك أن الله تعالى يركب ويُطعم ويسقي هذه النّاقة؟ طبعا لا، أو كأن تقول: "عيسى روح الله"، أو "رسول الله"، أو "أولياء الله"، كلّها منسوبة ومضافة إلى الله تعالى إضافة تشريف، وهي ليست جزء منه، فالله تعالى لا يتجزّء.

كما أنها تفيد التفريد، بمعنى أن هذه الحالة "ناقة الله، عيسى روح الله، الكعبة بيت الله، محمد رسول الله للناس كافة" لم تحدث الا مرة واحدة في تاريخ البشر أجمع.

في النّهاية:

لقد قام الإنسان حديثاً بعمل أبحاث ودراسات تتحدّث عن الموت، فكان أبرزها "العائدون من الموت"، أو "تجربة الإقتراب من الموت"، إنتهت بكتابة سطر جديد في هذا الباب، فقام العلماء والفلاسفة بتدشين علم "الثاناتولوجي"، وما زال البحث مستمر حول هذا المجهول.

ولكن المؤكد من وجهة نظري هو أنّ الإنسان كأي كائن حي ينموا ويكبر ويأكل ويحيا ويموت بالنفس، ولكن لا يوجد أي كائن حي يفكر بالموت ويبحر في المستقبل ويسأل في الغيب سوى الإنسان، وهذه هي الروح، والتي بسببها إنبثق عالم النوع الإنساني وظهرت فلسفة الموت والقلق منه.

الرّوح هي المرحلة التي رقّى الله بها النّوع الإنساني

بدأ خلق الإنسان من مادّة وهي الطين، قال تعالى: "إني خالق بشرا من طين" (الأية رقم 71 من سورة ص) دُشّنت مرحلة بناء الإنسان الأولى بالمرحلة الماديّة، ومن هنا نقول أن الإنسان كائن مادي، ولكن الأمر لم ينقطع هنا، بل تم ترقيته بمرحلة ثانية، وهي مرحلة العدل "التّسوية"، فقال تعالى: "الذي خلقك فسوّاك فعدلك" (الأية رقم 7 من سورة الإنفطار) إذن، جائت عُقب المرحلة الماديّة مرحلة أعلى منها رقّتها خَلقيّاً، ولهذا جاء الإنسان في أحسن تقويم ويمشي على إثنين "رجلين"، ثم تم ترفيع نظام النوع الإنساني بمرحلة ثالثة توّجتهُ وهي "نفخ الروح"، فقال تعالى: "فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي" (الأية رقم 29 من سورة الحجر) وهذه هي المرحلة الغيبيّة والتي لا تكْمُن إلّا في الإنسان لا غير.

عام 2003م إنتهى العلماء من مشروع الجينوم البشري بعد أن إستغرقوا في البحث والتدقيق فيه لقرابة 15 عاماً، ليبدؤوا عقبه بدراسة مشروع جينوم الشمبانزي، حيث ثبت من النّاحية الماديّة أن الشّامبنزي يشبه الإنسان إلى حد كبير في تركيبة الخلقي المادي، بل إنّ الأحماض الأمينيّة في الشّامبنزي تماثل البشر، ولكن الشّامبنزي يختلف مع الإنسان فقط بأربعة أحماض أمينيّة، وهذا الذي دفعني لسؤال: "لماذا لم تسجد الملائكة للشامبنزي؟"، فكانت إجابتي: لأنّ الشّامبنزي لا يوجد في بنيانه شيء إسمه "الروح"، لم يتم تحديث نظامه في مرحلة الخلق إلى المرحلة الغيبيّة التي تجعل منه حاخاماً يهوديّاً، أو لاهوتيّاً مسيحيّاً، أو ربوبيّاً إسلاميّاً! فبعد نفخ الروح في البشر ينشأ نشأة مغايرة للحيوانات والجن والملائكة وكل الكائنات، ينشأ إنساناً..

إنّ الروح قبل أن تُجامع الجسد هي في واضح الأمر جوهر حقيقي ومُفارق، لكن بعد ولوجها فيه وإمتزاجها بأجزائه يصبح لها شكلاً آخر، ولو لاحظنا آية نفخ الروح في الإنسان نجدها ذكرت مرّة واحدة فقط في القرآن، ثم بعد ذلك أصبح الخطاب للنّفس، وكل الآيات لاحقاً تحدثت عن النفس حتى موتها ثم بعثها ثم حسابها ثم دخولها الجنة أو النار.

إن الحاصل مع أبونا آدم عليه السّلام عندما نفخ الله فيه من روحه يحدث دائما في كل حمل إمرأة، فتأتي هذه المرحلة الغيبيّة والتي أخبرنا عنها الرسول ﷺ، حيث يأتي ملك بعد تكوين الجنين، وينفخ فيه من روح الله، وهذا يلوّح على أنّ الروح هي جوهر عُلوي مقدّس قائم بذاته، لأنها تنفخ من قبل الملك الموكل من الله تعالى في كل طفل صغير في بطن أمه، تماماً كما نُفِخت آنفاً في جسد أبونا آدم من قِبل الله عز وجل بعد الإنتهاء من خلقه.

في النّهاية:

الروح هي التي جعلت الإنسان أرقى درجة من الحيوان، فأصبح عقائدي وأخلاقي، لذلك عندما تُطلق الحيوان وتأسر الإنسان فيك، إعلم أنّك أضحيت كبطريق شاذّا ينكح بطريقاً، أو كأرملة تقتل زوجها بعد الجماع، أو كقطّة تأكل ابنها عندما تجوع، أو كخنزير ديّوث يهتك عرضه ويأكل وسخه!

إنّ الإنسان هو ابن الدين والأخلاق والضمير، والحيوان ابن الغريزة والهمجيّة والوحشيّة، فلا تغفل أيها الإنسان عن حقيقتك الرّوحيّة، والتي رقّاك الله عز وجل بها إلى الإنسانيّة.

الروح هو أفق يَبعث النظام العَقدي والأخلاقي والجمالي

النفس هي محط التّكليف، وهي المأمورة، وهي التي وتأكل وتشرب وتحيا وتُقبض وتُبعث وتُحاسب لتَنعم بالنعيم أو تنتهي إلى الجحيم.

إنّ الإنسان في حدود النفس هو تماما في مجال الحيوان، فقال تعالى: "وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍۢ مِّن مَّآءٍۢ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۢ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍۢ قَدِيرٌۭ" (الأية رقم 45 من سورة النور) إذن، هناك من الدواب من يمشي زحفًا على بطنه كالحيَّات ونحوها، ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم ونحوها، ومنهم مَن يمشي على رجلين كالإنسان ونحوه، إذن الإنسان هو دابّة في ميدان النفس، حرفيّاً كالحيوان.

لذلك تم ترقيتهُ بنفخة الروح، ليدخل في الطّور الماورائي والذي من خلاله أصبح سيّد الكوكب، فحار يُنشأ معبداً ويُعمّر كنيسةً ويبني مسجداً، ويصيغ خُططاً ويُطلق حضارة، ويسأل عن المجهول ويؤمن به، ويتنبّأ في المستقبل، خِلاف الحيوان!

ولو إستطاع الحيوان التنبّأ بالمستقبل، لوضع مُخطّطاً قضى فيه على النّوع الإنساني وساقَ الأرض مكانه، ولوجدنا الخِراف والمواشي رسمت تصميماً كيف تقتص من الإنسان الذي ذبحها وأكلها لآلاف السنين، وسكنت منزله على الأقل ردّاً للإعتبار! ولأعدّت القرود جيشاً عظيماً للإنقلاب عليه، وإحتلّت كوكب الأرض ووضعته في حدائق الإنسان، ووقت نزهتها لذهبت هي من تزوره في تلك الأقفاص!

في النّهاية:

إنّ من يمدّك بالحيويّة هي النفس، من غذاء وشراب وغيره، ولكن الذي يمنحك البعد الميتافيزيقي هي الرّوح، وهذه هي أشواق الروح الإنسانيّة، والتي تبعث النظام العَقَدي والأخلاقي والجمالي فينا.

الرّوح هي السبيل إلى إستشرافنا للغيب والايمان به

قال الله تعالى: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (الأية رقم 29 من سورة الحجر).

معظم رجال الدين وخاصة المسلمين ومن على نحوهم من العامّة يعتقدون بأن في بطانة الإنسان جزء من الله تعالى، بمعنى أن الروح جزء من كُنه الله، وهذا القول باطل وغير صحيح، وشاهدي على ذلك هي مسألة القتل، فعندما يُقدم الإنسان على قتل آخر، هل يعني ذلك أن جزءً من الله شارك في عمليّة القتل؟! أو يعني أن جزءً مِن الله قد قُتِل؟! "أستغفر الله العظيم".

إن حرف الجرّ "من" في سياق الأَية هي بعضيّة وليست جزئيّة، وتعني "روح" من عند الله تعالى وليست جزءً منه، وهذا الزائر فينا بذريعته يمكّن النوع الإنساني من أن يستدل على الغيب وأن يؤمن به "الله تعالى، الملائكة، اليوم الآخر، وغيرها"، ولولاها لما إستطاع الإنسان الإيمان بالغيب، لأن الغيب يدل على الغيب ويؤشّر عليه.

بمحرّك الروح تحديداً أصبح الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض، فكما شبهها الدكتور المصري الراحل (مصطفى محمود) عندما قال: "الروح هي عبارة عن أفق يَستطلع به الانسان للغيب، ويستشرف به المستقبل، ويسأل عن الادراك".

في النّهاية:

بعِلّة الروح دأب الإنسان يتسائل عن الغيب والمجهول والماورائيات، وعندما يسأل الإنسان عن الغيب فهو في الحقيقة في صلب العقيدة الإسلاميّة، لأن عقيدتنا أركانها الإيمان بالغيب، ولا يدل على الغيب إلا غيب مثله، والروح هي السائح الغيبي في مكنوننا، وهي السبيل إلى إستشرافنا للغيب والإيمان به.

الرّوح لا تخضع لسلطة الجسد

من الفلاسفة الإسلاميّون والتجريبيّون والعلميّون والعمليّون والطبيعيون والماركسيّون "الماديون" من قالوا: "أن الروح هي كنسمة الهواء التي تدخل وتخرج"، وأضافوا: "أن الروح هي عَرَض للبدن، وليست شيء واقف وناهض بذاته، وأنها ليست جوهرا فيه".

ومن يقول بأن الروح عَرَض للجسد، هو كمن يقول أنّ التفكير عَرَض للدماغ!؟ فالدماغ يُفرز التفكير، والجسد يفرز الروح، وهذا قول مادّي مُسرف بالماديّة، وهذه هي نزعة وصَرْعة المادّة! وكأنّ الله تعالى خلق المادّة بحيث أنّ كل شيء مركّب منها! وكأن الوجود وكل ما فيه متمثّلا بأعلى وعيه "الإنسان" منشأهُ المادّة، ولا وجود للجوهر والروح في الأحشاء!

ولو كان ما يدّعونه صحيحاً بأنّ الروح هي كنسمة الهواء الداخلة والخارجة لما مات الإنسان!؟ الطبيب والعالم والفيلسوف (ابن سينا) وصف الروح بأنها جوهر ماورائي، واقف وناهض وقائم بذاته، وهي الحاكمة والمتصرّفة في البدن، والمسؤولة عن كل قوة محرّكة له.

الروح هي طائف أثيري مستقل ومُفارق عن البدن، ولها إتصال حقيقي به، ولكنه زواج غامض ومُعقّد لا نعقله، ولا يخضع للبدن ولسلطته، وإنّما البدن هو من يُذعن لولاية الروح.

إنضمام الروح للبدن هو من شكّل بُنية الإنسان النهائيّة، ومن دونها لأضحت بنية البشر حيوانيّة، ولحرّكتنا الغريزة، ولما كان هناك نمو لأخلاق على أرض الجسد، ولا لإزدهار القِيم، ولا لإطلاق الحضارات، ولن يكون هناك كتّاب أو شعراء أو أدباء، ولن نرى فنّاً أو رسماً أو لحناً، ولما ظهر المفكّرين والعلماء والفلاسفة الذين سألوا وفكّروا وبحثوا واكتشفوا وحلّلوا وأخترعوا وصنعوا.

في النّهاية:

ما الفرق بين المُهندس والنحلة؟

النحلة تُهندس بيتها من باكورة نشأتها بذات السبيل وبنفس الأدوات، ولم تسطتع إلى الآن تطويرعالمها! ولكن الإنسان المهندس تمكّن من إحداث فورة في عالمه بطريقة مذهلة ورهيبة.

وهذا هو الفرق، أنّ النحلة تُهندس غريزيّاً، لكن الإنسان يهندس روحيّاً.

الرّوح لا تُورّث ولا تَنحل

كل ما هو مخلوق وموجود مركّب بالطّريقة التي ركّبه الله تعالى فيها لكي يقع عليه الفساد والإنحلال، فالسماوات وما فيها، والأرض وما عليها، وكل الظّواهر الطّبيعيّة سيأتي يوما على هلاكها وإنتهائها، والكائنات الحية الظّاهرة والخفيّة، بما فيها الإنسان، كلّها سيأتي يوم على فنائها وموتها، بإستثناء الله تعالى وحده وما يتعلّق به.

إن سفينة الإنسان مُجمعة بين جسد ونفس وروح، ويجب أن يكون مبني بهذه الكيفيّة لأنه سَينحل ويموت لاحقاً ولكن كمادّة، أمّا كروح فهو خالد إلى مالانهاية.

إنّ الجسد ناسوتي، والرّوح لاهوتيّة، وكلمة "ناسوتي" مُختصة بالإنسان، أمّا كلمة "لاهوتي" مُتعلّقة بالله سبحانه وتعالى.

لذلك الجسد يورّث بِخلاف الرّوح، فيمكن أن يكون الجسد منقوص "مبتور اليد أو مقطوع القدم أو أعمى مثلاً" ولكن الرّوح تكون مكتملة وتامّة، وأحيانا يخرج من إنسان منقوص الجسد حكمة وعلم لا يُمكن أن تَخبره في شخص وافي وكامل الجسد! كعالم الفيزياء البريطاني الشهير (ستيفن هوكينغ) والذي كان مصاباً بمرض التصلب الجانبي الضموري "العصبون الحركي"، وهو مرض عصبي إنتكاسي ينتهي إلى شلل العضلات، وهذا ما حدث مع السفير الشعبي للعلوم، حيث إنقطع به الحال مشلولا على كرسي متحرّك، ولكنّه في المقابل إكتشف "إشعاع هوكينغ" الصادر عن الثقوب السوداء، ووضع نظرية "كل شيء" أو ما تسمّى "معادلة الكون" والتي تشكّل وصفاً شمولياً للمادّة في الفيزياء النظريّة حول الكون وتفيسرهُ ومصيرهُ، ولقد كان موجز تاريخ هذه العبقريّة بسبب روحه الكاملة وليس جسده المشلول!

لو أمعنّا النظر في هذا المخلوق العجيب للمسنا فيه أن النفس تكبر ثم تشيخ ثم تموت، وستبعث وتحاسب، ولكن ذلك الطائف الأثيري فيه بعيداً كل البعد عن هذا المسلك، وهو أقرب إلى أن يكون "مجالا" تتحرك فيه النفس، ولا يعني أن النفس التي تتحرك في هذا المجال أنها ستكون خيّرة، وإنما قد تكون الشر بِعينه، فهناك إنسان يتصدّق، وهناك آخر يقتل! الأول تحرك في مجاله نحو الخير، والثاني تحرك في مجاله نحو الشر.

في النّهاية:

النّفس هي ساحة يتقابل فيه الخير مع الشر، فقال تعالى: "ونفس وما سوّاها، فألهماها فجورها وتقواها" (الأية رقم 8 من سورة الشمس) فإما أن ينتصر الخير فيها وتكون أقرب للملائكيّة، فقال تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا" (الأية رقم 9 من سورة الشمس) وإمّا أن ينتصر الشر فيها وتكون أقرب للإبليسيّة، فقال تعالى: "وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (الأية رقم 10 من سورة الشمس) لكن الروح لا مكان ولا زمان ولا شر يتخلّلها.

الرّوح وقفت أمام الله

قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ" (الأية رقم 172 من سورة الأعراف)

نحن وقفنا جميعا أمام الله لقوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ"، وأشهدنا يومها على أنفسنا في هذا العالم الذرّي أنّه تعالى هو ربُّنا ولا ربّ لنا سواه، لقوله سبحانه: "وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ"، فكانت إجابتنا جميعا له عز وجل (بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا) ليردّ بدوره سبحانهُ وتعالى علينا قائلا: "أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ"، بمعنى: لا تغفل أيها الإنسان عن الفكرة الأولى، وعن الحقيقة الأولى، وعن معبودك وخالقك وربّك وهو الله تبارك وتعالى.

وهذا هو سرّ النّوع الإنساني، وهي تلك النّفخة الربانيّة "الروح" التي تَحن إلى هذا الموقف العظيم الذي وقفت فيه إزاء نافحها وربّها، وتحدّثت فيه معه سبحانهُ وانصتط إليه؛ إنّ هذا هو المشهد العظيم الذي شهدت فيه أرواحنا أنّه لا إله إلا الله، ولا رب لنا سواه.

وهذا أيضا سر حزن الإنسان، فمهما بلغ من الماديّات إلا أن هناك غصّة كامنة في أعماقه، هناك جزء واجم في أحضانه، نتيجة هذه الروح التي تحنّ على الدّوام إلى صوت نافحها ونافخها، وتشتاق إلى مأواها ومنزلها الأوّل عند الله تبارك وتعالى.

في النّهاية:

كُنه الروح لا نعرفه، ولكن نعلم أنّ أصله من عند الله عز وجل، خِلاف الجسد الذي نعرفه، ونعلم أن أصله من طين، وفي النّفس المحدود، وفي الرّوح ألّلامحدود.

عين الفيلسوف

الفيلسوف إما كالعنكبوت أو كالنّملة أو كالنّحلة

في سعينا نحو فهم أنفسنا وفهم الكون الموضوعي من حولنا، نرى الإنسان يقلّد إحدى الثّلاثة حشرات "العنكبوت، النّملة، النّحلة"، وهذا ما سطّرهُ الفيلسوف الإنجليزي الكبير (فرانسيس بيكون).

لقد كتب مرة يقول: (إن الفلاسفة الإعتقاديون أو اليقينيون "الدوغماتيون" كالعنكبوت، فالعنكبوت تمثّل العقلانيّة والإنعزاليّة المتولّدة عن الفكر الخالص، حيث تعتمد فقط على الداخل، وتتّكل على عقلها لوحده، وتنسج بيتها من مادتها ومن نفسها فقط، ولا تستند على الخارج، ولا تستعين بمن هم في المحيط، ولا تستصرخ من حولها، وهذا الذي يجعل بيتها ضعيف وحياتها هشّة! وهكذا يفعل الفيلسوف الإعتقادي، حيث يكون متزمّت لمبدأ ما أو لعقيدة ما أو لفكر ما من غير وجود أدلّة كافية، فقط متعصّب لهذه الأيديولوجيا التي يصدر عنها).

وأكمل يقول: (أما الفلاسفة التجريبيين والمنطقيين والعمليين "الأمبريقيين" كالنّملة، فالنّملة تمثّل جمع التجارب كما هي، ولا تُلحق أو تُتبع بها أشياء جديدة، ولا تعتاض بها حاجات أخرى، حيث أنها تعتمد فقط على الخارج، وتبحث وتكتشف وتجمع طعامها ثم تستهلكه! وهكذا يفعل الفيلسوف التجريبي، حيث يقوم بالبحث والإستقراء ويجمع الدلائل ويجربها كما هي دون أن يضيف عليها أو يستبدلها).

ثم ختم يقول: (أما الفيلسوف الحقيقي هو كالنّحلة، فالنّحلة هي عين الفلسفة، لأنها تسير مساراً متوسّطاً تعتمد فيه على الداخل والخارج معاً، حيث أنها تتنقّل في الفضاء من زهرة إلى أخرى، وتجمع ما أخذته في داخلها من رحيق، ولكنها لا تكتفي به! فتضع لمستها السّحريّة، وبصمتها الإبداعية والإبتكاريّة، فتقوم بتخليقه لكي يصبح عسلا لذيذاً ونافعاً وشفاءً للناس).

إنني أعتقد أن كل إنسان على صحن الأرض يسلك في هذا العالم إما سلوك العنكبوت أو النّملة أو النّحلة، لكن مصيبتنا هي أن سلوك الأغلبية يكون محصوراً ما بين "العنكبوت أو النّملة" فقط، وهذا هو سبب سطحيّة الفكر الإنساني أنّه لا يَصْدر عنه الإبداع.

ولا عجب أن الله تعالى ذكر في كتابنا الكريم وفي مصحفنا ثلاثة سور بإسم هذه الحشرات الثلاثة "سورة العنكبوت، وسورة النمل، وسورة النحل"، والتي تمثّل بالنّسبة لي الفلسفة الحقيقية نحو فهم أنفسنا وفهم الوجود الموضوعي من حولنا.

في النّهاية:

كن كالنّحلة، التي تَقطن ما بين العنكبوت وبين النّملة.

كن كالنحلة نستنشق منك ريحاً طيباً، ونرى فيك معنى وإبداعاً وحكمة.

عين الإنسان وعين الفيلسوف

أحد أدوات المنهج المعرفي هو المنهج العقلي "العقلانيّة Rationalism"، وكان من أعلامه الفيلسوف الهولندي (باروخ سبينوزا) وعالم الطبيعة والفيلسوف الألماني (غوتفريد فيلهيلم لايبنتز) و"الدّيكارتيون" الذين أعادوا للعقل مكانته، فأحيوا عصر المنطق، وثبتوا إسمه في التاريخ.

وهذا المنهج العقلاني في الدين له معاني، وأهمها هو تحكيم العقل في مسألة الوحي، ويعني ذلك أنّه لابد أن يخضع الوحي لسلطة العقل والتفكير العقلي، فما يقرّه العقل نؤمن به، وما لا يقره نكفر به، وخصوصاً في مذهب الخوارقيّات في الدّين "المعجزات- معجزات الأنبياء"، لذلك نجد الخوارق والمعجزات غير مقبول بها وغير معقولة في مذهب العقلانيّة.

وهذا بالنّسبة لي كلام ضَئيل لا طعم له، لأن كل ما هو حولك في العالم عبارة عن معجزة! وهذا ما أكّدهُ الكاتب الفرنسي (الفيكونت دوشاتوبريان) حيث كتب مرة يقول: "إنّ ما ليس بمُعجز ليس أقل إعجازا مّما يعد معجزاً"، يقصِد بكلماته هذه أنّ كل ما هو حولك ليس عاديّاً، فالعالم وما فيه عبارة عن معجزة.

فمثلا، عندما تقرأ في علم تشريح الإنسان "الأنثروبوتومي Anthropology" أو في علم "الأناتومي Anatomy" في جزئيّة تركيب عين الإنسان مثلاً، وكيف يُبصر الإنسان، ستُدرك أنه أمر غير عادي، بل إنه أمر مُعجز! فمُعجزة أن تُبصر.

أحياناً كثيرة أذهب إلى المرآة، وأبصر ذاتي فيها وأتحدث معي، وأحاور نفسي قائلا: "كيف أتحدّث؟ كيف أبصر؟ كيف أمشي؟ كيف أمسك؟ كيف أعْقل؟"، ولا أقتنع أبداً بحديث العلوم "Anthropology ،Anthropotomia، Anatomy ،Biology" وغيرها من العلوم في تفسير رؤيتنا وسماعنا وتفكرينا بالأشياء!؟ بل إنني أقول دائما أن ما يحدث لي وما يحدث من حولي هو عبارة عن معجزة،حتى لحظة إستيقاظي من النّوم هي معجزة، لقد أطلقت عليها: "معُجزة إستيقاظي في عالم المُعجزات".

إن الأمر المُحبب والمُفضّل الذي يألفه وينتظره أي إنسان في كوكب الأرض هو أن ينجب طفلاً يحمل إسمه، وأنا أتساءل: هل إنجاب الطفل أمر طبيعي!؟ المُعظم يراهُ أمراً طبيعيّاً، لأنهم إعتادوا عليه، ولكني دائماً أراه أمر غير طبيعي! فكيف يخرج إنسان يتحدث ويبصر ويفكر ويكتشف ويخترع من حيوان منوي وبويضة؟! هل هذا أمر طبيعي! أقسم بالله أنه أمر غير طبيعي! إنها معجزة تحدث أمامنا في كل ثانية على مائدة الأرض، وصدق الله تعالى حينما قال: "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ" (الاية رقم 19 من سورة الروم) يخرج إنسان حي من حيوان منوي وبويضة! هذه أكبر معجزة على طبق الأرض بالنسبة لي تؤشر على وجود يد خفيّة خلقت وصاغت هذا الانسان.

الرسام الفرنسي (بول سيزان) مكث 5 سنوات يرسم لوحة تحكي منظرغروب الشمس، سيزان لم يرى مشهد غروب الشمس شيء عادي، بل رآه مُدهش ومُعجز وسحر غير عادي، فأخذه وأسره لقرابة 5 سنوات يرسم لوحة تحكي قصّة هذه الّلقطة!

لقد أقسم سبحانهُ في كتابنا بهذا المشهد العظيم قائلا: "وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ" (الأية رقم 33 من سورة المائدة) "وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ" (الأية رقم 17 من سورة العنكبوت) "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ" (الأية رقم 1 من سورة الليل) مشهد أن يُسْدل الّليل أستاره على هذا العالم، هذا الحضور العظيم لا تراه إلا عين المفكّر العميق والفيلسوف المؤمن بأنّ وراء هذه المعجزات خالق بديع وحكيم وعظيم.

إنّ عين الفيلسوف التي رأت يد الله تعالى تخطّ هذا المشهد، أبصرت بعينها يده جلّ في عُلاه التي خلقت وسوّت وأبدعت هذا الوجود وكل ما هو موجود.

في النّهاية:

المُفكّر والفيلسوف يرى العالم بعين الطفل، بأنّ كل شيء يدور في فلك الإستقصاء، ولقد كان أحد تعريفات الفيلسوف اليوناني (أرسطو) للفلسفة على أنها "الدّهشة"، لأنّه كان يرى أن كل شيء مُدهش ومُعجز.

لذلك، هناك فرق كبير بأن ترى الشجرة بعين الإنسان العادي، وأن تراها بعين الفيلسوف! هناك فارق عظيم بين أن ترى النّملة بعين إنسان بسيط، وأن تراها بعين الفيلسوف!

الإنسان السّطحي سيمرّ عن الشجرة مرورالمألوف، وسينظرإليها نظرة دارِجة إعتياديّة، ولكن المفكّر والفيلسوف سيرى ويتأمّل الشّجرة بحيرة وعجب، بل إنّه سيتحدّث معها ومع النّملة التي تسكنها!

فرق بين من يرى الوجود بعين عقله ومن يراها بعينه

معظم البشر هم "واقعيّون" وليسوا "مثاليّون"، وأنا لا أتحدث هنا عن السّلوك والأخلاق والقِيم، وإنما أتحدّث عن المعرفة.

دهماء النّاس بشكل عام بطبيعتهم لفهم الوجود والموجودات هم واقعيون وليسوا مثاليون، فالواقعيّة عند معظم النوع الإنساني هي الخطوة الأولى والسابقة لفهم الوجود، لذلك الواقعية سبقت المثالية، لأنّها أقرب للحس الإنساني، ثم حضرت المثالية لاحقاً.

في البداية وثق العامّة بشكل مُطلق بالحسّ، وهذه سذاجة فكريّة، لأن الحس يُخطأ في كثير من الأحيان، فتختلف الأشياء بمُدركات الإنسان بقربها أو ببعدها، وقد تتباين حسب قوّة الإضاءة أو بضعفها مثلا، ففي الحس إذا كانت الإضاءة قوية نرى الأشياء بوضوح، أما إذا كانت ضعيفة يُخيّل لنا الحس رؤية أشباح وغيرها مثلاً.

يعتقد المُعظم أن الواقعيّة هي عبارة عن صورة العالم في ذهننا، وأن هذه الصّورة هي نسخة طبق الأصل عن العالم الموجود في الخارج، وهذه هي السذاجة الفكريّة بعينها، فيستحيل أن يكون تفسير الوجود بأذهاننا هكذا! بأن نُدرك بقوانا العقلية والحسيّة العالم عن طريق المُوافقة والمُوائَمة "كنسخة الكربون"! وإنما يكون على طريقة التعديل، فالصورة الحاصلة عن العالم والماهيّات المبثوثة به في أذهاننا هي صورة مُعدّلة عن هذا الكون، والذي قام بتقويمها هو الذِهن "قوانا العقليّة".

فمثلا، هناك سؤال يطوف في رأسي بخصوص القلم الأسود الذي بيدي والذي أكتب به الآن أفكاري، هل لون قلمي "الأسود" مستقلّ بذاته؟ سيجيب العموم ب "نعم"، وهذا هو التفكير الواقعي الساذج، لأن المسألة في الحقيقة مُختلفة تماماً!

هناك جزء من الّلون الأسود موجود في الخارج، وهذا الجزء لا يتوقّف على المُدرك، وهو مستقل تماما عنه سواء أدركهُ أم لم يُدركهُ؛ وهناك شِق داخلي يختص بالمُدرك، ويتعلّق بجهازِهِ الإبصاري والإدراكي، فإذا تواصل وتلائم الشّقين والجزئين "الداخلي والخارجي معا"، فإن الإدارك يُنتج الّلون الأسود؛ إذن اللون "الأسود" هو ظاهرة مُجمعة ومزيج متعدّد، فجزء منه كائن في الخارج، وجزء آخر كائن في الداخل لدى الانسان.

في النهاية:

الموجودات والماهيّات لها وجود حقيقي في أركان هذا العالم، ولكن جزء منها قائم في الخارج، وجزء منها قائم في الداخل لدى المُدرك، لذلك الفيلسوف الحقيقي هو الذي يرى الوجود بعين عقله وليس بعينه.

الميتافيزيقي هو من يرى وراء المادّة جوهر

هناك حركات فلسفيّة ظهرت في العقد الثاني من القرن العشرين والتي أكّدت أنّ الثيولوجيا "Theology" والميتافيزيقيّا "Metaphysics" والتي تختص بدراسة "الإلهيات، الدين، الروح، وما وراء الطبيعة" هي قضايا فارغة من أي معنى إدراكي، لأنه لا يمكن تفكيكها وتجريبها، وبالتالي هي لا تتعدّى كونها تعبيرًا عن عواطف ومشاعرَ ورغبات فقط.

ومن هذه الحركات "الوضعانية المنطقية أو الوضعية المنطقية" والتي تُعرف أيضًا بالتجريبية الوضعانية أو الوضعانية الجديدة "Logical Positivism"، ومن أهم المفكرين والفلاسفة الذين ينتمون لهذه الحركة (رودولف كارناب) والذي يُعتبر عَلَمًا من أعلامها، ومِن مَن إلتحقوا بهذا الإتجاه أيضاً الفيلسوف النمساوي (هربرت فيجل) والطوبولوجي والرياضياتي النمساوي (هانس هان) والفيلسوف (كارل غوستاف همبل) والمفكر (كيرت جرلينج).

وجائت "الماديّة" إحدى من هتف بهذا النداء، وكان من أبواقها كل من عالم الرياضيات والفيلسوف الإنجليزي (توماس هوبز) وعالم الفيزياء التجريبي الفرنسي (بيير) والفيلسوف الفرنسي وعالم الرياضيات (رينيه ديكارت) الذي قدّم العلوم الطبيعية على أسس ثنائية، وتبعهم بعد ذلك المادي والكاهن الملحد (جان مسلييه) والطبيب المادي والفيلسوف الفرنسي (جوليان جان أوفري دو لا ميتري) والكاتب والموسوعي الألماني الفرنسي (بارون دي هولباخ) والكاتب والفيلسوف الفرنسي (دينيس ديدروت) وغيرهم الكثير من المفكرين التنويريين الفرنسيين.

وفي إنجلترا أصر الفيلسوف (جون ستيوارت مل) على رؤية المادة التي وهبها بُعدا أخلاقيّاً، على أن لها تأثيراً كبيراً على فلسفة الشاعر الرومنسي الإنجليزي (ويليام وردزورث).

وفي الفلسفة الحديثة المتأخرة، لوّح المادي الجدلي الألماني والأثروبولوجي الملحد (لودفيغ فيورباخ) بتحول جديد في المادية في كتابه "جوهر المسيحية" والذي خطه عام 1841، حيث قدم حساباً إنسانياً للدين بوصفه إسقاط خارجي لطبيعة الإنسان الداخلية.

فقام في الجزء الأوّل من كتابه بتطوير ما عنونهُ "بالجوهر الحقيقيّ أو أنثروبولوجيا الدين"، كمعاملة الله في مختلف جوانبه ككون من التفاهم، وككائن أخلاقيّ أو قانون، أو كحبّ، فتحدّث فيورباخ عن الكيفيّة التي يكون بها البشر كياناً واعياً أكثر من الله، لأن البشر استطاعوا فهم الله، ففكّروا بأشياء كثيرة، وبذلك هم يتعرّفون على أنفسهم! ووضّح فيورباخ أنّ الله في كل جانب يناظر في بعض السمات كالحاجة للطبيعة البشريّة.

كان لمادية فيورباخ تأثير كبيراً وواضحاً على عالم الإجتماع والسياسي الألماني (كارل ماركس) والذي قام بدوره بفصل مفهوم المادية التاريخية في أواخر القرن التاسع عشر، وهو ما كان أساساً للاشتراكية العلمية لدى ماركس ورجل الصناعة الألماني (فريدريك إنجلز).

وبمرور الزمن تطورت مدرسة أخرى للفكر الطبيعاني في منتصف القرن التاسع عشر، وهي "الألمانية المادية"، وكان من رموزها الطبيب والفسيولوجي الألماني (لودفيغ بوشنر) وعالم الفيزياء الهولندي (يعقوب موليشوت) والجيولوجي والعالم الحيواني الألماني (كارل فوجت).

على العموم، إنّ كل من ذكرتهم آنفاً يؤمنون فقط بالمادّة والأعراض حسب مطالعتي لهم ولفلسفتهم، ولا يؤمنون بوجود جوهر للأشياء، فهي بالنّسبة لهم خرافة وأسطورة، لأنه لا يُمكن إختبارها حسيّاً وتجريبيّاً، لذلك هُمْ يؤمنون فقط بالمقولات الرياضية والمنطقية والطبيعية، لأنها ذات معنى محدد وواضح ويقيني.

وللأسف الشديد أن هناك من العرب من ركع إزاء هذا الوثن! فكان أستاذ الفلسفة المصري (زكي نجيب محمود) صاحب الكتابين الشهيرين "بيرناند راسيل، وديفيد هيوم" متأثراً بهم إلى حد كبير، فألف كتاباً بعنوان "خرافة

الميتافيزيقا" والذي طُبع أكثر من مرة، ففي الطبعة الأولى كان إسمه "خرافة الميتافيزيقا"، ثم أعيد تسميته في الطبعات اللاحقة إلى "موقف من الميتافيزيقا"، والسّبب أنه كان عاشقا للوضعية المنطقية، وكان يعتبر الميتافيزيقا خرافة، ليشن عليه الأزهر وقتها هجوماً عظيماً، فقام بتغيير إسم كتابه وبدّله من "خرافة الميتافيزيقا" إلى "موقف من الميتافيزيقا" لكي يتحاشى ضربات الأزهر، لكنه لم يغير موقفه من محتوى الكتاب ومن أفكاره التي خطّها فيه، وظل يعتبر الميتافيزيقا خرافة!

من خرافة الميتافيزيقا إلى موقف منها، كان وما زال خصوم الميتافيزيقا هم منكرون للحقائق، فقاموا بنفيها كالسفسطائيون والشكّأك وبعض الإسلاميين (كابن كيسان الأصم) والعِلميّون الذين يؤمنون بالعلم فقط، والوضعيون وأبرزهم (أوجست كونت) والربوبيون، والوجوديون، والبراجماتيون، والوضعيون المناطقة، والماديّون.

ولو أبحرنا في فضاء الوضعيّين المناطقة كمثال، سنجد أنهم قالوا أن القضايا كلها تنقسم إلى "تحليلية" أو "تركيبية"، وغير ذلك لا معنى له، فالقضايا "التحليلية" هي التي لا يزيد محمولها على موضوعها، فيعتدل المحمول مع الموضوع، وهي قضايا يقينية ولا شك فيها، ولا تضيف علما جديداً، وتكون رياضيّة كهذه المعادلة "1+1=2".

أما القضايا "التركيبية" هي قضايا تزيد المحمول على الموضوع، وفيها إضافة جديدة، وهي ليست قطعيّة، بل ترجيحيّة، قد تصل إلى 99% ولكنها ليست 100%، كقضايا العلوم الكونيّة والطبيعيّة، فالحديد يتمدّد بالحرارة وينكمش بالبرودة، وفي هذه القضايا إضافة وزيادة أيضاً.

وكقضيّة حركة الشمس، فالشمس تشرق من الشرق وتسدل ستارها من الغرب، وكل الحقائق العلمية من هذا القبيل، بما فيها قضايا العلوم الكونية والتجريبية والعلوم الطبيعية، والتي لا يَبلغ القطع فيها، وليست يقينيّة بل هي نسبيّة، فالشمس ستشرق يوما ما من الغرب.

الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت) تسائل في كتابه "نقد العقل المحض" قائلا: هل يمكن أن يأتي يوم من الأيام وفي أي مكان أو زمان في هذه الدنيا، أو حتى عند الله تعالى في الآخرة أن تكون 1+1 لا تساوي 2؟ كان جاوبه: لا، قطعاً ستساوي 2 في كل الأوقات والأزمان والأماكن حتى عند الله تعالى، ثم أضاف: لا علاقة لي كم تساوي عند الله تعالى، لكن بالنسبة لي أنا كبشر 1+1=2، والسبب أن طبيعة عقلي والتركيبة الذاتية لعقلي تقتضي ذلك؛ وهذا ما يسمى "باليقين الرياضي".

إنّ الفيلسوف الوضعي المنطقي أو الفيلسوف المادي يؤمن فقط بالأعراض، ولا يؤمن بأنّ هناك جوهر، لأنه لا يمكن إختباره تجريبيّاً، لذلك يؤمن فقط بالأعراض كالطعم، الرائحة، اللون، الشكل، أما بالنسبة للجوهر فهو خرافة وأسطورة في عينه لأنه لا يمكن تجربتها حسيّاً، بِخلاف الفيلسوف التقليدي الميتافيزيقي الذي يؤمن بفكرة الجوهر والعَرَض معاً.

وأمّا عن "الروح" فهي بالنسبة لهم قضية فارغة أيضاً، فلا يمكن تفكيكها، وهي خرافة في إعتقادهم لأنه ليس لها أي معنى، فعندما نقول مثلا "الروح خالدة"، يفسرونها على أن كلمة "الروح" هي مبتدأ، وأن هذه الجمل هي لغوية ونحويّة، ولكن لا منطق ولا معنى لها!

والآن، بعد أن مررنا على بعض من هذه الإتجاهات وأصحابها، فإنني سأثبت لكم خطأ كل ما تم ذكره سابقاً بمثال لاحقاً، لكن لو أخذنا الفاكهة الحمضيّة "اللّيمون" كمثال، سنرى الماديّون من المفكرين والعلماء والفلاسفة سيتناولونها فكرياً كمادّة وكعَرَض، لكن الرّوحانيّون والميتافيزيقيّون سيتناولونها كعَرض وكمادّة من ورائها جوهر.

أنا أعتقد أنه عند إرتقاء الإنسان فكريّاً سيعِي أنّ لون اللّيمونة مادَّة وعَرَض، وسيصل إلى أن حجمها وملمسها وطعمها ورِيحها هي أعراض يستتر ويحتجب ورائها جوهر اللّيمونة وحقيقتها.

ما أريد قوله هو أنّ وراء أعراض الأشياء جوهر، وهذا الجوهر هو مفهوم يُلتف حولهُ، ومعنى تجتمع وتستند عليه كل الأعراض لكي تأخذ البناء المعروف باللّيمونة، ومن غير الجوهر لا يمكن للأعراض أن تجتمع وأن يتحصّل لدينا في الخارج وفي الوجود فاكهة إسمها ليمونة.

والآن سأثبت سقوطهم جميعاً في الخطأ بإذن الله، وسنأخذ الجاذبيّة الأرضيّة كمثال، فجمعاء سكان كوكب الأرض يعلمون أن الجاذبية هي قضية علمية مثبتة ومجرّبة، ولكنها في المقابل ليس لها أي معطيات حسية مباشرة، فنحن نرى التفاحة إذا تُركت في الهواء تسقط على الأرض، ولكننا لا نرى الجاذبية! ولا نرى قانون الجاذبية! إذن، العقل الإنساني هو من إستنبط الجاذبية وقانونها إستناداً إلى معطيات حسية مباشرة، لكن الجاذبية نفسها ليست مُعطيا حسيّاً مباشراً، فنحن لم نراها، ولم نلمسها، ولكننا على النقيض آمنّا بها! وليس هذا فحسب، بل إننا قنّنّاها؛ وقضيّة وجود الله تعالى من هذا القبيل، فنحن لم نرى الله، ولكن رأينا أثرهُ.

في النّهاية:

بخصوص اليقيني الرياضي فإني أجيب الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت) أن كل شيء سيختلف عند الله تعالى، فقد قال سبحانهُ في كتابه: "وأن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون" (الآية رقم 47 من سورة الحج) فالذي ركّب عقل الإنسان وبرمجه في النهاية هو الله تعالى.

إنّ الفيلسوف الحقيقي هو من رأى وراء المادّة جوهر، فما ظنّك في أعظم بناء وتكوين في هذا الوجود، ألا وهو الإنسان، أليس من ورائه كهيكل فيزيائي ومادي جوهر؟ بلا، إنها الرّوح، وهذه الروح هي حقيقة الإنسان، وهي خالدة لا تَفنى، لأن عُنصرها غير قابل للفساد وللإنحلال.

ولا ننس أن مبدأ السببيّة يسلّم به العلماء من حيث الأصل، والكائنات الدقيقة وماهياتها وتركيبتها وهدفها وعملها لا يمكن أن يكون صدفة، وإنما هي ظواهر حسيّة مباشرة تدل وتؤشّر نحو مسببها وهو الله تعالى، لكن الله تعالى ليس مُعطيا حسيّا مباشراً، ولكن الانسان إستنبط ذلك، فوراء كل هذه المعطيات والكائنات الحسية خالق ومبدع ومصمم، هناك إله.

الأصالة للوجود وليس للماهية

رجل الدّين والفقيه والمحدّث الشيعي (مولي محمد صالح المازندراني) ذكر في كتابه "شرح أصول الكافي" أن الطبيب والفيلسوف المسلم الأوزبكستاني (أبو علي الحسين ابن سينا) المعروف "بابن سينا" شرح وإختصر موقفه من أساس الوجود والماهية بهذه العبارة الذكية: "الله لم يُمشمش المِشمشة، بل أوجدها"، وهو بذلك يكون قد أنهى الخلاف الفلسفي القائم بين كبار الفلاسفة الذين يعتقدون بأصالة الوجود، ومن هم على الوجه الآخر والذين يعتقدون بأصالة الماهيّة.

إنّ أحد مفاهيم الوجود هو أن كل شيء موجود في الخارج ينعكس في الذهن، وهذا الإنعكاس يرتد بصورة هَليّة بسيطة تنحل إلى ركنين ومفهومين وهما "الموضوع، والمحمول"؛ الموضوع يكون دائماً مفهوم ماهَوي، وهو أولي، أمّا المحمول هو مفهوم موجود، وهو ثانوي فلسفي.

لو أخنا على سبيل المثال هذه العبارة: "كوكب بلوتو عليه حياة"، سنجد أن "بلوتو" هو مفهوم مَاهوي، و"عليه" هي مفهوم فلسفي وتعني "يوجد"، فتصبح العبارة: "حياة موجودة على بلوتو".

عندما نقول مثلاً: "نبيل في الخارج"، ونشير إلى نبيل بأصبعنا، معنى ذلك أن نبيل "ماهيّة"، وله وجود في الخارج، وعليه فإن هناك في المحيط "ماهيّة ووجود"؛ السؤال: الموجود في الخارج وهو "نبيل"، هل هو مِصداق للماهيّة أم للوجود؟

يستحيل أن يكون مِصداق للإثنين معاً، لأنه لو كان كذلك ستكون النتيجة أن هناك شخصين في العيان إسمهما "نبيل"، والواقع أن الذي لدينا في الظاهر هو "نبيل واحد"، وفي الخارج لا يوجد فرق بين الماهيّة والوجود، إذن لمن الأصالة؟ للماهيّة أم للوجود؟ مع العلم أننا في الذهن حين نتعاطى معهم يجب أن نفرّق بين الأصيل وبين الإعتباري، والسؤال مرّة أخرى: لمن الأصالة؟ للماهيّة أم للوجود؟

لو أخذنا المدارس الإسلاميّة كمثال، سنجد أن الفلاسفة المشّائيون (كابن رشد، ابن سينا، ابن باجة، الفارابي) والفيلسوف الشيعي (مُلّا صدر الدين الشيرازي) مؤسس مدرسة الحكمة المتعالية، قالوا جميعهم بأن الأصالة للوجود، حتى أن الشيرازي كانت تسمى فلسفته ب "أصالة الوجود"، بينما الفلاسفة الإشراقيّون كالفيلسوف (شهاب الدين سهروردى) المعروف "بالسهروردي المقتول" قال بأن الأصالة للماهيّة، والإعتبارية للوجود.

لكن الصواب هو أن الأصالة للوجود، ودليل ذلك أنه لو جئنا بصفحة بيضاء، وبدأنا نخط عليها بقلم أزرق خطوط مرتبة ومتتابعة حتى تشكل لدينا مثلث مثلا، سنلاحظ أن المتحصل على الورقة البيضاء هو "مثلث أزرق الّلون".

في الحقيقة أن الموجود في ساحة الخارج هو اللون الأزرق، وهذا الّلون الأزرق ينتهي عند حدود معينة، وحيث ينتهي يظهر ما يسمّى "الحَد"، وهذه النهايات شكّلت لنا "المثلث"، وهذا المثلث هو مفهوم مَاهوي وهو إعتباري "ثانوي"، فلا يوجد في الخارج شيء إسمه "مثلث"، بل هناك لون أزرق يتحرك ويشكل حدود، وحين إنتهى شكّل لنا "المثلث"، لكن الموجود في الحقيقة هو اللون الأزرق، ولو تحرك في الخارج بشكل مختلف قد يحول إلى مستطيل أو دائرة مثلا، ومعنى ذلك أن الأصالة هي للوجود وليس للماهيّة، فالماهيّة هي إعتباريّة "ثانويّة"، وهذا مبحث طويل في فلسفة الوجود "الانتولوجي".

في النّهاية:

إنتهى الصراع القائم بين عمالقة الفلسفة في أيهما الأصل والإعتباري في حق الوجود والماهيّة؛ وتبيّن أن الأصالة للوجود والإعتباريّة للماهية.

الخير الأقصى بالنسبة للنوع الإنساني هي السّعادة

جُل الفلاسفة التجريبيّون هم من الغائيون، وكانوا يهتمون بمَقصد الفعل أو نتيجته، وهناك 4 إتجاهات شهيرة تحت هذه النزعة الغائيّة:

الأوّل- مذهب الّلذّة، ومقياس الخيريّة أو الشريّة بالنسبة لهم هو ما يحقّقهُ الانسان من لذّة، فإن نالها فهو خير، وإن فشل في بلوغها فهو شر.

وليس المقصود بالّلذّة هنا على أنها الشهوة، بل المفهوم الأوسع وهو لذّة تحقيق أي مطلب جسماني أو سيكولوجي يُعطي الإنسان الشعور بالطمانينة والهدوء والإشباع، فهناك من الّلذائذيّين من كانوا زهّاداً، ويكتفون بالقليل من الطعام والشراب والمتاع، ومنهم الفيلسوف اليوناني (إبيقور) مؤسّس المدرسة الإبيقوريّة، ومعظم تلاميذه، والمدرسة القورينائيّة "القورينية" كانت من أصحاب هذا الإتجاه.

الثاني- مذهب المنفعة العامة، والخير فيه كما يعتقدون هو ما يحقق المنفعة لأكبر عدد من الناس، وهو مذهب جماعي وليس فردي، ويدخل تحت جناح مذهب اللذة، وكان منهم المُؤرخ والإقتصادي الفيلسوف الأسكتلندي (جيمس ستيوارت ميل) والإجتماعي والقانوني الفيلسوف الإنجليزي (جريمي بنثام) وهذا المذهب يرتبط بالمذهب الطاقي الحيوي والذي ينشق إلى قسمين، الأول هو"الغيري أو الإيثار"، والثاني هو "الأناني أو الذاتي".

الغيري أو الايثار تعاطف معه الفيلسوفان الشهيران (أفلاطون وتلميذه أرسطو) فنادوا بتلبية وتنمية قدرات الإنسان من حيثية إرتباطها بالمجتمع وبأهدافه، وليس بأهداف الفرد معزولاً عن المجتمع، والأناني أو الذاتي تعاطف مع الفيلسوف الألماني (فريدريش نيتشه) وهذا الإتجاه لا إهتمام ولا علاقة له بالمجتمع، وإنما يركز على تنمية قدرات وقوى الفرد بتحقيق الذات بصرف النظر عن المجتمع.

الثالث- مذهب التنسّك والزّهد، وهذا المذهب طريقته سلبية في تحديد الخير، فقالوا أن السعادة نحصل عليها في تركنا للأشياء وليس عبر الأشياء، "ترك الشهوات، وترك النساء، وترك الماء والطعام وغيرها"، ومن أهم أعلامه البوذية، والصوفية المسيحية، والصوفية الإسلامية، وبعض طرق الهندوسية، والكلبيّة، ومؤسسها هو الفيلسوف اليوناني (ديوجانس الكلبي) معاصر الإسكندر والرّواقيّون.

الرابع- مذهب الخير الأقصى أو الخير الأبعد، لكن الفلاسفة إختلفوا في تعيين الخير الأقصى، والخير الأقصى هو الخير الذي لا يوجد خير يُطلب بعدهُ، فهو أسمى وأقصى شيء، وإن بلغته فلقد حققت الغاية الأبعد بالنسبة لك كفعل أخلاقي، وأعمق من كانوا من دعاته هم فلاسفة التاريخ (سقراط وأفلاطون وأرسطو) والثلاثة إتفقوا على أن الخير الأقصى هو السعادة.

في النّهاية:

في رأيي المتواضع بالنسبة للمذهب الأوّل وهو الّلذة، فإنه لا يمكن أن يتحقق كمطلب جسماني أو سيكولوجي فحسب، وإنما كمطلب روحي، فالإنسان نسيج من مادّة وروح، وكم من إنسان عزف على وتر المادّة ومطلبه الجسماني لينتهي به الحال مكتئباً أو منتحراً، كالمغنية الفرنسية ذات الأصول المصريّة (داليدا) والممثلة الأمريكية (مارلين مونرو) وقائد فرق الروك الشهيرة لينكين بارك (تشستر بنينغتون) وممثل الكوميديا الشهير (روبن ويليلمز) كان مآلهم الإنتحار! لذلك أعتقد أن الحصول على الطمانينة والهدوء والإشباع في مذهب اللّذة لا يكون إلا بإشباع الروح إلى جانب المادّة، وهذا لا يتحقق إلا بعبادة الله تعالى وحده فقط، فقال تعالى: "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ" (الآية رقم 27 من سورة الفجر).

وأما بالنسبة للمذهب الثاني وهو المنفعة، فإنّني أعتقد أنه لا يمكن تحقيقه عندما يكون الإنسان أناني وفردي وينطوي على ذاته، وإنما عندما يكون غيري وإيثاري، لذلك قال رسول الله ﷺ: "لأن يمشي أحدكم في حاجة أخيه خير له من أن يعتكف في مسجدي هذا"، وسبحان الله فهذا ما صرّحت به الممثلة الأمريكيّة المُلحدة (أنجلينا جولي) حينما قالت في أحد المُقابلات: "لا قيمة لحياتي إلا من خلال الإحسان للغير والإنفاق على فقراء العالم"، ولذلك وهبت أنجلينا جولي مليون دولار لأحد معسكرات اللاجئين الأفغان في الباكستان، كما وتبرّعت بمليون دولار لمنظمة أطباء بلا حدود، وأخرى لمنظمة الطفل العالمي، وأخرى لمنكوبي دارفور في السودان، وليس هذا فحسب، بل إنها قامت بتبنّي أربعة أطفال وهم: مادوكس من كمبوديا، وزهرا من إثيوبيا، وباكس من الفيتنام، وموسى لاجئ سوري في تركيا.

وأما بالنسبة للمذهب الثالث وهو التنسّك "الزّهد"، فإنني أعتقد أنه لا يتحقق في تركنا للأشياء والتخلّي عنها كُليّاً، وليس عبر الأشياء بشكل مُبالغ فيه أيضاً، لأن الزهد الحقيقي هو التضحية بالقليل من أجل الكثير، وليس ترك الكثير وإنما التقليل منه، فالإنسان لكي يرتقي إلى الأفق الروحي عليه أن يهتم بالأفق المادّي وهو الجسد وحاجاته من طعام وشراب وزواج لكي يستطيع أن ينفُذ من خلال الجسد إلى الروح، وهذا ما قاله الحبيب المصطفى إلى الرهط الثلاثة: "أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّ".

وأما بالنسبة للمذهب الرابع ألا وهو الخير الأقصى، فإنني أعتقد أن الخير الأقصى والأبعد هو السعادة، كما قال العمالقة الثلاثة (سقراط، أفلاطون، أرسطو).

لماذا هي السّعادة بالنسبة لي؟ لأن أي هدف أو قيمة أو حاجة أو خير يطلبه أو يفعله الإنسان يحقق له السعادة في نتيجة الأمر، فالعلم والحصول على درجة الدكتوراه مثلا يحقق السعادة، والمال وشراء بيت أو سيّارة يحقق السعادة، والزواج وإنجاب الأولاد يحقق السعادة، والعبادة والتقرب من الله عز وجل أيضاً نتيجتها السّعادة.

وأي سعادة مُطلقة يحصل عليها الإنسان عندما يعلم أن الله تعالى قد رضي عنه، وأنه إجتباه وجعله من خاصّته وبجواره؛ لذلك الله تعالى لم يصف نفسه بالسّعيد أو بالسعادة، ولكن وصف المؤمنين بالسعداء، فقال تعالى: "يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ " (الآية رقم 105 من سورة هود).

قانون الهويّة هو أساس الفكر الإنساني

العقل هو أرض التفكير، والتفكير هو العملية الذهنية التي تُفرز في العقل، والتي تميز الإنسان عن الحيوان وعن سائر المخلوقات.

فكري هو هوّيتي والذي يُمثّلني أمام الآخر، حيث تنجلي سليقتي وفقاً للطريقة التي أفكّر بها؛ والذي يميّز قوماً عن آخرين وشعوب عن أخرى هو طريقة التفكير، وهذا الذي يحدد الثقافة الفكرية التي تتمايز وتتباين من شعب لآخر ومن شخص لآخر.

وقد وضع الفيلسوف اليوناني (أرسطو) قوانين الفكر الأساسية في الفلسفة الكلاسيكية والتي تعتمد على بعض القوانين، ومن ضمنها الذاتيّة "قانون الهوية"، وقانون "عدم التناقض"، ولكن الفلاسفة والمفكّرون إختلفوا قديماً في سؤال وهو: ما هو أساس طُوبة وبُنية الفكر؟ هل هو قانون الهوية، أم قانون عدم التناقض؟

في البداية، علينا أن نُعرف القانونين "قانون الهويّة، وقانون التّناقض".

قانون الهوية law of Identity: هو مبدأ وجودي ينص على أنه لا يمكن أن يكون هناك شيئان أو كيانان منفصلان عن بعضهما البعض ويشتركان في جميع الخصائص.
بمعنى آخر- قانون الهويّة: هو الشيء ونفسه، الشيء وعينه، كأن تقول: "الحجر هو الحجر، و أ هي أ".

أمّا قانون التناقض: law of Contradiction هو أن الشئ لا يمكن أن يتصف بصفة ما و نقيضها في آن واحد.
بمعنى آخر- قانون التّناقض: هو الشيء وخِلافه، كأن تقول: "الكتاب مفتوح ومغلق في آن واحد"، وهذا لا يُمكن، فإمّا أن يكون الكتاب مفتوح أو غير مفتوح.

سؤال: هل يمكن أن يكون الإنسان حي وغير حي في نفس الوقت؟ طبعاً مُحال أن تكون حياً وميتاً معاً! ومُحال أن تكون لا حياً ولا ميتاً! إمّا حيّاً أو غير حي، إمّا حي أو ميّت، وهذا هو قانون التناقض.

في النّهاية:

لا يمكن أن تُعرّف قانون التناقض من غير قانون الهوية، لأن قانون التناقض لا معنى له من غير الإستناد إلى قانون الهوية، لأنه ممكن أن تكون أ هي أ وهي غير أ بنفس الوقت، وذلك لأن قانون الهوية لا يعمل، لذلك أرضيّة الفكر الإنساني هو قانون الهويّة، ومن غيره لن نتمكن من التمييز في ماهيّة الأشياء، ولن نتمكن من تعريف العلوم، ولن نمتكّن من معرفة أي شيء، لأنه سيصبح من المُحال أن تُميز بين الجوهر والعرض، وهذا يجعل المنطق في حد ذاته غير منطقيّاً.

كيف يعْقِل العقْل الوجود؟

الفيلسوف الألماني (إدموند هوسرل) مؤسس مذهب الظواهر أو علم الظواهر "الفينومينولوجيا"، تجلّى مذهبه في صورتين، الأولى تجزم بإنكار وجود أي حقيقة وراء الظواهر، فليس هناك إلا الظواهر والتي يمكن أن تُنال بالحس فقط، وحتى لو أضفنا معالجة العقل إلى هذا الحس فلا بأس ولكن هذا هو الموجود، وهناك الصورة الثانية والتي تؤكد وجود حقائق للأشياء في ذاتها، وكما هي، ولكنها تُنكر إمكان العلم بها.

تلاهُ في التأثير عليها عدد من الفلاسفة، وهم (هايدغر وسارتر وموريس ميرلو بونتي وريكور).

أمّا الفيلسوف الألماني (يوهان غوتليب فيشته) أو "فيخته"، وهو التلميذ المباشر للفيلسوف (إيمانويل كانت) وكان أحد أعلام المثاليّة الماديّة، كتب يقول بما معناه: "إن هذا العالم عبارة عن قوانين، وهو ليس عالماً خارجيّاً موضوعيّاً، بل هو قوانين الفكر الإنساني، فكل تشويش أو مفارقة في إدراك العالم يعكس تشويش ومفارقة في فكر الإنسان نفسه، فإذا قوّمت هذا التشويش يتصحّح العالم في الخارج"، وبالنسبة له فإنه من الخطأ أن تفترض أن هناك عالم خارجي، فلا يوجد إلا عالم العقل والأفكار في داخل هذا الرّأس، والتناقض يكون بين الأفكار.

أمّا الفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت) وهو أحد أعلام الفلسفة العقلانيّة، كان يرى أن المعرفة يجب أن تأتي أساساً من العقل والفكر بدلاً من الأدلة التجريبية، فالعقل لديه معرفة مسبقة بغض النظر عن الخبرة.

ديكارت كان يؤمن بجانب "الوحي" في المذهب اللّاهوتي "اللّاعقلانيّة" فقال:"إن الوحي يختلف عن العلوم، والذي يمد الوحي هو شيء خارج الطبيعة يأتي من السماء، وأنه لا يجب محاكمة هذا الأمر إلى العقلانية"، كانت هذه الكلمات مخالفة لأفكار تلميذه الفيلسوف (باروخ سبينوزا) الذي فسر المعجزات بالعقل، وأنكر ما كان منها خراجاً عن الطبيعة وخارجاً عن العادة.

أمّا الفيلسوف الإيرلندي (جورج بيركلي) كان يرى أن ّحقيقة الوجود هي في إدراك العقل لها، وكل شيء لا يُدركه العقل هو عبارة عن عدم، بينما كان يعتقد الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) أن الحقيقة هي الأفكار، بخلاف تلميذه الفيلسوف (أرسطو) الذي كان يؤمن بأن الحقيقة هي المادّة.

ولكن عالم النفس والفيلسوف الأمريكي الملحد (جون ديوي) وهو أحد زعماء الفلاسفة البراجماتية "العمليّة أو الذّرائعيّة"، كان يرى أن العقل ليس أداة للمعرفة، وإنما عضواً لترقية الحياة وليس من أجل أن نعرف! وهنا يأتي السّؤال: كيف نَعْقِل؟ وكيف نفهم؟ ومن الذي يقوم بهذا التعقّل؟ هل هو العقل نفسه؟!

كيف يعْقِل العقْل الوجود؟

هنا كانت الإجابة، حيث جاء الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت) مؤسّس الفلسفة المثاليّة النقديّة، فإعترف بالماديّة وبالمثاليّة في آن واحد، ففي كتابه "نقد العقل المحض" والذي ذكر فيه نقد المثالية الذاتية، قال بأن هناك ظواهر عقلية سابقة على كل تجربة، وهناك ظواهر تُكتسب من خلال التجربة.

هذا الرجل وقف برزخاً بين الحافتين، فقال أن معرفتنا تبدأ بالتجربة، ولكنها لا تنشأ عنها، لأن المعرفة لا تكون من الخارج لوحده، والإستقلال بالخارج لا يولّد معرفة؛ كما أنها أيضاً لا تنشأ من العقل وحده، والإستقلال بالعقل لا يولّد معرفة؛ وإنما هناك علاقة منطقية، فيجب الإستعانة بالإثنين معاً والتوليف بينهما، فالحس ينقل صورة ما إلى العقل، وهذه الصور المنقولة لا تساوي معرفة، ليأتي عُقبها دور العقل الإنساني ويُلحق إليها علاقات.

الصور تُنقل إلينا كما يُنقل مشهد فيديو بمقاطع أولاً، ثم يضاف إليه "الزمان، المكان، العليّة"، وهذه معاني أوليّة سابقة على أي تجربة، كالذاتية مثلا، ولذلك يفكر الإنسان بالزمان والموت.

في النّهاية:

هناك أحكام في العقل سابقة على كل تجربة، وهي غير مستمدّة منها، وهي ضرورية لفهم كل تجربة، ومن غيرها لا يمكننا الإدراك، وهذه الأحكام ميّزت بين الشّيء في ذاته والشّيء في إدراكنا.

هذه الأحكام لا تقتصر على فهم التجارب فقط، وإنما على فهم كل شيء، ومن ضمنها المفهوم الأوّلي والفكرة الأولى بالنسبة لي ألا وهي (الله تبارك وتعالى).

لذلك أعتقد جازماً أن هذه الفكرة "فكرة الله" هي السبب الرئيسي والضروري لفهم أنفسنا، وفهم الوجود الموضوعي وما فيه من حولنا، وفهم ما وراء هذا الوجود، ومن غيرها ندخل في فوضى.

معظم البشر هم أرسطيّون وليسوا أفلاطونِيّين

ما هي العلاقة بين قُوانا المُدرِكة والأشياء المُدرَكة؟ هل هي علاقة تَطابق وتَشابه؟ أم أنها علاقة إستنساخ؟ أم أنّها علاقة مُعدَّلة؟ أم أنّها علاقة وهميّة؟

هنا يتصارع عملاقان على أرض العقل، أفلاطون وتلميذه أرسطو، التلميذ يصرخ بالواقعيّة "Realism"، والأستاذ ينادي بالمثاليّة "Idealism" عن طبيعة المعرفة وكيفية العلم بالأشياء، وبآليّة إدراك الإنسان للعالم الخارجي.

يرى أفلاطون أن حقيقة الأشياء هي الأفكار، وأنّ المادّة هي نَتاج الأفكار، فلا وجود حقيقي للأشياء الخارجيّة لأنها حصيلة أفكارنا، ولو عُدمت لعُدم العالم المادي والكون، وهذا يعني الإعتراف بالوجود ولكن على أنه نابع من أفكار الانسان.

أمّا تلميذه أرسطو يرى العكس، حيث يعتقد أن حقيقة الأشياء هي المادّة، وأنّ الأفكار هي نَتاج المادّة، لذلك نراهُ يُسلّم ويُقر بعينيّة الأشياء، وأنّها موجودة في عين الواقع، وسواء رصدناها أم لا فهي موجودة، وإن أدركناها أم لا فإن لها وجود حقيقي.

معظم البشر هم أرسطيّون وليسوا أفلاطونيّون! وأنا لا أتحدث هنا عن أخلاق وسلوك وقيم، وإنما عن معرفة، فالناس بطبيعتهم هم واقعيون وليس مثاليون، لأن الواقعية أقرب للإنسان، وقد سبقت المثاليّة من حيث الفهم، ثم جائت المثاليّة لاحِقا، فعندما يرتقي الإنسان يصل إلى المثالية.

ولو تسائلنا: أيهما أسبق الرّوحيّة أم الماديّة؟ أيهما سابق في تفسير العالم: الروحيّة أم المادية؟ سنجد أن الجواب يهرول نحو الماديّة، لأنها أقرب للحس الإنساني، فهي بين يديه ويراها ويدرسها، أمّا الروحيّة هي بعيدة عن مشرحته.

لذلك نجد أن البداية الطبيعية هي أن الواقعية والمادية أدنى للإنسان، ولكن عندما يقفز الفكر ويبحر في الأعماق فإنه سيُدرك أن الماديّة لا نستطيع بها لوحدها تفسير الكون، فيصل إلى المثاليّة والروحيّة.

هناك بعضُ الفلاسفة الدينيّون والإسلاميّون الذين يقولون أن الإنسان مزوّد بالفطرة في أعماق النفس بما يجعله يؤمن بالمجرّد وبالمُفارق، وهذا ليس بعيداً عن الحقيقة، فبرهان ذلك هو سؤال الطفل الصغير عن كيفيّة مجيئه إلى هذا العالم؟ ومن هو وراء كل هذه الموجودات؟ وهو سؤال فلسفي في قلب الميتافيزيق والثيولوجي واللّاهوت، كما أنهُ يثبت وجود الله بالفطرة لدى الأطفال الصِّغار الذين لم ينالوا من العلم شيء، وعندما يبلغون من الكبر فإنهم ينطلقون بالإستفهام عن طبيعة الله، وعندما ينضجون سيعرفون أن لله وجود وليس ماهية.

في النّهاية:

كل شيء يتبع شيء حتى نصل أن الكون وما فيه يتبع لله تعالى، والطفل يتقبل هذا بالفطرة، أن لكل شيء عِلّة وسبب حتى نصل إلى الخالق (الله تبارك وتعالى).

وجود الوردة موضوعي، أما لونـها مُركّب

الفيلسوف اليوناني أرسطو "Aristotle" هو من أسّس المدرسة الواقعيّة والإتجاه الفلسفي الواقعي"Realism"، والتي نادت بأن المادّة هي الحقيقة، وأنّ الأفكار هي محصّلتها.

لكن بعد أمد إنشقّت الواقعيّة إلى أنواع، فجاءت الواقعيّة الساذجة "البسيطة"، والتي تمثّل الموقف الطبيعي والبشري من هذا الإتّجاه، فقالت بأنّ حقيقة الأشياء هي كما تبدوا عليه، وهذا يحدث مع معظم وعامّة النّاس، حيث يعتقدون أنّ الإدراك الحسي للإنسان للعالم الخارجي مطابق للماهيات الخارجية.

يسير الناس فوق هذا الفراش، فيشاهدون الشمس مثلا، ويتلقونها بشكل مباشر، ويتعاطون معها بإعتبارها حقيقة يقينية قطعيّة، وكأن الإنسان هنا يكون أشبه بالكاميرا التي تتلقى الأشياء من العالم الخارجي، وتنقلها إلى العقل مباشرة دون مُعالجة!

إنّ الحواس البشرية في هذا النّوع هي عبارة عن نواقل معرفيّة وليست مَحلاً للمُحاكمة المعرفيّة، فهي تنقل المعرفة من العالم الخارجي إلى إدراك الإنسان فقط، وبقدر دقّة هذه الكاميرا بقدر دقّة إدراك العالم الخارجي!

معظم النّاس من عامّة والمثقفين والعلماء والفلاسفة يظنّون أنّهم يتلقّون العالم الخارجي من غير وساطة العقل ومعالجة الأمر، فمثلا، لو كان أمامهم كرسي، سيعتقدون مباشرة أن أمامهم كرسي، حيث يقفز الكرسي إلى مدركاتهم بشكل عفوي ومباشر وبدون معالجة!

لذلك سمي هذا النوع ب "الواقعية الساذجة" لفرط ثقتها بالحس، فهي تأمنهُ بشكل مطلق، حيث يكون الواقع فيها هو عبارة عن صورة مطابقة لما في الذهن، ووجه العالم في ذهننا هو نسخة طبق الأصل عن العالم الموجود في الخارج، وهذه هي السّذاجة بعينها، والتي يُصدّق بها مُعظم سكّان الأرض وهم لا يدركون ذلك، حيث يؤمنون بوجود العالم الخارجي وجود مستقل، بحيث يُدركه المُدرك بعفويّة وببساطة، وكأن الحواس كالعين والسمع وغيرها هي عبارة عن نواقل فقط، وهذه الرؤيا لا تدل أبدا على عمق نظرة الإنسان إلى هويّته؛ وكان من أعلامها الفيلسوف البريطاني (جون ستيوارت ميل John Stuart Mill).

تم نقد هذا الإتّجاه وهذه المدرسة، حيث أن الحس يُخطئ في كثير من الأحيان، فتختلف الأشياء بقربها أو بعدها، والحس غالبا ما يخدعنا بالإضائة، فاذا كانت قوية نرى الأشياء بوضوح، أمّا اذا كانت ضعيفة يُخيّل لنا الحس رؤية أشباح مثلا أوغيرها، لذلك كلُّ إنسان يرى الوجود من زاوية نظره المحددة وبشكل ما، والشيء تختلف صورته بحسب كمية الإضائة الملقاه عليه، فإذا شحّت أو إنتهت أصبح الشيء غير موجود على هذه البسيطة.

فجائت المعالجة من جهة " الواقعية النقدية"، ففي عينها يُنظر إلى المادة في ظل حقائق العلم، وتحت جناحه وفي تفسيره فإن لها وجود خارجي وموضوعي ومستقل عن المُدرك، ولكنها على الناحية الأخرى ترفض رؤية الواقعية الساذجة، لأنّه لا يمكننا أن نطمئن بشكل مباشر لتلقي العالم الخارجي عبر النواقل الحسية فحسب.

الحواس تُمرر العالم الخارجي، ولكن لا يجب أن نثق بما هو منقول، لذلك يجب أن نمارس النقد عليه، والعقل هو من يمارس فعل النقد على المنقول من الخارج إلى أذهاننا.

إذن، الواقعية النقدية هي الإنتقال من المعرفة المباشرة إلى الإستدلال للتحصيل المعرفي، والمعرفة ليست صورة مستنسخة، وإنما معدّلة داخل دماغ الانسان، وهي المُعتمدة في العلوم الطبيعية، ومختصرها أنها تقول: "نحن نُدرك بقوانا العقلية والحسية العالم، ولكن ليس عن طريق المُطابقة كنسخة الكربون، وإنما على طريقة التعديل، فالصورة الحاصلة عن العالم وأشيائه في أذهاننا هي صورة مُعدّلة عن هذا العالم، والذي قام بتعديلها هو الذِهن، قوانا العقليّة".

الحصان مثلا يرى الألوان بطريقة مختلفة عن القط، والإنسان كذلك الأمر، كلٌّ يرى الألوان حسب جهازه البصري وطريقة تكوين دماغه كيف يترجم هذه الاشياء، وأهم من قال بها هو الفيلسوف الأمريكي (ولفريد سيلارز Wilfrid Stalker Sellars).

لو قلنا بأن أمامك الآن وردة لونها أحمر، فإن موقف الواقعية الساذجة منها هو أن للوردة وجود حقيقي، وللونها الأحمر وجود حقيقي أيضاً، وحقيقة لون الوردة "الأحمر" كحقيقة وجود الوردة نفسها؛ أما الواقعية النقدية فإن موقفها مختلف تماماً، فهي ترى أن هناك فرق بين وجود الوردة، وبين وجود لونها الأحمر! فالوردة موجودة، ولكن لونها مكوّن من مادة تحت ظل العلم تبعث ترددات يستقبلها عقل الانسان ويراها ويفسرها بالأحمر، وهذا يعني أن وجود الوردة موضوعي، أما لونها مركّب.

ولا يجب أن نغفل أنّ بعض الناس لديهم مشكلة في رؤية اللّون الأحمر في أدمغتهم مثلاً، وبسبب هذا الخلل لن يستطيع أن يرى لون الوردة "الأحمر"، ولو كان للونها وجود موضوعي، لبقي من لديه مشكلة في دماغه بخصوص اللون الأحمر يرى الوردة حمراء، حتى لو كان يعاني من خلل في دماغه! وهذا برهان على أن هناك معالجة تحدث في الدماغ لكي يرى الإنسان لون الوردة "الأحمر".

في النّهاية:

لو وقعت شجرة في غابة، وهذه الغابة لا يوجد فيها إنسان، هل يصدر للشّجرة صوت؟ إذا كان الجواب "نعم" فهو غير صحيح، وإذا كان "لا" فهو أيضا غير صحيح، لأن الجواب يكون على هذا السؤال هو "مُركّب"، فقبل أن تجيب عليه، يجب عليك في البداية أن تُعرّف "الصّوت"، فما هو الصّوت؟

الصوت هو مركب وظاهرة ذاتية وموضوعية في نفس الوقت، فلا يوجد شيء في الخارج إسمه صوت، لكن هناك جزء من إدراك الصوت موجود في الخارج، والأجزاء الأخرى تختص بالإنسان كَمُدرك لهذا الصوت، وعند إلتقائهم معاً يتحصّل لنا "الصوت".

المعرفة تبدأ بالتجربة ولكنها لا تنشأ عنها

الفيلسوف التجريبي والإمبريقي الإسكتلندي (ديفيد هيوم) كان يظن أن المفهوم المركزي في العلوم والطرق العلمية هو أنها يجب أن تستند على دلائل محسوسة تجريبيّاً، حيث أنه لا يُمكن حصول معرفة ما لم تكن مستمدة من تجربة حسية، وهذه الفكرة تتناقض مع الفلسفة العقلانية والتي تنص على أن المعرفة قد تكون مستمدة من العقل بمعزل عن الحواس.

فجاء الحل المُعتدل من الفيلسوف المثالي المُتعالي الألماني (إيمانويل كانت) والذي قال بأن المعرفة تبدأ بالتجربة، ولكنها لا تنشأ عنها، بمعنى أنّ التجربة ليست أساس المعرفة، فلولا وجود الأحكام العقلية السابقة المتعالية "وهي أحكام فطرية مركوزة فينا لم تُؤخذ وتُستمد من تجربة"، من دونها لما أمكن قِيام معرفة للإنسان من الأصل، كما أنه من غير التجربة لا تتمكن من أن تَصِل إلى المعرفة.

وبسبب هذه الأحكام الفطريّة يصبح معنى لمُدخلات التجربة، فمن خِلال البصر يتم إنفاذ صور وألوان وأشياء غير متناسقة وغير متآزرة من المسموعات والمرئيّات والأشياء، ولكنها في الحقيقة ليست مسموعات أو مرئيات، بل إحساسات بسيطة متناثرة، هذه المدخلات الحسيّة تُولج الآلاف منها إلى دماغ الإنسان يوميّاً، كالمراسلات التي تأتي للوزير من كل الجهات وفي أوقات مختلفة، ثم يأتي دور قالب الزمان والمكان كما وصفهما إيمانويل كانت، المركوزان فطريّاً في العقل الإنساني والذي يعمل وِفْقَهُما، فيستقبل مُدخلات الحس ويعيد مُعالجتها مباشرة ضمن قالب الزمان وقالب المكان كي تضح وتظهر الصورة كاملة.

مع الأخذ بعين الإعتبار أن جهاز البصر لا يعمل لوحده، بل يعمل بجانب السّمع ووسائل الإحساس الأخرى، وأن الزمان والمكان من الأشياء الفِطريّة الغير قابلة للإدراك من وجهة نظر إيمانويل كانت.

مُعظم الفلاسفة الميتافيزيقيون والماديون تناولوا الزمان والمكان على أنهما موضوعان للإدراك، ولكنهما بالنسبة لإيمانويل كانت غير قابلان للإدراك، بل هما وسيلتان لإدراك المُحسّات، كجهاز الحاسوب "الكمبيوتر"، والذي يوجد فيه معلومات معرفيّة مركوزة في أساسِهِ وبنيتِهِ داخل ال "Rom"، فعند عملية تشغيل الجهاز وإقلاعه يستند عليها، ثم عند الدخول إلى النظام تعمل المعلومات الثانوية المسطّبة على ال "Hdd".

سؤال أوجِّهُهُ على فلسفة كانت في "قالب العِلّة أو مقولة العلّة" وهو: هل للعالم عِلّة وسبب؟ فدائماً ما يسأل العقل عن بداية العِلل والمعلولات حتى يقف عند العلّة الأولى والتي ليس لها عِلّة، ثمّ لا يَلبث أن يسأل مرّة أخرى بعد أن سَكَن سؤالهُ المُستفز: هذه العِلّة الأولى ما عِلّتها؟! ليجيب العقل مرّة أخرى: هي عِلّة بلا عِلّة! ولكن العقل لا يقبل بهذا، فيقوم بسلسلة من المعلولات حتى يقف عند عِلّة أولى مرّة أخرى، سواء كانت هذه العلّة "Theory Evolution" أو Multiverse Theory أو Big Bang Theory أو Creator theory" ولكن العقل أيضا لا يقبل بها، وهنا تقع في تناقض ومُفارقة! وهذا يحدث مع المعظم.

حسناً، لو سألنا: ما سبب هذه العِليّة؟ السبب هو أن الإنسان ظنّ أنّ العِلّة موضوع إدراك! ولكنها في الحقيقة هي وسيلة له، وهناك فرق بينهما عند إيمانويل كانت.

يرى ايمانويل كانت أن هناك 12 قالب أو 12 مقولة مركوزة فطريّاً في ذهن الإنسان، منها الزمان، المكان، العلّة، وغيرها، ولقد إستوحى ذلك من الفيلسوف أرسطو، حيث أن هذه المقولات هي توضيح لنظريّة أرسطو في المعرفة، فأرسطو لديه 10 مقولات ومحمولات (الجوهر substance، الكم quantity، الإضافة relation، المكان place، الزمان time، الوضع situation، الملكية possession، الفعل activity، الانفعال passivity).

لذلك إنتهى ايمانويل كانت إلى أن القضايا الغيبيّة "الله، الروح، الدين" لا نُسلّم بها بالعقل المَحض والنّظري، وإنما بالعقل الأخلاقي والإجتماعي، لأنها ليست ضمن حدود العقل النّظري، وهي مُؤسسة ومَفطورة ضمن هذه القوالب والمقولات المُتعالية على التّجربة لإدراك مُدخلات الحس والتجربة، وليس لإدراك الأشياء في ذاتها، ولذلك الأمور المتعلّقة بالله أو الروح أو الغيب إجمالاً هي أمور لا تتعلق بالحس، والعقل النظري ليس له علاقة بها أبداً، وهو ليس مؤهلا للتعامل مع هذه الأشياء الغيبية.

إيماونيل كانت زَعم أنه أنقذ العلم الطبيعي والرياضيات والدين بهذه الرؤيا، ولكن علماء الدين وجدوا أنه قد ضَرَب الدين في عرض الحائط! فصاروا يكرهونه في ألمانيا حتّى أنّهم أطلقوا إسمه على كلابهم!

في النّهاية:

إيمانويل كانت بدأ رسالته في الدكتوراة عام 1755 بالبسملة، حيث كتب في أعلاها "بسم الله الرحم الرحيم"، وهذا يدل على أنّه قرأ الإسلام، وليس هذا فحسب، بل يتبيّن لنا في مُطالعتنا لأفكاره وكتاباته أنه أعرب عن مدى إعجابه بالدّين الإسلامي.

إن هذه الإشارات تومئ إلى إنبهار ايمانويل كانت بالإسلام ولو بطريقة محتشمة غير علنية، فوَقْع الثّقافة العربية الإسلامية على الفكر الغربي والفكر الألماني "الكانتي" كان مُتجلّياً في تلميحاته، بل إنّهُ أعاد إهتمامه بالعقيدة الإسلاميّة في شيخوخته، وفي كتابه "الدين في حدود مجرّد العقل" الذي أطلقه عام 1793، كتب فيه يقول: "إنّ المحمديين إنما يعرفون كيف يمنحون وصف فردوسهم الموسوم بكلّ شهوة حسيّة معنىً روحياً جدّاً، حقاً، وذلك ما فعله الهنود مع تفسير الفيداس، على الأقل بالنسبة إلى القسم المتنور من شعبهم، كما بيّن المستشرق ريلاند".

ايمانويل كانت عبّر عن مدى إعجابه بالدّين الإسلامي وبنبيّنا محمد ﷺ، فلقد كان الفكر الإسلامي في نظره الأذكى من بين العقائد الأخرى، لأنه حاول ولو بطريقة تخيلية حسية أن يلامس المُطلق "الذوبان في الألوهية" دون الإعلان صراحة عن الإلتزام بحدود العقل من خلال المعنى الحسّي الروحي والخيالي لمفهوم العالم الآخر.

يقول ايمانويل كانت في نقد العقل العملي: "في الواقع بقدر ما يوضع العقل العملي في أساس هذا الأمر، وذلك من حيث هو مشروط بشكل باثولوجي، نعني يتحكم فحسب في مصلحة الأهواء تحت المبدأ الحسّي للسّعادة، فإنّ هذا التكليف الثّقيل لا يمكن أن يُطلب من العقل التأمّلي".

وأضاف: "إنّ جنّة محمد، أو الذوبان في الألوهية لدى الحكماء الإلهيين والمتصوفة، وكلّ طرف كما هفّت نفسه، ووقع في خاطره، هي أمور تفرض على العقل أهوالها، وقد يكون من الأفضل أن يكون لنا عقل من أن نلقي به، بهذه الطريقة إلى كلّ هذه الأخيلة والأحلام، ولكن إذا كان العقل المحض يستطيع من تلقاء نفسه أن يكون عمليًا - وهو في حقيقة الأمر كذلك كما يثبته الوعي بالقانون الأخلاقي- فذلك لأنّه دائماً عقل واحد يحكم وفقاً لمبادئ قبليّة، عليه أن يقنع، لأنّ ذلك ليس ببصيرة من بصائره، بل هو بالفعل من جهة توسعات ما لاستعماله بأي قصد آخر، وهنا بقصد عملي، ولا يتنافى ذلك على الإطلاق مع مصلحته التي قوائمها الحدّ من جريرة ما هو تأمل".

إنتهى ايمانويل كانت إلى أن القضايا الغيبيّة "الله، الروح، الدين" لا نُسلّم بها بالعقل المَحض والنّظري، وإنما بالعقل الأخلاقي والإجتماعي، وأنا أقول لايمانويل كانت: إن القضايا الغيبيّة "الله، الروح، الدين" لا نُسلّم بها بالعقل الإنساني فقط، لأنه يأخذك أن هناك عظيم وراء هذا الوجود، لكن مفهوم هذا الإله يتباين بين الأشخاص والجماعات والفرق والطوائف والثقافات والمجتمعات، لذلك نحن نُسلّم به بالإيمان الروحاني، بأنه هو "الله سبحانهُ" واحد أحد فرد صمد، وليس كمثله شيء.

هناك أحكام عقلية سابقة ومتعالية في العقل

المنهج التجريبي "الإمبريقيّة" هو إتجاه قائم على البحث بإستخدام الأدلة التجريبية، ويُعد أيضًا أسلوبًا من أجل إكتساب المعرفة عن طريق الرصد أو الخبرة المباشرة وغير المباشرة، كما أنهُ العمود الأساسي الذي يعتمد عليه الفلاسفة التجريبيون أو المنطقيون أو الإمربيقيون، حيث أنّهم يؤمنون بأن كامل المعرفة الإنسانية تأتي بشكل رئيسي عن طريق الحواس والتجربة.

كان من أعلامها الفيلسوف الطبيعي (روبرت بويل) والذي كان تجريبيّاً محضاً، أمّا الإقتصادي والمُؤرخ والفيلسوف التجريبي (ديفيد هيوم) والذي قال بأن الذهن يبدأ صفحة بيضاء، رفض أي شيء إسمه "عقل"، كما وأنهُ رفض أن العقل هو من يولّد المفاهيم "كالنسبيّة والعليّة والغائيّة"، موضحاً أنها عبارة عن مسائل نفسيّة بالملاحظة، فلا يوجد ضرورة للأشياء، وكلّها عبارة عن تعاقبات.

وتحدّث عن الأشياء كيف تدخل ذهن الإنسان على ثلاثة مراحل: "الصّور الإنطباعيّة، المعاني والأفكار، النِّسب".
الصور الإنطباعيّة: هي الصّور الجزئيّة، كأن ترى كوب ماء، ويرتسم في الذّهن هذا الكوب.
المعاني والأفكار: هي الكليّات والمفاهيم الماهويّة، كمفهوم "الجبل، الذَّكر، وغيرها"، وهي بالنسبة له عبارة عن معاني شبحيّة.
أمّا بالنسبة للعليّة، فإن مفهوم العليّة من وجهة نظرهِ كتصوّر لا علاقة له بالحس، والحس لا يُنتج مفهوم كلّي، وإنما العقل "العلّة ومعلولها".

كان يَظُن أن كل ما يحدث بالكون هو عبارة عن ظواهر عليّة، وهذه مصيبة! كارثة! فالإنسان إذا راقب السيّارة عندما تدور إلى اليمين، فإنها تُنير الضّوء "الغمّاز" الأيمن، ومع تكرار الأمر أمامه، سيعتقد أن هناك علاقة عليّة بين الضّوء "الغمّاز" الأيمن وإتجاه السيّارة إلى اليمين! وهذا غير صحيح، لأنه لا يوجد علاقة عليّة بينهما، فالسائق هو من يضيء الغمّاز! وهو من يحرّك السيّارة نحو اليمين! لذلك لا توجد علاقة عليّة بين الغمّاز وإتجاه السيّارة، لأن عِليّة الغمّاز هو السّائق الذي يُنير غمّاز السّيّارة، وقد يغفل الكثير عن تشغيله أيضا، وهذه ضربة قاضية لتفكير "ديفيد هيوم و روبرت بويل" وكل الفلاسفة التجريبيين والأمبريقيّين.

لذلك عليهم الإعتراف بقدرة العقل، فكما قال أرسطو أن الإنسان هو حيوان مُتعقّل قادر على تكوين المفاهيم والتصوّرات الكلّية، ومنها تصوّر "العليّة"، لذلك "العليّة" هي عقليّة وليست حسيّة.

أمّا الفلاسفة العقلانيّون الذين آمنوا بسلطة العقل المطلقة، وكان أهمّهم العالم الهجائي والفيلسوف الإيرلندي (جون تولاند) قالوا بأن العقل قادر على إعطاء مفهوم عام، وهذا غير صحيح، فالعقل لا يمكن لوحده أن يعطيك مفهوم عام أو كلّي أو شامل أو ضروري.

وهنا قام الفيلسوف (رينيه ديكارت) بتفكيك هذا الإشكال، موضّحاً أن هناك وجود لأفكار ومقولات فطرية بالعقل تتولد المفاهيم من رحمها، ثم جاء الحل المُعتدل والنّهائي من الفيلسوف المثالي المُتعالي الألماني (إيمانويل كانت) والذي قال أن المعرفة تبدأ بالتجربة، ولكنها لا تنشأ عنها، وهذا يعني أن التجربة ليست أساس المعرفة.

ثم أوضح بيانهُ بأن هناك أحكام عقلية سابقة متعالية، وهي فطرية مركوزة في العقل، ولم تُؤخذ وتُستمد من التجربة، وهذه الأحكام هي السبب في قِيام معرفة لدى الإنسان، وأن التجربة لا تستطيع من خلالها أن تَصِل إلى المعرفة.

ثم ختم رؤيتهُ بأنّ القضايا الغيبيّة "الله، الروح، الدين، وغيرها" لا نُسلّم بها بالعقل المَحض والنّظري.

في النّهاية:

أوّل من حمل لواء الإتجاه التجريبي هو السياسي والمُفكّر الإنجليزي الفيلسوف (جون لوك) وهو أول من كتب في "نظريّة المعرفة" بعد 20 عاماً من القراءة والبحث، فألّف مقالة مكوّنة من 400 صفحة في الفهم الإنساني، قال فيها: "إن الذهن الإنساني له أصالة"، وهنا يتّفق مع العقلانيين بهذا الحديث.

ولكنه في البداية ذهب إلى أن الانسان ذهنيّاً يولد صفحة بيضاء، وعن طريق الحس الظّاهر تَرد إليه معلومات، وهذه المعلومات تستحيل إلى تصوّرات بسيطة، وهذه التصوّرات البسيطة في البداية تأتي من الحس الظاهر أولا "كالسمع والبصر"، ثم من الحسّ الباطن "الإنفعالات النّفسيّة" كالإدراك مثلا، ثم تصوّرات مركّبة "كالنسبيّة والعليّة والغائيّة".

ثم تأتي مهمّة الذهن بالمقارنة بين المفاهيم المُتضايفة، كمفهوم "الأب" الذي لا يُفهم إلى بمفهوم "الابن" والعكس، وهذه المفاهيم بالنسبة له لا يَظْفر بها الحس وحده، ولا يستطيع توليدها، وإنما الذهن هو من يساعده على إنجابها.

إعترف جون لوك بأن الحس وحده غير كاف لتوليد المفاهيم، ولابد من تدخّل العقل، ليصبح على إثرها فيلسوفاً تجريبيّاً عقلانيّاً، ولذلك لم يرضى عنه التجريبيون، لأنه إعترف بالعقل.

الخلاصة هي أن التجربة والحس وحدها لا يمكن أن تمنحك مفهوماً كلّيّاً، كما أنّ العقل وحدهُ أيضاً ليس باستطاعته ذلك، وإنما يجب الإستعانة بالإثنين معاً، بالإضافة إلى أن الغيب يحتاج إلى الإيمان به.

ما بين الماهيّات والماهويّة

إن الإتصال بالخارج يكون عبر وسائل الحس، وهذه هي التصوّرات، فعندما ترى كوب ماء مثلا، فإنّ صورته تنعكس مباشرة في ذهن الإنسان، وهذه الصورة تسمى "صورة حسية"، وإذا إنتقلت وقمت بتغيير مكانك فإن هذه الصورة ستظل عالقة في ذهنك لبضع ثوانٍ، بل إنك تستطيع أن تستذكرها لاحقاً متى تشاء.

في حياتك أنت ترى أكواب كثيرة من الماء، وهنا يأتي دور العقل الإنساني بأنه يسقط ألوانها وأحجامها وأنواعها ومادتها، ويستبقي القاسم المشترك الكلّي لكل هذه الأكواب التي شاهدتها وهو "الكوب".

-المُدركات والمفاهيم الكلية تسمى "المعقولات"، حيث يبدأ عمل الحس ثم العقل، ولا حس بدون عقل، وهذا يسمى الإنتزاع أو التجريد، حيث يقوم الذهن بعملية التقشير التي ينقلها الحس.

على سبيل المثال، في الخارج لا يوجد شيء إسمه "الخوف"، في المحيط هناك أسد، وهو ينظر إلي ويقترب مني لقضمي، والذي يحدث الآن هو أن الذهن ينتج عملية الخوف بسبب رؤية هذا الأسد.

-أمّا القضايا والأحكام هي التّصديقات، وهي تقرير حكم معين يمكن إختباره إذا كان صحيح أم كاذب.

ملاحظة صغيرة: "أرسطو عرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق، ولقد فُهم من ثنايا هذا التعريف أن الإنسان هو حيوان ولكن الفرق بينهما هو أنه ينطق ويتكلم! وهذه ترجمة عربية رديئة جدا، فلم يقصد بها هكذا، ولم يُرد أرسطو إيصال هذا المعنى لنا، وإنما كان يقصد بها أنه الحيوان المُتعقّل، يعني -الحيوان العاقل- صانع المفاهيم الكليّة".

وهنا يأتي السّؤال: كيف تحدث عمليّة التّعقّل، وكيف يعقل الانسان الأشياء في الذهن؟ لقد برز هنا حضور للعقل الإسلامي، فقسّم المعقولات والمفاهيم الكليّة الى أقسام من حيث الوجود والإتّصاف:

أولا- الماهيات: وهي حقائق الأشياء التي تقع في جواب "ما هو هذا الشيء".

وثانيا- الماهويّة: وهي التي عُروضها خارجيّة وإتّصافها خارجي، بمعنى أن منشأها ووجودها في الخارج.

كأن نؤشّر على ماهيّة معينة نراها مثلا، فنقول: هذا الذي أمامي هو "إنسان"، وهذا الإنسان عاقل "ناطق"، وهذا الإنسان هو "رجل"؛ ولكي يتضح المقال أكثر، سنأخذ مثالا آخر، فلو قلنا أن هذا الذي أمامي هو "فرس"، وهذا الفرس "صاهل"، ولا يوجد حيوان يصهل إلا الفرس، إذن هذه ماهية الفرس الخاصة؛ وهكذا بالنسبة لكل الماهيات كالشجرة والغزال وغيرها.

إذن، المفاهيم الماهويّة صفتها وتعريفها في الفلسفة العقلية هي التي يكون عُروضها في الخارج، وإتّصافها ووجودها في الخارج، فالكلب مثلاً موجود في الخارج "ماهية الكلب وعوائه في الخارج"، ولا يوجد حيوان يعوي سوى الكلب، وهذا "الكلب" هو المفهوم الكلي، ينطبق مصاديقه على كل كلاب العالم.

في النّهاية:

نحن نتعاطى مع الخارج عبر المفاهيم الماهويّة، وهذه المفاهيم هي التي تحدد حدود الموجودات والأشياء، وبها يفرق الانسان بينها.

كل المفاهيم المنطقية هي ذهنية

المفاهيم الأوّليّة المنطقيّة عُروضها ذهني وإتّصافها ذهني، وهي تعتمد على المفاهيم الماهويّة، فعلى سبيل المثال، مفهوم "الانسان" هو مفهوم كلّي وليس جزئي، فهو موجود في العقل، لأن منشأ مفهوم "الإنسان" هو في الذهن.

المفهوم الكلي في المنطق هو الذي نقبله على "الكثيرين"، فالعين مثلا تُشاهد هذا الانسان، وذلك الانسان، وكل إنسان على وجه الارض، بينما عندما نقول: "هذا الرجل"، هو في الحقيقة "مفهوم جزئي"، ولكن عندما نقول "الرجل"، هو "مفهوم كلّي"، أي أنه ينطبق على كل رجال الأرض، وهذا الوصف والمفهوم الكلي هو في الذهن، وكل المفاهيم المنطقية هي ذهنية.

أمّا المفاهيم الثّانويّة الفلسفية عُروضها ذهني وإتّصافها خارجي، والمفاهيم الفلسفية هي ثنائية ومتقابلة، كأن نقول "وجود وعدم"،"بالقوة وبالفعل"،"علّة ومعلول"،"ثابت وسيّال"،"واحد ومتكثّر"، وهي متقابلات وتُأخذ بالمقارنة، كمفهوم "السّببية والعلِيّة"، فلكل سبب مُسبّب، ولكل معلول عِلّة، ولكل أثر مُؤثر.

طبيعة العليّة والسببيّة لا يمكن أن تلاحظها إلا بالإلتفات، كأن يكون أمامك ظاهرة معيّنة، فيقيّض الله عالم معيّن يلتفت لهذه الظاهرة، فيسأل: "لماذا لا تكون هذه الظاهرة سببها كذا!؟ عِلّتها كذا!؟"، ثم يقوم بعمل تجارب حتى ينجح في إيجاد السبب ويستنبطه، فيقول: "إن هذه عِلة لهذه، وهذا مَعلول لهذا"، وهكذا بالنّسبة لكل الظواهر العلميّة.

ولو أخذنا مثالا على تحريم الخمر وسألنا: ما هي عِلة تحريم الماريجوانا؟ ما هو سبب تحريم الماريجوانا؟ لا يمكن أن يكون لأنه نبات! فالبطاطس نبات أيضا! ينطلق العالم باحثاً عن سبب تحريم الماريجوانا، فيفكر وينقّب ويبحث في العلّة، هل هو اللّون؟ أم هل هي الرائحة؟ وسيتمر في النّبش والتّقصّي في السبب حتى يصل له، وهو تخدير العقل وتغييبه! ولذلك أي نبات أو سائل أو مَشموم أو مأكول يُحدث تخديراً للعقل وتغييباً له فهو حرام، وهذا ما يسمى "بتعيين العِلّة"، أي: تعيين السبب.

والآن، عندما نستنبط العِلّة والسبب فهذا موجود في الذّهن وليس في الخارج، ففي الخارج موجود نوع من أنواع المخدرات وهي الماريجوانا، ولكن في الذهن موجود "العِلّة والمعلول"، العِليّة موجودة حقيقة في الذهن، فنحن نرى في الخارج "نار وقطن"، ناراً تحرق القطن، وفي الذهن تحدث العِلّية "إذا وضعنا النار على القطن سيحترق".

لذلك "العِليّة أو السّببيّة" هو نظام إقتراني، لأن الإنفراد بالخلق والإيجاد لله ربّ العالمين، فعندما يشرب الإنسان الماء، وينْساغ هذا الماء وترتوي، فإن "الإنشارب والإنسياغ" بفعل الله تعالى، والشعور "بالإرتواء" هو مخلوق لله، ولكن الإرتواء مخلوق عُقب شرب الماء، وسُنّة الله تعالى أنه لا يخلق الإرتواء إلا عُقب شرب الماء.

الله تعالى هو الذي خلق الماء، وخلق الشارب "الانسان أو الحيوان وغيرهم"، وخلق الإنشراب والإنسياغ "فِعل الشُّرب"، وخلق الشعور بالإرتواء؛ ثم قدّر سبحانه خلقها وُفْق سُنّة التعاقب "هذا عُقب هذا عُقب هذا"، ولو شاء الله لقطع التعاقب، مثلما قطع التعاقب في النار أن تحرق إبراهيم عليه السلام وفكّ الإرتباط.

لذلك نحن "بالإتّصاف" نقول أن النار هي سبب الإحتراق، كالرياح سبب لتحريك السفينة، وهو خارجي.

في النّهاية:

العلوم الطبيعية تعترف أن الانسان أو العَالِم لا يملك التفسير، وقد علّق على ذلك السّير (إسحاق نيوتن) عندما إكتشف الجاذبية ووضع قانونها قائلاً: "أنا لا أمتلك تفسيراً لماذا إنتهى قانون الجاذبية معي إلى هذا الشكل؟!".

إلتفت إلى إستفهام نيوتن الفيلسوف البريطاني (ألفريد نورث وايتهيد) وعقّب عليه قائلاً: "إن سؤال نيوتن له دلالة لاهوتية وفلسفية عظيمة"، فكتب في كتابه "عصر التحليل" هذه الجُملة: "إن نيوتن بإعترافه هذا يشير إلى حقيقة عظيمة، وهي أن هذا الكون ليس عالماً من مَوات، فالأموات لا تحمل أهدافاً، وبالتّالي لا يُطلب لها تفسير، لكن حين توجد أهداف معينة وغايات محددة، وتقوم ضرورة التفسير وطلب التفسير، معنى ذلك أننا بإزاء عالم حي وعاقل".

إنتهى وايتهيد إلى وجود خالق عاقل "بتعبيره هو طبعاً"، وبتعبيرنا نحن المسلمين "حكيم"، لأن الطبيعة لا تُقنن نفسها، الله تعالى هو من قننها.

إنني أعتقد أن الإنسان يَصف الأمور فقط، لكن لماذا وُجدت الأمور على هذا النحو في الواقع لا يوجد جواب!؟ هي وُجدت هكذا لأن الله تعالى أوجدها هكذا وأرادها هكذا، وهذا معنى إنفراد الله تعالى بالخلق، فقال تعالى: "الله خالق كل شيء" (الأية رقم 62 من سورة الزمر).

لا سلطة على العقل إلا العقل بإستثناء العقل المُطلق

المنهج العقلي "Rationalism" في الإتجاه الديني له معنى، وهو تحكيم العقل في مسألة الوحي، وإخضاعه لمقتضيات العقل والتفكير العقلي، فما يقِرّهُ العقل نؤمن به، وما لا يُقِرّهُ نكفر به، وخصوصاً في مذهب الخوارقيات "المعجزات، معجزات الأنبياء"، فهي غير معقولة وغير مقبولة بالنّسبة للعقلانيّين ومن يوازيهم.

إذن، هو الموقف الذي ينفي أن هناك خوارق، ولا يؤمن بأي شيء يكسر قوانين الطبيعة والعادة، وهو عكس علم الّلاهوت "المذهب الّلاعقلاني".

العقلانيون يؤمنون بأن المعرفة يجب أن تأتي أساساً من العقل والفكر بدلا من الأدلة التجريبية، فالعقل لديه معرفة مسبقة بصرف النظر عن الخبرة، ومؤسس هذه المدرسة كما أسلفت سابقاً هو الفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت) ولكنه كان يؤمن بجانب الوحي في المذهب الّلاهوتي "الّلاعقلانية" إلى جانب العقل، لأن الوحي ليس بقبضة العلم، والذي يمده هو شيء من السماء خارج الطبيعة، وأنه لا يجب مُحاكمة هذا الأمر إلى العقلانية البحتة، بِخلاف تلميذه الفيلسوف (باروخ سبينوزا) الذي كان يتبنى الموقف الذي ينفي أن هناك خوارق، وكان يكفر بالمعجزات وبكل ما يهدم قوانين الطبيعة والعادة.

وفي كتابه "رسالة في الّلاهوت والسياسة" ذهب إلى تفسير المعجزات فيه بالعقل، وتحليلها بطريقة علميّة، والتي لم ينجح في توضيحها إعتبرها باطلة، وأنكرها، كما أنّهُ أكّد أن كل النّصوص الدّينيّة والمعجزات والخوارق هي عبارة عن قصص وحكايات ليست حقيقيّة، فرفض كل سلطة على تفكيره وآرائه خارج سلطة العقل، فلا سلطة على العقل إلا العقل، والعقل في منظوره هو قوة فطرية مركوزة في الإنسان، وغير مُستمد من الخارج.

لكن ديكارت جعل الوحي في دائرة لا علاقة لها بالجهد العقلي بالتفسير، لأنهُ مدد من السماء، وله منهجه الخاص في الفهم، فيما عدا ذلك يخضع كل شيء لمنهجه العقلي.

يعتمد منهاج ديكارت العقلي على عمودين، الأول هو الحدس الفلسفي وليس الظني، فعند الفيلسوف المسلم (ابن سينا) هو أن تصل إلى الحقيقة بضربة واحدة، كإنسان ينظر إلى القمر، وبحدسه يدرك وضعية القمر بالنسبة للأرض وللشمس دون الحسابات، فيصل إلى النتيجة مباشرة.

أما الحدس بالنسبة لديكارت هو قوة فطرية ونور إلهي، يُمَكّن صاحبه من إدراك الشي والحقيقة دفعة واحدة بدون تعاقب، خطوة أولى وثانية وثالثة حتى النتيجة، بمعنى أنه لا يقوم على تأمّل عقلي وحس تجريبي، فبالحدس وصل إلى النتيجة والحقيقة مباشرة، وبه أيضاً أدرك الانسان مفهوم الوجود والزمان والمكان والتنوع، ما يُعرف "الطبائع البسيطة".

والثاني هو الإستنباط، عبر قواعد معينة يتكفل بإيضاحها علم المنطق، ففي حد تعبيره أن الإنسان يُدرك بالإستنباط الطبائع المركبة وليس البسيطة، حيث يستخلص مجهول من معلوم، فيصبح المجهول معلوماً ثانياً.

لكن بسبب الحداثة المعرفيّة أُعدِم بعض الفلاسفة وأحرقوا على آرائهم وإعتقادهم! العالم التطرفي بسبب المعرفة والفلسفة بدأ بقتل المفكرين والعلماء والفلاسفة الذين قالوا بشيء جديد، كان منهم الفيلسوف الّلاهوتي (جوردانو برونو) الذي أُعدم على الخازوق وهو حي، ثم أحرق لأنه قال بتعدد العوالم! لذلك قال ديكارت عِبارتهُ المشهورة "عاش من بقي في الظل"، والتي كان يقصد بها ألا يفصح الإنسان عن باطنهِ لأحد، وها أنا أنظر الآن إلى العالم والقائمين عليه من متنفّذين بعين ديكارت، ولكني أقول: "لا تبقى في الظّل، فلقد مات من بقي فيه".

نكمل، من المبادئ الفطرية المركوزة بالعقل كما وضّحت آنفاً هو مبدأ الهوية، كأن تقول "ب هي ب، لا يمكن أن تكون ج"، وأيضا مبدأ عدم التناقض، حيث أنّ النقيضان لا يجتمعان معا ولا يرتفعان معا ولا يوجد خيار ثالث، أحدهما فقط يجب أن يكون، كأن تقول: "من أكبر الإبريق أم يد الأبريق؟" بالتأكيد الإبريق أكبر من يده، فهذه بديهية منطقية أن الكل أكبر من جزءه.

في النهاية:

صحيح أن هناك مبادئ فطريّة مركوزة بالعقل، وصحيح أنه لا سلطة على العقل إلا العقل، ولكني أفترق مع الفيلسوف (باروخ سبينوزا) وسأستثني العقل المُطلق والأوّل وما بثّه خارج وعينا وحدود عقولنا، هذا العقل المّطلق هو سلطة أعلى خلقت العقل الإنساني وقامت ببرمجته.

كان يعتقد عالم الرياضيات والفيلسوف (رينيه ديكارت) أن الله يشبه العقل من حيث أن الله والعقل يفكران، وأنه ليس لهما وجود مادي أو جسمي، إلا أنه قال: "الله يختلف عن العقل بأنه غير محدود، وأنه لا يعتمد في وجوده على خالق آخر"، وأضاف: "إنني أدرك بجلاء ووضوح وجود إله قدير وخيّر لدرجة لا حدود لها".

لكن أنا أختلف أيضاً مع الفيلسوف (رينيه ديكارت) بتشبيه الله بالعقل، كما وأختلف مع الفيلسوف (غوتفريد لايبنتس) الذي وصف الله بأنه مُناد المُنادات، وأيضا أختلف مع العلماء والفلاسفة الذي قالوا بأن الله هو قانون رياضي أو قانون طبيعي أو أنه الزمن، كما أنني أختلف مع معظم الفلاسفة والعلماء وكل من قام بتشبيه الله تعالى أو توصيفه، فالسمكة التي تسبح وتعيش داخل الماء لا تعلم أي شيء عمّن يسكن اليابسة! وعليه فإن السمكة حدود معرفتها وتنقّلها في قلب الماء فقط، لذلك أنا أعتقد أنّ الإنسان لا يستطيع تشبيه أو توصيف كُنه الإله، ولا يمكنه ترسيم حدود له، ولا يعلم كُنه الله إلا الله.

وبالنّسبة لي فإن كلّ ما قيل من عرّابين المذهب العقلاني والمادّي بخصوص إنكار مسألة الوحي والغيب والخوارق كُلّه كلام تافه لا معنى له، لأن كل ما هو حولك في العالم هو عبارة عن معجزة.

الكاتب الفرنسي (الفيكونت دوشاتوبريان) كتب مرة يقول: "إنّ ما ليس بمُعجز ليس أقل إعجازاً مّما يعد معجزاً"، يقصد أن كل ما هو حولك ليس عاديّاً، وإنما عبارة عن معجزة!

الوجود وما فيه من موجودات كُلّه مُعجز، الإنسان بحد ذاته مُعجزة، بل إن هناك أمر يخرق الطبيعة في عالمنا ويحدث أمام أنظارنا في كل ثانية، مع المسلم والكافر والمسيحي والملحد واليهودي وكل إنسان على وجه الأرض، وهو طفل ينشأ من نطفة!؟

العلوم والطب والإنسان يصف هذه الحالة، لكن هل يملك تفسيراً كيف جاء الحي من الميّت!؟ هل يملك تفسيراً حقيقيّا كيف جاء طفل يُبصر ويسمع ويتكلم من نُطفة!؟ لا والله، لا يملك أي تفسير علمي ولا فلسفي ولا نظري سوى أنّ تلك اليد الخفيّة "يد الله تبارك وتعالى" هي من فعلت هذا، هي من صاغت هذا، هي من خلقت الحي من الميّت، هي من أنشأت هذا البنيان من هذه النّطفة، قال تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ" (الأية رقم 2 من سورة الإنسان).

العبادة أو التقديس قيمة زائدة في الأكسيولوجيا

المباحث الرئيسيّة في الفلسفة هي ثلاثة: أولا- مبحث علم الوجود "الأنطولوجيا"، ثانيا- مبحث نظرية المعرفة "الإبيستيمولوجيا"، ثالثا- مبحث القيم "الأكسيولوجيا".

الأكسيولوجيا "Axiology" مبحث القيم، هو العلم الذي يدرس القيم والمُثل العُليا، وهو أحد المحاور الرئيسية الثلاث في الفلسفة، وينقسم إلى قسمين:

نوع لذاته وليس وسيلة لغيره، فعندما نقوم بتقييمه فإننا نقيّمهُ لذاته، فلا يصير لشيء بعدها فهو الغاية، وقيمته باطنية وذاتيّة وجوهرية؛ ومثال ذلك أنه إذا أردنا أن نُقوّم جمال الزّهرة، فإن جمالها هو قيمة داخليّة تقف عند ذاتها، أمّا إذا كان غاية لغيره، فإننا حينئذ نقول في تقويمه أن قيمته خارجيّة أو وَسَليّة، لأنّهُ يُصطنع ويُتّخذ لبلوغ غاية ورائها، ومثال ذلك "الطيّارة"، هي قيمة وَسليّة وخارجيّة، فهي صُنعت لأشياء أخرى يحتاجها الإنسان.

سؤال: هل هذه القِيم صفات عينيّة فيها وقارّة فيها ومستقلّة فيها "منفصلة عنّا" بغض النظر عن مُدركها ومُتلقيها؟ أم هي إنتداب العقل الإنساني ومِن وَضع العقل الإنساني أو الوضع المجتمعي؟ معظم الفلاسفة ذهبوا إلى أنها صفات عينيّة ومستقلّة بذاتها، أما البراغماتيين "العمليين" والوضعيين قالوا أنها من صنع العقل وإختراع المجتمع، بينما الوضعيّة المنطقيّة قالوا أن القيم الأخلاقية والجمالية لا تدخل في بحثهم، فهي ليست صفات عينيّة ولا من باب القضايا التي يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة، فهي تعبير عن وجدانات ومشاعر لا أكثر.

الفلاسفة بحثوا في ثلاثة قيم في علم القيم الأخلاقيّة والجماليّة "الأكسيولوجيا Axiology"، وهي "الحق، الخير، الجمال".

الحق له علاقة بالمنطق، والخير له علاقة بالأخلاق، والجمال له علاقة بالوسامة، وهناك من الفلاسفة من أراد أن يضيف قيمة "القداسة"، إلا أن بعضهم وأخص بالذكر عالِمَ الاجتماعِ والمؤرخِ والفقيهِ والإقتصادي السياسي الألماني (ماكسيميليان كارل إميل فيبر) والذي يُعتبر من بينِ أهمِ المُنَظِّرِينَ لتطوّر المجتمع الغربي الحديث، كان يرى أن عصرنا هو عصر نزع القداسة، وفي الحقيقة أن الغرب يفعلون ذلك، ينزِعون القداسة! ويصرخون أنه لا يوجد قداسة لشيء، حتى للدين وللرب! ولكن العجيب أن الإنسان في نفسه يُخالف ذلك ويَنْزَع للقداسة، ويُحب أن يكون له مُقدّساته.

وهناك من الفلاسفة من أراد ان يضيف قيمة "العبادة"، لكن العبادة مرتبطة بالتقديس، فلا عبادة لغير مُقدّس، والتعبد لا يكون إلّا لمُقدّس، والمُقدّس الحقيقي والوحيد هو الله تبارك وتعالى فقط.

وعلي أن أُنوّه أن محمد ﷺ ليس مُقدّس، فلا دليل من الكتاب "القرآن" على أنّه مُقدّس، ولكن هناك دليل على أنّ الله تعالى هو القدّوس.

النبي ﷺ معصوم وليس مُقدّس، ومعصوم بالمعنى القرآني للمعصوم، فالقرآن يؤكّد أن الأنبياء أخطؤوا، حتّى رسول الله ﷺ قال الله تعالى فيه: "عفا الله عنك لم أذنت لهم" (الآية رقم 43 من سورة التوبة) وقال تعالى: "عبس وتولّى" (الآية رقم 1 من سورة عبس) لكن الفرق بيننا وبين النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والرسل أنهم لا يَنْوُون الوقوع في خطأ متعمد، فهم يُخطؤون وهم يتأوّلون ويريدون الصواب والحق، وهذا هو معنى العِصمة.

وهناك شيء مُكرّم ومُبارك "كماء زمزم"، فيه معنى للخير، ولكن يستحيل أن يكون ماء زمزم مُقدّس! وكيف يكون زمزم مُقدّس ونحن نستعمله في بيت الخلاء ونضعه على عوراتنا!؟

القَداسة معناها أنّه لا يُطال ولا يُنال ولا يُخطأ ولا يتّسخ ولا يُدنّس وغيرها، لذلك لا مٌقدّس إلّا المُقدّس، لا مُقدّس إلا الله تعالى.

في النّهاية:

لا يجوز أن نتخذ قيمة العبادة أو التقديس قيمة زائدة في علم الأكسيولوجيا، لأنهما يدخلان تحت جناح قيمة الخير، والعبادة هي أعظم الخير.

المعيار الأخلاقي بالنسبة للفيلسوف الإطلاقي

هناك مذهبان لدراسة قيمة الخير وقيمة الأخلاق في علم القيم "الأكسيولوجيا Axiology"، وهذان السبيلان في مُطالعة المسائل الأخلاقية وفهم طبيعة القِيم الاخلاقية كالصدق والكذب، أوالخير والشر مثلا، هما:

أولاً- الحدسيّة، فالحدسيّون موضوعيّون، وإطلاقيّون، وهم يظنّون أن الأشياء تحمل في ذاتها ما يجعلها خير أو شر، فالخير خير في ذاته، والشر شر في ذاته أيضا بالنسبة لهم بغض النظر عن الإنسان، وهم يهتمّون ببواعث الأفعال.

إذن، الحدسي يؤمن بأن الأخلاق وبناء الأخلاق مُؤسَس على جُملة مبادئ تتصف بالثبات والدواميّة، هذه المبادئ بالنّسبة لهم مطلقة لا تتأثر بزمان ولا بمكان، ولا تختلف من عصر إلى عصر آخر، أو من أمّة وشعب إلى أمّة وشعب آخر، وطريقة البحث العقلي الموضوعي للأخلاق هو إستنباطي، وهو الإنطلاق من الكلي إلى الجزئي.

ثانياً- الغائيّة والتجريبيّة والحسيّة، فالغائيُّون هم ذاتيون، ونسبيّون، وهم يظنّون أن الأشياء لا تحتوي ولا تنطوي على ما يجعلها خير أو شر، وإنما الإنسان هو من يخلع عليها هذه الصفات، فيجعلها إن شاء شراً أو خيراً، وهم يهتمون بغايات الأفعال "نتيجة الأفعال".

إذن، الغائي والحسّي يؤمن بأن الأخلاق وبناء الأخلاق مؤسَس على جملة مبادئ تتصف بالحركة، وقابلة للتغير والتناسخ، ومبادئ الأخلاق بالنّسبة لهم نسبيّة تتأثر بالزمان بالمكان، وتختلف وتتغير من عصر إلى آخر ومن أمّة وشعب إلى أمّة وشعب آخر.

خلاصة الأمر هو أن الحدسي موضوعي ويؤمن بإطلاقيّة الأخلاق، أما الغائي والحسّي هو ذاتي ويؤمن بنسبيّة الأخلاق.

الإنسان البسيط أو المفكر أو العالم أو الفيلسوف، والذي يعتقد بعدم ثبات المعايير الأخلاقيّة، وأنّها متحركة وقابلة للتغير والتناسخ، وتختلف من بشر لآخرين ومن عصور لأخرى، هو في الحقيقة يؤمن بالنسبيّة الأخلاقية، والمعيار والمقياس الذي يستخدمه الشخص النسبي بمعنى واحد، وهو أن لكل شعب أو جماعة أخلاقية معيارها أو معاييرها، وتختلف بين شعب وآخر.

وحجج النسبيين هي حجج أنثروبولوجيّة "Anthropology"، فالأخلاق متغيرة، حيث كانوا في الزمن القديم يأكلون لحوم البشر، والآن لا يأكلونها، وفي الزمن القديم كانت المثليّة هي شذوذ ومحرمة ويُقتل فاعلها، والآن المثلية هي ليست شذوذ وهي شيء طبيعي، فقديما كانت إنجلترا تذبح الشّواذ، والآن إختلفت الأمور وأصبح الشّواذ لهم وجود وحريّة وقانون يحميهم.

عند الصينيين مثلاً شعر الفتاة ليس مصدر للإثارة، وإنما قدمها هو مصدر الإثارة، بخلاف العرب، الذين يميلون عند رؤية شعر الفتاة، فهو مصدر إثارة بينما القدم لا.

لذلك المعايير الاخلاقيّة بالنسبة للفيلسوف النسبي متباينة، ولا يمكن ردّها إلى معيار واحد أو معايير قليلة متّحدة، فمنطقيّاً نرى أنّ الفيلسوف النسبي لم يُلحق شيء جديد، ولا يوجد له تأثير منطقي، ولكن سيكولوجيّاً "psychology" أثّروا على العامّة، لأن العامّة تتأثر سيكولوجيّاً "نفسيا وسلوكيّا" بأنه لا يوجد أخلاق ثابتة، وتمت ملاحظة ورص هذه التغيرات بين المجتمعات قديماً وحديثاً.

بينما الفيلسوف الذي يعتقد بثبات المعايير الأخلاقيّة، وأنها كليّة وشاملة وصالحة على البشر جميعاً وفي كل العصور هو فعلياً يؤمن بالإطلاقية الأخلاقية، والمعيار والمقياس الذي يستخدمه الشخص الإطلاقي يكون بمعنايان، وهو أن المعيار بالنسبة له ثابت ومطلق، وهذا المعيار المطلق حاكم وراء كل هذه المعايير المتحركة.

المعيار الاخلاقي بالنسبة للفيلسوف الإطلاقي هو أنّه يؤمن بهذا التباين والتغيّر والتطوّر، ولكن الشذوذ بالنسبة له يكمن في التطبيق الذي يرتدِ معيار مطلق واحد أو معايير ثابتة.

الفيلسوف الإطلاقي يفرق بين المعيار والمبدأ المطلق، وبين قواعد السلوك؛ فمثلا، المرأة التي ترتدي الحجاب هو من مقتضيات ومستلزمات الإستعفاف، وهو علامة على عفّة المرأة، فالعفّة تأمر بالحجاب، وإذا رأيت المرأة ترتديه فهي علامة على أنها تلتزم عفّتها، وهذا عند المسلمين، ولكن عند الصينيين المرأة التي تستر قدمها هو من مقتضيات الإستعفاف، وهو علامة على عفّة المرأة الصينية، فالعفّة بالنسبة لهم تأمر بستر القدم، وإذا رأيت المرأة الصينية تستر قدمها فهي علامة على أنها تلتزم عفّتها، لذلك لا يرى الصينيون أن إبراز المرأة لشعرها يؤثر على عفّتها، وإنما كشف المرأة لقدمها يؤثر على عفّتها، والمرأة الصينيّة التي تستر قدمها وتُبرز شعرها هي عفيفة في عين الصّيني.

ولتتضح الصورة أكثر سنأخذ مثالاً آخر، الرجل العربي والمسلم يرى أن برّهُ لأبيه الكبير بالسن بطاعته وإطعامه إلى آخره، بينما رجل الأسكيمو يظن أن برّهُ لأبيه الكبير بالسن بقتله ودفنه بالثلج! وإذا لم يفعل هذا يلعنه المجتمع، مع العلم أن في مجتمعنا العربي والإسلامي من يفعل ذلك فهو ملعون! في "الإسلامية والمسيحيّة واليهوديّة" يُعتقد أنّه من بر الوالدين دفنهما عند الموت، بخلاف الهنود الذين يعتقدون أن برّهم لواديهما بحرقهما عند الموت! لذلك المبدأ للفيلسوف الإطلاقي واحد، ولكن قواعد السلوك مختلفة، المبدأ واحد وهو لا يختلف في العفّة مثلا، ولكن يختلف في القواعد والسّلوك لتحقيق العفّة.

في النّهاية:

الفيلسوف النسبي يستند إلى المقارنة في المعايير الأخلاقية بين الشعوب، والمقارنه تقتضي المفاضلة، بحيث تُفضي إلى أن هذا المعيار الأخلاقي عند ذلك الشعب أفضل من الآخر مثلا، وهنا تكون فكرة الترقي والتقدم والتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأسوء إلى الأفضل؛ لكن على طريقة الفلاسفة النسبيين هذا غير متاح، ولا يحصل، لأن هذه المعايير نسبيّة، ففي إطار الشعب الواحد وداخله توجد أديان مختلفة وأفكار مُتباينة وأخلاق مُتفاوتة، وفي ظل هذه العلاقة التقسيميّة سؤال: أين يمكن ترسيم هذه الحدود الأخلاقيّة؟ لا تقل لي أن الأكثرية أساساً للمعيار بالنسبة للأقلية! لأن الأقليّة يثورون في الغالب على الأكثريّة، وبهذا البرهان تسقط طريقة الفلاسفة النسبيين في التفكير الأخلاقي ونسبيّتهم الأخلاقيّة.

لقد تورّطوا عندما قالوا أنه لا يوجد معيار أخلاقي مطلق تحتكم إليه المعايير الأخرى، وأن لكل جماعة أو فرد معياره الخاص، فهذا يعني أنه إذا كان هناك جماعة أكبر من الأفراد، أو سلطة الجماعة أكبر من سلطة الفرد فموافقة هذه الجماعة والسلطة ستكون هي المعيار، وإذا ثبت أن هناك سلطة أكبر من سلطة الجماعات والفرق والأحزاب والطوائف، وبالطبع يوجد وهي سلطة الله تعالى، فهذا يعني أن سلطة الله تعالى هي المعيار، وهذا يعني موافقة الجماعات والأفراد لهذا المعيار المُطلق وهو سلطة الله تعالى، ولذلك أرى أن الفلاسفة الإطلاقيون هم الأصح، لأنهم أعادوا كل المعايير إلى معيار مُطلق وهو الدين الإسلامي الذي إرتضاه الله تعالى لخليفته الإنسان.

كما أريد أن أنوّه إلى أن وحدة النوع الإنساني هي معيار، فكل النّوع الإنساني يعود إلى مهد واحد وحوض جيني واحد، وهو آدم عليه السّلام، وسعي الإنسان إلى الخلود "إكسير الحياة" في عصر التقدم والتكنولوجيا جائت من تركيبة أبونا آدم عليه السلام الذي بحث عن الخلود عندما أكل من الشجرة.

لذلك عندما سَأل الفلاسفة النّسبيّيون الفلاسفة الإطلاقيّون قائلين: ما هو مُستند الإلزام والسلطة التي تأسس عليه هذا الأمر بأن أكون إعطائيًا وليس أنانيًا؟ ما هي هذه السلطة؟ وما هو هذا الأساس؟ أجاب الإطلاقيّين أن الأساس هو الدّين، وفي رأيي الشخصي أن الله تعالى كان يرسل الأنبياء والرسل للعامة، ليبلغونهم دينه عز وجل، وليأمرونهم بالخير وينهونهم عن الشر، ومن غير الله تعالى ومن غير دينه لا معنى لإنسانية الإنسان ولا للحياة.

الله تعالى أمر بالأشياء لأنها خير، أم هي خير لأن الله أمر بها؟

هناك نوعان من العلوم، الوضعي والمعياري، الأول هو العلم الذي يدرس الأشياء كما هي في كُنهِها، كدراسة علم الإنسان كما هو مثلاً، أو الفيزياء والطب وغيرها على شكلها.

أمّا المعياري هو العلم الذي يدرس ما ينبغي أن يكون، فيقوم بدراسة الأشياء من خلال تقويم السلوك وضبطه بوضع قواعد وإنتخاب السلوك الأسلم، كعلم الشريعة وعلم الأخلاق مثلا، فيبحث كيف يجب أن يكون المجتمع العربي والإسلامي بأفضل الأخلاق مثلاً.

وهذا ينقلني إلى سؤال: هل هذه المقاييس "الخير، الشر" خارج طبيعة العقل أم مأخوذه منه؟ وخارج طبيعة العقل لا يعني خارج قدرة العقل على إدراكها، وإنما أنها موضوعيّة ومستقلّة عنه، سواء أدركها الإنسان أم لم يدركها فهي موجودة.

بعض الفلاسفة أخذوا هذه الأمور على أنها مُلازمة لطبيعة العقل، وغير منفصلة عنه، ولو عُدم العقل فإن هذه الصفات تختفي، ولا تبقى الأشياء الخيّرة أو الشريّة، فعدم وجود العقل يعني عدم القدرة عن التحدث عن خير أو شر من الأساس، لأنه هو من يخلع عليها هذه الصفات.

الفيلسوف الأسكتلندي (دانز سكوطس) والرّاهب واللّاهوتي (وليم الأوكامي) قالوا بهذا، ولكن كان أبرزهم هو الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت) الذي قال أنها ليست مأخوذة من التجربة، فالمعيار "الخير أو الشر" هو تابع للعقل الإنساني، وبإختفاء العقل يتبخّر المعيار، وتبقى الأشياء المحايدة.

ولكي نجيب على السّؤال في الأعلى سنتخذ الفرقة الكلاميّة الإسلامية "المُعتزلة"، والمدرسة الإسلاميّة السنيّة "الأشاعرة" كمثال؛ المعتزلة قالت أن العقل يستطيع أن يميز خيرية الشيء من شريّته بغض النظر عن الشريعة، وأن الأشياء هي خير أو شر بذاتها، بل إنهم تمادوا في الحديث مصرّحين: "حتى الله لا يستطيع أن يجعلها غير ذلك" (أستغفر الله العظيم).

إن الأشياء في منظورهم هي خير أو شر بذاتها، وبدون الله عز وجل، وحتى الله سبحانه وتعالى لا يستطيع أن يتدخل لكي يغيرها!؟ "هكذا قالوا"، هم يعترفون أن الله خلق الخير ذاتيّاً والشر ذاتيّاً، ولكنه لا يستطيع أن يقلبه! فآمنوا بثبات الحقائق الأخلاقية، فمثلا، إن أقدم رجل على قتل آخر هذا يسمّى شر، ولا يستطيع الله تعالى أن يغيّرهُ، فلقد قُتل الرجل ووقع الشر.

هل يعني هذا أن الله تعالى أمر بالأشياء لأنها خير؟ أم هي خير لأن الله تعالى أمر بها؟

بالنسبة للمعتزلة فإنهم ينظرون للمسألة على أن الله تعالى أمر بالأشياء لأنها خير، وأمر بها لأنها شر، فالحقائق "الخير أو الشر" من وجهة نظرهم ثابتة في الخارج، ودور الله تعالى هو أن يقول هذا الشيء بالخارج هو "خير" وسآمر به، وذلك الآخر هو "شر" وسأنهى عنه.

بينما الأشاعرة قالوا إن العقل لا يستقل بتمييز الخيرية من الشرية بذاته، وإنما يستند إلى نص الوحي "الدين"، فالخير أصبح خير لأن الله تعالى أمر به، والشر أصبح شر لأن الله تعالى نهى عنه، ولو نهى الله تعالى عن أمر خير لأصبح شر.

ولكنهم "المُعتزلة والأشاعرة" إتفقوا على شيء واحد وهو "موضوعيّة الخيريّة والشريّة"، فالشيء في ذاته بعيد عن عقلي هو خير أو شر، سواء أدركه عقل الإنسان لوحده، أم أدركهُ من خلال النص والدين.

في النّهاية:

إنني أؤمن أن كل شيء خلقه الله تعالى، فهو سبحانهُ خلق الخير وجعله خير وأمر به، وخلق الشر وجعله شر وأمر به، لكن الخير يُنسب إلى الله، أمّا الشر لا ينسب له جل في علاه، فقال تعالى: "أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا" (الآية رقم 10 من سورة الجن).

نلاحظ في قوله تعالى: "أشر أريد بمن في الأرض" أنّ الشّر منسوب للفاعل، أما في قوله تعالى: "أم أراد بهم ربهم رشدا" نلاحظ أن الرَّشد منسوبة إلى الله تعالى، ولو نهى الله تعالى عن أمر خير لأصبح شر، والعكس صحيح، وقُدرة الله تعالى تتعلق بالمُحال لغيره، بمعنى أن سلطته تتعلق بكل شيء عدا ذاته الشريفة، لأنها تقع في المستحيل.

العقل يحاول أن يعقل نفسه والوجود من حوله

العلم ينشطر إلى حصولي، وآخر حضوري.

الحصولي: هو حصول صورة من الشيء لدى الذات العارفة والمُدركة.

عندما تشاهد زجاجة ماء، فإنك تدرك لون وحجم الزّجاجة التي يوجد فيها الماء، وتدرك أيضاً أن بداخلها ماء، لكنها لم تحصل في ذهني، فهذه الزّجاجة التي فيها الماء هي موجودة في الخارج وليس في ذهني، والذي يحدث علميّاً أن صورة هذه الزّجاجة تحضر في ذهني، بدليل أنّني حينما أغمض عيني فإن صورة الزّجاجة لا تزال حاضرة في ذهني، وعندما أغادر المكان فإنني يمكننا إسترجاعها، فأرسل في طلبها من بطن الذاكرة لدي، وهي بدورها تتجلى حسب قوة الذاكرة.

إذن، هذه الزّجاجة موجودة في الخارج، وتحضر صورة منها في ذهني الذي أدركها كصورة إدراكاً حضوريّاً، لذلك لا علم يتحصل للإنسان حصوليّاً إلا بعلم حضوري.

العلم الحضوري يكون بعد ذلك للصورة الحاصلة من الشيء "زجاجة الماء" مثلا، أو الشيء الخارجي في الذهن، لأنها حاصلة فيه، وأصبحت جزءً منه ومن عمله ومن مشمولاته، لذلك كل علم حصولي يحتاج إلى علم حضوري، وهكذا يرى الإنسان الأشياء الصغيرة والكبيرة.

أمّا الحضوري: هو حضور المعلوم برأسه لدى العالم من غير طرف ثالث أو صورة.

كعلم النفس بنفسها، قال تعالى: "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها" (الآية 111 من سورة النحل) إذن، النفس تعلم نفسها، فالعالِم هي النفس، والمعلوم هي النفس أيضاً.

في علم المنطق مثلا نلمسُ أن النفس هي العالم والمعلوم، وهي المعلوم والعالم، هما شيء واحد في الحقيقة وفي الذات، وشيئان مختلفان في الِّلحاظ والإعتبار.

في النّهاية:

عندما يخاف الإنسان فإن عمليّة الخوف هذه لم يحصل عليها حُصوليّاً، وإنما حُضورياً، لأن الخوف موجود وحاضر في النفس ولدى النفس، فتجد النفس نفسها أنها قلقة، وهذا لا يُناقش فيه في علم النفس، فلا تستطيع أن تقول لإنسان: "أنت لست خائف"، وهو خائف ومرعوب أو جائع! كما أن النفس لا تخطئ إن كانت خائفة، فلا مكان للخطأ هنا، وإنما تخطئ في تحليل سبب هذا الخوف.

هناك حقائق صغيرة وبسيطة في قضايا معقّدة

بعض الفلاسفة الوضعيّون والتجريبيّون والمنطقيّون والوضعيّون المناطقة أبانوا عن رؤيتهم للوجود والموجودات بأنّ كل قضية لا يمكن التحقق من صِدقيتها بالرجوع إلى الخارج وإلى الحس فهي قضية فارغة! أي أنها قضيّة لا معنى لها، فردّ عليهم عالم الرياضة البريطاني والفيلسوف التحليلي (برنارد راسل) والفيلسوف النمساوي (كارل ريموند بوبر) بالآتي:

"لقد صرّحتم -الكلام موجّه للوضعية المناطقة- أن كل قضية لا يمكن التحقق من صدقيّتها بالرجوع إلى الخارج وإلى الحس فهي قضية فارغة لا معنى لها، وهذا القول بحد ذاته ليس قضيّة تحليليّة! لأنه وقبل أن يتبناه الناس لم يكن معرّف بالضّرورة أنّ 1 + 1= 2!، كما أنه ليس قضية تركيبية، لأنكم ذكرتم أن القضية التركيبية هي التي يتم التحقق منها بالخارج وتضيف علما جديداً، ويختلف العالم عنه في حال صدقها عنه في حال كذبها، كأن نقول: العالم حار بالصيف -هذه قضية تركيبية- لأن الخارج يصدق ذلك، ولكن إن قلنا: العالم بارد في الصيف، ثم خرجنا إلى الخارج فوجناه حاراً، فمعناه أن الخارج كذّب ذلك لأنه حار!".

وهذه قدرة الله إن شاء أن يجعل العالم حاراً بالصيف، وهو عز وجل قادر على أن يقلب كل شيء ويجعل العالم بارداً فيه، لذلك كل قضية بالنسبة للوضعية المناطقة لا يمكن التحقق منها بالخارج وبالحس فهي فارغه ولا معنى لها، وهذه الجملة وهذا المبدأ هي قضية ليست تركيبية وليست تحليلية! فمن أي مبدأ هي؟ وأي قضية هي؟

لو تناولنا موضوع نبينا عيسى عليه السلام عند المسيحيين، سنجدهُ الربّ بالنسبة لهم، ولكن الواضح أنه كان إنسان! فكان يأكل ويشرب وعاش ومات كبشر طبيعي، ولكنهم جعلوه رب! وهذه مشكلة نفسية، لأن هناك حقائق صغيرة وبسيطة في قضايا معقّدة، تماماً كالبدائيون الذين سألوا بعض المسيحيين عن ربّهم عيسى: هل يتغوط؟ فقال المسيحيون: نعم، فرد البدائيون: إذن هو ليس رب!

هذه هي الحقائق الصغيرة والبسيطة في القضايا المعقدة والتي أثبتت فشل التفكير الوضعي المنطقي، كنقد الفيلسوف التحليلي (بيرناند راسيل) والفيلسوف النمساوي (كارل ريموند بوبر) لهم.

إن معيار القضايا التحليلية هو الإتّساق، حيث أن الفكر يكون متسق مع نفسه، بينما معيار القضايا التركيبية هي المطابقة، حيث يتطابق الخارج مع الحس والتجربة.

وهنا سؤال: ما هو الأساس الفلسفي الذي إعتمدوا عليه؟ وكيف يبررون إيمانهم بالإتساق والمطابقة؟ لم يتم الرد على هذا السؤال من قبل الوضعيون المناطقة، لذلك قال الفيلسوف (ايمانويل كانت) أن العقل يحتوي على أشياء فطرية سابقة سبقاً منطقيّاً على التجربة، ولا علاقة لهذه الركائز بها، وهي قبلها ومتعالية فوقها ومنفصلة عنها.

في النّهاية:

مبدأ السببية يسلّم به العلماء من حيث الأصل، والكائنات الدقيقة وماهياتها وتركيبتها وهدفها وعملها لا يمكن أن يكون صدفة، وإنما هي ظواهر حسية مباشرة تدل على مسببها، لكن هذا المُسبّب ليس مُعطيا حسيّا مباشراً، ولكن الإنسان إستنبط أن من وراء هذه المعطيات والكائنات الحسية وجود خالق أبدعها وصممها، كالزّمن الذي يتخلّل الإنسان ولا نراه ولا نستطيع أن نفلت من قبضته، أو أن نُجري بعض التجارب عليه! هذا الزمن الذي لا نعرف شكله ولكنّنا نرى أثره، فهو يسبح في الإنسان، ومسؤول عن ظاهرة الماضي والحاضر والمستقبل، وخالقنا العظيم لم نرهُ، ولا نعرف كُنههُ، ولكنّنا شاهدنا أثره في الخلائق إستناداً إلى معطيات حسية مباشرة في الوجود وفي مخلوقاته.

Da Ja Vu الإنسان هو الآن

في حياتنا تستوقفنا لحظات ومواقف تمر بنا الآن وكأننا شاهدناها قبل هذه المرّة، وهناك بعض التفسيرات لهذه الظاهرة، فمثلاً، يقول التفسير العلمي بأن المشهد يُدرك في الدماغ متأخّراً، بينما يقول التفسير الديني بأن الطفل وهو في بطن أمه عندما تنفخ فيه الروح عند بلوغه الأربعون يوماً يرى شريط حياته بالكامل.

ولكن هناك تفسير آخر سأتطرّق إليه من خلال الروائي الأمريكي والكاتب القصصِ (فيليب كيندرد ديك) والذي كانت معظم أعماله من نوع الخيال العلمي، ولكنه إهتم أيضا بعدة مواضيع كالسوسولوجية "Sociology" والسياسية في رواياته، والتي أظهر عبرها هيمنة الشركات الإحتكارية والحكومات الإستبدادية وتغيير حالة وعي الإنسان، ولكنه في أعماله الأخيرة ركز إهتمامه على ما وراء الطبيعة وعلم اللاهوت.

في روايته الرهيبة "سيلي يا دموعي، قال رجل الشرطة"، يقدم إلينا جملة مواضيع عميقة في قالب يجمع بين الرواية البوليسية التشويقية والخيال العلمي، ولكن العجيب فيها هو ما سأقصّهُ عليكم الآن!

يقول الكاتب فيليب كيندرد ديك: "كنت مدعوّاً على حفلة، وفي أثنائها تعرفت على سيّدة هناك، وعندما أخبرتني بإسمها وإذا به يشبه إسم السيّدة البطلة في روايتي -سيلي يا دموعي، قال رجل الشرطة- فقلت في نفسي: عادي! هناك الآلاف ممن يطلقون ذات الإسم!؟".

"تبادلت أطراف الحوار معها، فصارت هذه السيّدة تشكوا لي عن زوجها، والسبب أن لها علاقة محرّمة مع رئيس الشرطة بالبلد، فتوقفت قليلاً مع نفسي وقلت: وهذا أيضا مكتوب بروايتي! ثم عدت إليها وسألتها: ما إسم الشرطي؟ فقالت لي: إسمه فلان، فقلت في نفسي: وهذا أيضا موجود بروايتي! وهنا تملّكني الخوف! فهذا لم يعُد صدفة، بل هناك شيء غير طبيعي! لأن هناك توافقات دقيقة بين الحقيقة وروايتي".

يكمل: "تركت الحفلة، وذهبت إلى البريد كي أضع رسالة معيّنة كانت معي، وعندما وصلت كانت هناك أزمة خانقة، فققت بالصف للإنتظار، ورأيت رجلاً غريباً يقف بالخارج بالقرب من مركبتي، فذهبت إليه، وسألته: هل هناك أمر ما؟ فأجابني: إنقطعت بي الطريق، ولا يوجد وقود في مركبتي، ولا أعرف كيف أدبر أمري؟ يقول الكاتب فيليب: أخرجت محفظتي، وأعطيت الرجل بعض النقود، وركبت سيارتي، وقبل أن أصل للبيت قلت في نفسي: ليس هكذا تكون مساعدة الآخرين! هذا الرجل مقطوع، فكيف سيصل إلى أقرب محطة وقود؟ علي أن أعود وأصطحبه بنفسي إلى المحطة لكي يملأ الوقود، وفي حين عودته تذكر أن كل هذا مكتوب في روايته!؟ فأصابهُ الخوف والفزع والرعب الشديد".

يضيف: "ذهبت من شدّة خوفي إلى القِس لأخبره عما جرى، فقال لي: هذا موجود بسِفر الأعمال -الكتاب المقدس- كصورة كربونيّة، فسألتهُ: ما هو سِفر الاعمال؟ فأجابني: كتاب مقدس، فقلت له: لم أقرأه! فرد علي: إنّه موجود، وبإمكانه أن تطّلع عليه".

ثم ختم يقول: "أدركت حينها أن الزمان مجرد وهم، فكأن كل شيء مخلوق وحاضر وناجز في لحظة واحدة، ودماغ الإنسان مبرمج بحيث يُدرك الأشياء شيءً فشيء، إن الموضوع أشبه بفيلم سينمائي مدته ساعتان، ولكن هذا الفيلم هو عبارة عن لحظة قبل أن تضع شريط الفيديو في جهاز العرض لكي تشاهده، ولكن عند وضعك الشريط في جهاز العرض لا يمكن أن تشاهد إلا في وقته المكتوب، وهو الساعتين!".

منهم من يقول إنه وُجِدَ في بداية أحد مخطوطات فيليب كيندرد ديك جملة "باسم الله الرحمن الرحيم"، وفي نهايتها "فبإي حديث بعده يؤمنون".

وهناك مزاعم أخرى تقول إنه قد يكون إنتهى إلى الإسلام، ولكن في زمانه كان سوف يقتل لو أباح أو صرّح بذلك، والله تعالى أعلى وأعلم.

في النّهاية:

عزيزي القارئ، إنني أعتقد أن عمر الإنسان الحقيقي خارج هذا العالم هو لحظة في عين الله، ولكن عند وضعه وبثه في هذا العالم وهذه الدنيا، تبدأ هذه اللحظة بالإنفكاك والتحرر ليعيش الإنسان عمره المقدر والمكتوب، سواء كان يوم أو أسبوع أو عام أو ثمانون، بحسب ما قدر وكتب لنا الله تعالى من أعمار.

ويبدوا أننا عند تحرّر أعمارنا من خلال هذه اللحظة، فإننا نمر حقّا على منعطفات منها، وهذا هو التفسير الأقرب لماذا نعتقد أننا رأينا هذا المشهد أو هذا الموقف قبل هذه المرّة! لأننا كنا حقّاً أحياءً في تلك اللحظة!

وتخيل معي أن لحظة تساوي 80 عاماً! لحظة في عين الله تساوي في جهاز العرض "الدنيا " 80 عاماً!

إنّ الزمان مجرد وهم، فالماضي والحاضر والمستقبل ليست هي الإنسان، وإنما الإنسان هو الآن، في هذه الّلحظة، الحقيقة هي أن حياة الإنسان عبارة عن لحظة!

رسالة الغيب لي وتجربة إقترابي من الموت

ما حدث معي جعلني أؤمن بأن هناك وجودان للإنسان، وجود فيزيائي، ووجود ما وراء هذه الفيزياء، وهذا الطيف الماورائي أعمق وأعظم من النموذج المادي، وهو الذي أعجز عقل الطبيب والعالم والفيلسوف.

أحد أطباء الأعصاب كان ماديّاً، وفي أحد ندواته أصيب بمرض في الدماغ، ثم مات على إثرها سريريّاً وإكلينيكيّا لعدّة أيام، وفي المشفى وبعد أن يئس الأطباء منه وإذا به فجأة يعود للحياة! فكان أوّل ما نطق به: "هل مت؟"، فأجابهُ الأطباء: "أنت مت لبضعة دقائق ثم عدت إلى الحياة"، فرد عليهم وهو في عجب من أمره: "لا يوجد كلمات تُوصف ما حدث معي!"، فسألوه: وما الذي حدث معك؟"، فأجاب: "حين كنت ميّتاً رأيت نفسي تخرج من جسدي، صعدت فوقها، ثم عبرت في نهر ضيق، وكان على ضفتيه أشخاص أعرفهم مثل أمي وأخي، ورأيت في آخر النهر نور أبيض ساطع، ولكنه كان غير مؤذي، شعرت أن هذا النور يحتويني ويحبني، وشعرت أنني إذا ذهبت إليه وإلتحمت به وكأنني إتحدت مع كل الوجود، وشعرت أنه إن حدث هذا لن أعود للحياة مرّة أخرى، فصرخت أن أعود للحياة لأني كنت مقصراً فيها، ثم إستيقظت وإذا أنا في المشفى، وفهمت وقتها جوهر الحياة!"، ثم سكت قليلاً، ثم قال للأطباء: "لا يُهمني إن صدّقني أو كذّبني العلم أو الطب، المهم أن هذه الحالة حصلت لي وعشتها!"، ورهن حياته على إثرها للفقراء والمساكين.

وهناك قصّة أخرى أيضاً، أحد الأشخاص يدعى "سكوت درومند"، توفي لمدة 20 دقيقة أثناء إجراء عملية جراحيّة له، ولكنه كان يسمع الطبيبة وهي تصرخ: "سكوت" مات! وكان يسمع أيضاً كل ما يدور في غرفة العمليات أثناء موته، ثم ما لبث أن وجد نفسه في حقل كبير، ورأى فيه أشجار ضخمة ذات مظهر غريب، وشاهد عشب أخضر يلمع، ثم شاهد سحابة بيضاء رأى فيها فيديو يعرض شريط حياته كاملاً بكل ما فيها من جيّد وسيء.

يقول: "أدرك وقتها أنني مت، وأنني بين يدي الخالق"، ثم أكمل: "ذهبت ومددت يدي خلال السحابة، وإذا بيد ضخمة من إبّانها تمسكني وتقول لي: لم يحن وقتك بعد، ولا يزال لك مزيد من العمر! وإذا بي أهبط وأعود لجسدي وأستيقظ"، وينهي قائلا: "عندما إستيقظت وجدت على صدري ورقة مكتوب عليها - مات لمدة 20 دقيقة - فحزنت جدّاً! ليس على خبر وفاتي، وإنما لأنني لم أرغب في العودة الى هذه الدنيا، فالعالم الذي كنت فيه أكثر سلاماً وهدوئاً ودفئاً".

وقصتي أنا...

في يوم من الأيام وقبل بضع سنوات وأنا على مشارف النوم، وإذا بي أخرج من جسدي وأصعد إلى الأعلى! وأثناء عروجي كنت أنظر إلى جسدي في الأسفل مُمدداً كما هو على السرير، والماهية التي كنت بها أثناء صعودي أشبه بالأثير، طيف ليس له لون ولا حدود ولا كُنه، ولكن كانت لي يدان وقدمان ووجه ولكنها ليست مادية!

وأنا في هذه الحالة كنت أعي تماما نفسي وجسدي الشفاف، وعقلي كان معي 100%، مضيت أعرج إلى الأعلى حتى إختفى كل هذا العالم المادي وكل هذا الكون من حولي، وسرعان ما وجدت نفسي داخل فراغ أسود! ولا أعلم كيف كان الأمر، أو كيف تمت الطريقة، أو كيف ولجت فيه؟!

كان هذا الفراغ أشبه بنفق أسود ليس له أبعاد، وكنت أطير بداخله، وعلى حين غرّة توقفت، وأدركت حينها أنني مت! وإذا بصوت في رأسي يخبرني أن الله تعالى بانتظارك في نهاية هذا النفق! ولكنه سبحانهُ لم يكن له ماهيّة أو جسد!

لم يأتي في خاطري حينها إلا قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ" (الآية رقم 99 في سورة المؤمنون) فما كان مني إلا أني صرت أبكي وأناجي وأنادي ربي وأردد بما معناهُ في قوله تعالى: يا رب إرجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت!؟ يا رب إرجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت!؟ أذكر أني كنت أبكي من غير دموع، وأتكلم بدون صوت، واللّغة التي كانت بيني وبين الله هي كالإيحاء! كان يسمعني، وأنا أتحدث معه سبحانه، ولكن بدون صوت، كنت أتلقّى كل شيء بالإيحاء!

عكفت على البكاء والرجاء من الله أن يعيدني مرّة أخرى إلى الدنيا لكي أعمل صالحاً حتى إستجاب لي، وما هي إلّا لحظات حتى وجدت نفسي أخرج من هذا النفق والفراغ تدريجيّاً، وأهبط كسرعة الضوء حتى دخلت الى عالمنا، ثم ولجت في جسدي لأستيقظ مفزوعاً ومرعوباً مما حدث!!!

كان أوّل أمر قمت به حين إرتدّت نفسي إلي، هو أنني شهقت شهقتاً تزامنت معها إنتباه عيناي! فنظرت إلى زوجتي التي تنام بمحاذاتي على السرير، وما كان مني إلا أني أيقظتها بطريقة صعبة، أشبه بغريق يتمسّك بجذع شجرة وسط المحيط لكيلا يغرق! وعندما أيقظتها أخبرتها بما حدث لي، ولكنها لم تصدقني، وقالت لي: "هذه رؤية صادقة، لا تخف"، ولكني لم ألتفت لحديث زوجتي، لأني على يقين أن ما حدث لي هو حقيقة، وليس حلم ولا رؤيا!

قصصت رحلتي هذه لأبي ولأمي ولكل من هو قريبٌ منّي، فكان جواب الجميع هو أن هذا حلم أو ربما رؤيا! ولكني كنت مصرّاً في نقاشي معهم أنه ليس كذلك أبداً، وأن ما حدث معي حقيقة وليس كما يزعمون! وأن هناك كنهٌ آخر لي ليس بماديٍّ، وقد كنت هو عندما خرجت من بدني الفيزيائي، وأن هناك عالم ووجود آخر ذهبت إليه، وهو ذلك الفراغ والنفق الأسود، وإلى الآن لا أحد يصدقني!

في الحقيقة أنه لا يهمني إن صدقني الناس أم لا، فأنا أعتقد أن هذه تجربتي الحسية الخاصة التي أرسلها الله تعالى لي، والتي تثبت وجود الروح ووجود عالم آخر بإنتظارنا.

ولا أعلم هل يندرج ما حدث لي في قوله تعالى: "قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين" (الآية رقم 11 من سورة غافر) أو في قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ" (الآية رقم 2 من سورة الأنعام).

على العموم...

أخذت بالبحث والدراسة في حقول العلوم لكي أجد تفسيراً لما حدث لي، حتى إلتقيت أخيراً بعلم "الثاناتولوجي".

لقد تم ظهور حقل جديد في العلم وهو "الثاناتولوجي"، وهو علم حديث الولادة يتحدث عن الموت وما يتعلق به، الثاناتولوجي هو "علم الموت"، وهو علم خاص به، وسبب ظهوره هو أننا نعيش في عالم يأخذ بيد الماديّة كنموذج لها، أطباء وعلماء وفلاسفة يرفضون أي دليل يؤشر على أفق غير مادي.

ولكني وجدت عالم الأحياء الروسي (إيليا إيليتش ميتشنيكوف) المتخصص في علم التشريح وعلم الأحياء الدقيقة "الميكروبيولوجيست"، قد إقترح في العلم أن يتحرك الإنسان في فضائين، الأول متعلق بعلم الشيخوخة "Gerontology"، والثاني متعلق بعلم الموت "Thanatology".

وموضوع حديثي هو حول "الثاناتولوجي" أو "معرفة الموت"، فهي الدراسة العلمية للموت وما يترتب عليه من نتائج، حيث أنه يبحث في آليات وجوانب الطب الشرعي للوفاة، مثل التغيرات الجسدية المصاحبة للوفاة وفترة ما بعد الوفاة، فضلاً عن الجوانب النفسية والإجتماعية الأوسع المتعلقة به، حيث يدرس عملية الموت وتطوره ومراحله وأسبابه، وقد قدم هذا العلم للطب الشرعي معلومات قيمة من حيث دراسة التغيرات العضوية والخلوية التي يمكن أن تؤدي للموت.

الكلمة مشتقة من اللغة اليونانية في أساطيرها، وهي ثاناتوس" θάνατος " وتعني "الموت"، وهي تجسيد للموت، واللاحقة الإنجليزية هي "ology- " وهي مشتقة من اللاحقة اليونانية "logia- ".

ومن فصولها تجربة "العودة من الموت" أو "الاقتراب من الموت"، وهي التي تدرس الموت على كل إنسان، وليس الموت الذي يتحدث عنه الطب الشرعي فقط، بل إنها تتعاطى مع الموت بشكل قريب حيث يلتقي مع الدين والوحي.

الطبيب (ويليام باريت) كان ماديّاً، ولكنه ألف كتابه الشهير "رؤى فراش الموت Death Bed Visions" الصادر عام 1926م، تحدث فيه عن عالم آخر غير هذا العالم المادي، حيث قام بتدوين شهادات لأناس إدعوا رؤيتهم أطياف من فقدوا من أصدقاء وأقارب، وآخرين سَمِعوا موسيقى، إضافةً إلى ظواهر أخرى، ليتوصّل إلى أن هذه الرؤى تعد دليلًا على التواصل الروحي.

وصفت رؤى فراش الموت منذ العصور السحيقة، ولكن لم تُجرَ أي دراسة منظمة عنها حتى القرن العشرين، وقد سميت هذه الرؤى أيضاً ب "الرؤى الصادقة"، أو "رؤى الإحتضار"، أو "رؤى ما قبل الموت".

في دراسة أُجريت ما بين عامي 1959 و1973 بوساطة عالمي النفس الموازي (كارليس أوسيز، وإيرليندور هارالدسون) توصّل من خلالها الباحثان إلى أن ما نسبته 50% من عشرات الآلاف الذين شملتهم الدراسة في الولايات المتحدة والهند قد اختبروا رؤى الموت.

أوسيز وهارالدسون وعلماء آخرون من صنفهم، مثل (رايموند مودي) خلصوا إلى أن هذه النتائج تعد دليلًا على وجود الحياة الآخرة، والطبيب الأمريكي (بيتر فينويك Peter fenwick) كذلك الأمر، آمن بالعالم الآخر بسبب عودة مريض مات بين يديه، فأخبره عن ما رآه عندما مات إكلينيكيّاً، ليقوم هذا الطبيب بعمل بحث بعنوان " Near-Death Experiences and The Art of Dying"، والذي قال فيه هو وغيره من العلماء والأطباء أن هناك علامات تحدث عند البعض لحظة الاقتراب من الموت، فقاموا برصد هذه العلامات أو الظواهر، وصنفوها كالآتي بالأسفل:

أولا- هناك بعض الناس وهم على مشارف الموت، يأتيهم هاجس أو شعور قوي لا يمكن مقاومته أنهم سيموتون، وفي المقابل يخبرهم الطب أنهم بخير ولا يعانون من أي مرض، لكن هاجسهم يخبرهم أنها النهاية، وبالفعل يشرعون بعمل الخير في حياتهم، وما هي إلا بضعة أيام أو أشهر وإذا بالموت قد أتى! فيتفاجئ الجميع! كيف عرف أنه سيموت!؟

ثانيا- هناك "وضوح الموت"، أو "صحوة الموت"، أو "إستيقاظ الموت"، حيث يستيقظ المُلقى على السرير ويقول بصوت عال: "وحدوا الله، صلوا على النبي"، فيظن من حوله أنه إستيقظ من مرضه، وإذا به بعد الشهادة يرفع سبابته ويموت!

ثالثا- عودة الجهاز العصبي للعمل بشكل كامل، كشخص مشلول، فيقف فجأة ويلقي تحية الوداع ويموت!

رابعا- الوعي الكامل قبل الموت، كشخص مصاب بالزهايمر والنسيان "وضاع من زمن"، يستيقظ فجأة، ويسمي كل من حوله بإسمه، ويلقي عليهم تحية الوداع ويموت!

خامسا- الزوّار، فيرى الذي يموت أشخاص وأقارب وأصحاب ماتوا منذ زمن، يزورونه ويتحدثون معه، كالشيخ الشعراوي رحمه الله، الذي رأى الصحابة وسلّم عليهم، وتحدث مع رسول الله ﷺ ثم فارق الحياة!

سادسا- رؤية مشاهد وظواهر إما جميلة أو مخيفة، مثل ما حدث مع عمي "روحي كبها"، حيث قال لابنه "أحمد" عند إحتضاره: "إفتح الباب"، -يقصد باب غرفته التي يرقد بها في المشفى- فرد عليه ابنه أحمد: "لماذا أفتح الباب؟"، فقال له عمي: "أريد أن أتنزّه"، فرد عليه ابنه أحمد: "أين ستذهب؟ ماذا ترى الآن؟!"، فأجابهُ عمي: "أنا أرى جزيرة خضراء وأريد أن أذهب إليها وأتنزه بها"، فقال له ابنه أحمد: "خذني معك يا أبي؟"، فرد عليه عمي: "إن شاء الله، ولكن في وقت لاحق"، وفي اليوم الذي يليه مباشرة تحدث بشكل طبيعي مع أولاده ومن حوله، ثم فارق الحياة!

سابعاً- حضور كائنات، فيرى المحتضر كائنات غريبة أو روحية لا يستطيع وصفها لمن حوله وإنما يظل يحدق بها، حتى يفارق الحياة!

ثامناً- علامات، فتحدث علامات تؤشر على موت أحدهم، فيرقب موقف معين في تاريخ معين، ويظل هذا التاريخ يتكرر في حياته، وبنفس التاريخ يفارق الحياة!

تاسعاً- الرؤى، كشخص يرى رؤية في غيره سواء كان قريب أو غريب أنه سيموت بعد بضعة أيام، وبالفعل يحصل هذا، وتتحق الرؤى ويموت هذا الشخص!

عاشراً- الحيوانات، كشخص لديه كلب، وفجأة يبدأ بالعواء في الوقت الذي يموت فيه صاحبه! كيف حصل هذا؟ وهل عرف الكلب أنه سيموت؟ أم أن هذا وقع مصادفة!؟

إحدى عشراً- التزامنيّة، كشخص يشارف على الموت، وإذا بضوء المصباح يخفت مباشرة، وتتغير درجة حرارة الغرفة لحظة موته!

إثنى عشراً- الوقت، كأن تشعر أُم بالخوف الشديد على ولدها، وفجأة يأتيها هاجس أنه قد حدث مكروه له، فتبدأ بالبكاء والصراخ، وبالفعل يأتي خبر وفاة ولدها بحادث سير!؟ وعند تحديد وقت الوفاة، وإذا به يتزامن مع خوف الأم وصراخها!

ثالث عشراً- الإشتهاء، عند إحتضار قريبتي المصابة بسرطان الكبد، لبثت في أيامها الأخيرة لا تستطيع الأكل، شُوهدت في إحدى المرات وهي في يقظة كاملة تنظر للأعلى، ثم ترفع يدها فجأة وكأنها تتلقى شيئاً، ثم تضعه في فمها فتمضغه وتبلعه كما لو كان طعاماً! ولا أدري إن كان هناك أدلة على تلقي المحتضر هبات من السماء كالأكل والشرب أم لا!؟

رابع عشراً- التخلّي، فك التعلق بالدنيا وما فيها، فترى الشخص قد تخلى عن ماله وتجارته، وعن زوجته وأولاده، بل وعن الدنيا بأسرها! ويصل الأمر به إلى أن يتخلى حتى عن نفسه! وهذا معنى: إنا لله وإنا إليه راجعون...

هذه كلها تسمى بالفينومينولوجيا "الظواهر كما هي"، وتعني وصف الظواهر وليس تفسيرها، فالطبيب أو من حول المُحتضر يصف الظواهر التي حدثت مع المُحتضر عند إحتضاره، أو عن تجربة موته وعودته للحياة، ثم يأتي تفسيرها من قبل المؤمن بالله، فيقول ما قاله الله تعالى: "فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد" (الاية رقم 22 من سورة ق).

هذه هي صحوة الموت أو إستيقاظ الموت، ثم يأتي مادي ضائع أو ملحد أحمق سواء كان طبيباً أو عالماً أو فيلسوفاً ويفسر هذه الظواهر على أنها هلوسات! أو يأتي ذلك اَللاديني أو الشكوكي الأبله ليقول: هذا نداء الكون والطبيعة!

تنويه: أحب أن أضيف أن (د. ياسر منجي) وهو ناقد في الفنون البصرية وأكاديمي مصري، قد قدم رسالتهُ في الماجستير والتي تمحورت حول هذا العلم، وكانت بعنوان "المعالجة الفنية لفكرة الموت في أعمال الحفر والطباعة"، وهي بهذا الاعتبار تكون أول رسالة في حقل الدراسات الفنية البصرية تربط بين هذا العلم وبين أعمال الجرافيك.

تجاوز متنُ هذه الرسالة 1000 صفحة، وطُبِعَت من جزئين، واشتملت على ترحالٍ وافٍ لتناوُل ظاهرة الموت في فنون الحضارات القديمة وأديانها، وفي الديانات السماوية، وفي الفلسفة، وفي الأدب العالمي، وفي بعض العلوم التجريبية، وفي مقدمتها "الثاناتولوجي"، وكيف ارتبط كل ذلك بمعالجات الفن لفكرة الموت، وتأثيره على رؤى الفنانين وأفكارهم وأساليبهم حين قاربوا فكرة الموت وانفعلوا بها.

حيث ذكر في هذا السياق هذه الكلمات: "لا يفوتني أن أعبر عن غبطتي ودهشتي باستشهادكم بلوحة بوش -صعود المباركين- في المحاضرة التي تناولت فيها تجارب المقاربة للموت، وبهذا المعنى أضيف على ما ختمت به المحاضرة المنبرية إن صحت تسميتها بقولي: آن الآوان للخطاب الديني أن يطلع على التجارب البصرية لأجيال متعاقبة من المشتغلين في النحت والتصوير وغيرها من طرق المعالجات البصرية القديمة والحديثة ويستفيد منها في خطاب الوعي الإنسان".

في النهاية:

الموت ليس عدم وإنما إنتقال، الموت هو إنتقال أو إرتحال من هذه الدار الى تلك الدار..

أما بالنسبة للملحدين والماديين والعلميين والمشكّكين وكل من هم على شاكلتهم وعلى نهجهم، الذين يبرّرون ما هم عليه بقولهم إن الدماغ هو من يفرز الوعي، فإني أرد عليهم بسؤال: كيف إذن إستمر الوعي بالعمل بعد موت الدماغ؟!

الإدراك الإنساني

قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمُحال لذاته، وإنما بالمُحال لغيره

في باب الإلهيات كان يرى الفيلسوف المثالي (أفلاطون) أن الله تعالى هو الخالق والمهندس، بخلاف تلميذه الفيلسوف الواقعي (أرسطو) الذي كان يعتقد أن الله تعالى ليس خالق "Creator"، وإنما مُحرك "Mover"، مُحرك لا يتحرك، لأنّه لو تحرك لزايلته الألوهة، ولكونه إلهاً يجب أن يكون ثابت!

كان لهذا المعنى وقع على تفكير المسلمين، سواء على نحو العامّة أو العلماء أو حتى الفلاسفة الذي إنحنوا لأرسطو ولهذه الفكرة، وبأنه عالم ووجود من الثبات المطلق.

إنّ الإنسان البسيط يُعاين ذلك الجسر الذي يسير عليه بمركبته، بأنه مجموعة من الحديد والمسامير والبراغي والخشب، بينما المهندس يرى هذا الجسر على أنّهُ مجموعة من القوانين، وهذه القوانين تم بها تشييد هذا الجسر كتحفة هندسية وفنيّة. لذلك كان الفيلسوف أفلاطون ينظر إلى العالم كأنه هندسة الله، ولكنه من جهة الميتافوريا والمَجاز كان وكأنه يعادل بين الله والقوانين، فتجدهُ يُفرغ عن منطق أنّ الله تعالى هو مجموعة هذه القوانين الحاكمة للكون من الذرة إلى المجرة، وهذا أيضا غير صحيح، فالله تعالى مُفارق.

القدّيس والرّاهب الفيلسوف (توما الإكويني) له كتاب بعنوان "الفراسة اللاهوتية"، ناقش فيه مسائل لاهوتية، فطرح في ثناياه سؤاله الشّهير: "هل يستطيع أن يغير الله تعالى شيئا قد حصل؟"، ثم أجاب: "لا، لا يستطيع أن يغير شيئا حصل لأنه حصل"، وكأنه قيّد إرادة الله هنا! ثمّ أضاف: "يستطيع أن يشفي إنسان مثلاً، لكنه لا يستطيع أن يجعل الحاصل لم يَحصُل لأنه حصل وجُرح هذا الإنسان، وهذه مُغالطة كبيرة، فقدرة الله تعالى لا تتعلق بالمُحال لذاته وفي ذاته، ولكنّها تتعلّق بالمُحال لغيره، فهو يستطيع بالنسبة لغيره أن يفعل أي شيء.

قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمُحال، وأنا أقصد هنا بالمُحال لذاته وفي ذاته، وليس لغيره، وهذا هو الحق، لأن المُحال لذاته وفي ذاته لا معنى له، ولو تعلقت به إرادة الله تعالى وجاوز العقل هذا، لوصلنا في نهاية المطاف إلى القضاء على نظام العقل نفسه! بمعنى أنّه سينتهي إلى عدمية فكرية.

ولو كان تعلق الله بالمُحال لذاته وفي ذاته لإرتبطت قدرته بإيجاد خالق مثله، وهنا أقول أنه لا يوجد معنى لله كخالق إن خلق خالقاً مثله! فلا يُمكن أن يكون الله خالق ومخلوق في ذات الوقت، لأن هذا تناقض، ولهذا فإن الله تعالى محال لغيره، فهو الخالق لغيره وليس لنفسه.

في النّهاية:

هناك من الملاحدة ومن على نحوهم من يقولون: "إن الله على كل شيء قدير"، إذن قدرته تتعلق أيضا بالمستحيل، فلماذا لا يخلق خالقا مثله إن كان على كل شيء قدير؟

وهنا أجيب: إن "الشيء" ممكناً وليس مستحيلاً، لأن "الشيء" مخلوق وموجود، والله هو خالقه وموجده، لذلك الله سبحانهُ قادر على الشيء لأنه صانعهُ وموجدهُ ومحدثهُ وخالقهُ ومحيط به.

وأن يوجد خالق وموجد غير الله لهذا الكون مستحيل، أو أن يخلق الله خالقاً مثله أيضاً مستحيل، لأنه لن يصبح خالق في الثانية، وستزاولهُ الألوهيّة في الأولى.

وهذا هو "المستحيل العقلي"، كأن تقول: "خالد حي وميت في نفس الوقت"، وهذا مستحيل! لأنه تناقض، فإما أن يكون خالد حيّاً وإما ميّتاً، تماماً كأن تقول: "الله خالق ومخلوق في نفس الوقت"، وهذا مستحيل عقلي، فإما أن يكون الله تعالى خالق، وإما أن يكون مخلوق.

وإذا كانت قدرة الله تتعلق بالمستحيل، فهذا يعني أنه أصبح ممكناً، وهذا يعني أن الله يستطيع أن يخلق إلها غيره، ويصبح خالق ومخلوق في الآن ذاته، وهذا مستحيل، فالله خالق كل شيء.

ولو سألنا: هل الله قدير على قتل نفسه؟ وهل يستطيع الله على إعجاز نفسه، بأن يخلق شيء لا يستطيع حمله؟ طبعاً لا، مع العلم أن هذا الكلام نحويّاً صحيح، ولكنهُ عقليّاً مستحيل، لأنه يدخل في التناقض، فأن يُفنى الخالق هذا يعني أنه ليس خالق!

وأخيراً، من تعريفات المستحيل هو: مالا يُوجد ولا يَنْوجِد، لأنه لو أوُجد لما كان مستحيل، ولأصبح ممكناً.

وأمّا عن إعدام المستحيل فهذا مستحيل، لأنّه مستحيل.

الشيء في ذاته، والشيء في إدراكنا

مؤسّس الفلسفة المثاليّة الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت) إعترف بأنّ للأشياء وجود خارجي، وهو يكون بذلك ليس مثالي ذاتي ومادّي، لأنه أقر بأن للأشياء وجود حقيقي وواقعي.

هذه الأشياء هي عينيّة ومستقلّة عن إدراكنا، وسواء أَدرَكْناها أم لا، فإنّنا نُدركها على النحو الذي نُدركها عليه، لذلك أعتقد أنهُ لا أحد في الكون يمكنه رصد ومعرف حقيقة ماهيّة الأشياء كيف هي قبل إدراكنا لها.

لذلك ميّز إيمانويل كانت بين الأشياء في ذاتها والأشياء في إدراكنا، وهذا الحديث صحيح، فلا أحد في المجرّة يعلم ما هي حقيقة الأشياء في ذاتها.

ذكرت فيما مضى أن عقل الإنسان يفسر لون معين على أنه أزرق مثلا، ولكن الحيوان يراهُ أحمر، كما أن الإنسان يرى حدود شيء بشكل معين، لكنها تنفذ إلى دماغ الحيوان بهيئة مختلفة، وهنا ينطلقُ الإستفهام: كيف هي الأشياء في ذاتها قبل أن نُدركها؟

في النّهاية:

لا أحد مِن العَرش إلى الفَرش يُدرك حقيقة الأشياء في ذاتها سوى الله تبارك وتعالى.

كل المخلوقات من إنسان أو حيوان أو مَلَك أو شَيطان مركّبة بطرق مختلفة ومحدّدة لكي تُدرك العالم والموجودات بِسُبُل مُختلفة، لذلك كيف هو العالم كما هو؟ جوابي: لا أحد يعلم إلّا الله عز وجل.

نحن نبحث عن الحقيقة لمعرفة الحقيقة

كان من أعلام علم القيم "الأكسيولوجيا Axiology" بعض الفلاسفة كأمثال (تشارلز ساندرز برس، وجون ديوي، ويليام جيمس، وجورج سانتايانا أو خورخي سانتايانا، وجميع البراغماتيين).

ويليام جيمس ألف كتاب بعنوان "إرادة الإعتقاد"، بعكس مصطلح "إرادة الإلحاد" والذي تحدث عنه (باسكال)، لكن ويليام جيمس غايره وتكلّم عن إرادة الإعتقاد، فعبّر بصراحة عن الإيمان، وتطرق إلى فكرة المهدي عند الشيعة، فكتب يقول: "إن الدين حق، لماذا؟ لأنه ينفع الناس، فهو يبث الأخلاق والتعاون والتراحم والتسامح، بل إننا نعزّي من خلاله بعضنا، ونفرح لسرور إخوتنا، إذن الدين هو حقيقة".

ولكنه حقيقة بالنسبة له بالمعنى البراغماتي، فلو سألته: "هل تؤمن بأن هذا الدين هو من عند الله؟" سيجيب: "لا"، لأنه يستند إلى معايير أخرى في معرفة الحقائق، فالمسيح بالنسبة له أسطورة ولا حقيقة وجودية له، ولكنه يعتقد بأن هذه الفكرة الأسطورية مادام أنها تنفع الناس إذن هي حقيقة، بغض النظر هل يؤمن أو يكفر بها.

الأمريكيّون يفكرون بهذه الطريقة البراغماتيّة أيضاً، ولكن هذا الفهم سطحي من وجهة نظري، فالعمل لا يقوم بهذه الطريقة، لأننا نبحث عن الحقيقة لمعرفة الحقيقة.

من أقوى الأدلة التي تدحض الفكر البراغماتي هو هذا السؤال: "هل هناك حياة على القمر؟" إذا كان هناك حياة عليه وتم إثباتها فهي حق، ولكن ليس هناك نفع للإنسان الذي يتربّع على الأرض منها؟!

لا عائد ماديّ، وليس هنالك مدد حياتي وعملي للنوع الإنساني على الأرض إذا كانت هناك حياة على القمر!؟

في النّهاية:

معيار النفع للإنسان في الحياة العملية للجماعة وليس للفرد.

أنا أؤمن بالشيء الذي لا يُفهم

أنا أؤمن بالشيء الذي لا يُفهم، أما الشيء الذي يُفهم فليس من المفروض أن أؤمن به، إذا إختبرته عقليّاً وفكريّاً عبر الحسّ، ثم إقتنعت به فإنني سأؤمن به، أمّا إذا كان غير ذلك فإنني سأنكرهُ.

وأعظم موضوع سأوغل إليه في حواري معكم هي مسألة وجود الله تبارك وتعالى، بالنسبة لي أنا أؤمن بالله تعالى لأنني لا أَفْهَمه ولا أَعْقِله ولا أدرِكُهُ!؟ لأنهُ سبحانه هو الشيء الأعظم الغير قابل للفهم! والعقل الإنساني يعجز عن تَعقُّله وعن إدراكه، بل إنّ أعظم العقول تُخفق وتفشل في أن تصل إلى عقل الله تبارك وتعالى، إلى إذا أراد سبحانهُ أن يُمرر لنا شيئاً من خُطته.

الله جل جلاله بالنّسبة لي ليس موضوع عقلي، وإنما إيماني! فشخصيّاً أنا أرى أنّ مسألة الله تعالى تحديداً لا تحتاج إلى عقل، وإنما إلى إيمان، لذلك قال تعالى: "الذين يؤمنون بالغيب" (الأية رقم 3 من سورة البقرة) والله تعالى هو غيب عني، ومعنى الإيمان بالغيب هو التسليم به وبوجوده، لأنك لا تستطيع عقليّا إختبار وجوده، ولا تستطيع حسيّاً الإقتراب من تحديد هويته أو كنهِه.

وهذا يشمل كل الغيبيّات، فهل تستطيع إختبار وجود الملائكة مثلا؟ أو الإستدلال على مكان الجنّة والنار؟ أو فحص الرّوح؟ لا تستطيع أبداً.

لذلك المسألة هنا تتطلب الإيمان بها، والإيمان يكون فقط بشيء غيبي، مع الأخذ بالإعتبار أن موضوع التقدّم في العلوم يقرّب لنا مفهوم الإيمان، فلو أبلغت إنسان عاش في العصور القديمة: "سأعطيك كتاب يحتوي بداخله ألف كتاب"، هل سيصدق ذلك؟ لن يكون منه سوى أنه سيرميك بالجنون! ولكن مع تقدّم العلم والتكنولوجيا وضع الإنسان على "الفلاش ميموري" ألف كتاب، فأصبحت الفكرة قابلة للإيمان.

ولو تطرقنا لمسألة الإيمان بالله تعالى عند الصوفيون على سبيل المثال، سنجدها في مستوى لا علاقة لها بالعقل من الأساس، لأنهم ينظرون إليها على أنها مسألة روحيّة.

في النهاية:

الأشياء الغيبيّة لابد أن نؤمن بها، ولو كانت مسائل قابلة للإختبار والتجربة والإستدلال عبر الحس والعقل لأصبح الإيمان بها لا معنى له! ولهذا السبب أنا أؤمن بالشيء الذي لا يُفهم ولا يُعقل ولا يُدرك.

أنا أؤمن بالله تبارك وتعالى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ورسوله، وأؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشرّه، لأن هذا هو إمتحان وإختبار الإنسان في نظري.

الله تبارك وتعالى هو المرجع الخارجي للرؤى

الفيلسوف الفرنسي الروحاني (هنري برجسون) كتب يقول: "أنا لا أنكر العلاقة بين النفس والبدن، كما لا أنكر العلاقة بين الدماغ والفكر، لكنها ليست علاقة عِلِّيّة"، يريد أن يُوصل لنا أنّ الفكر ليس معلولا وأثراً للدماغ، ولكن يوجد علاقة بينهما.

العالم والفيلسوف الفرنسي المادي (كلود برنار) مؤسس الفلسفة التجريبية، كان هو ومن يوافقه في علم وظائف الأعضاء يأتون بالدماغ ويعطّلون جزء معين فيه، فإذا شلّت اليد مثلا إهتدوا إلى أن جزئية الدماغ هذه هي المسؤولة عن اليد، وإستمرّوا بدراسة الدماغ بهذا الأسلوب في مبتدأ الأمر، حتى أن أحد الأطباء صرّح: "إن كل من السمع والبصر وهذه الأشياء، كلها بما فيها الفكر هي ظواهر واثار ومعلولات للدماغ، للجزء المادي فينا".

إن هذا تعبير مخل بالنسبة لي! فمثلا، لو عطّلنا أحد الأسلاك في التلفاز، يكون الأثر هو تعطّل الصورة أو تعطل الصوت، فهل هذا يعني أن التلفاز هو مصدر الصورة والصوت؟! بالطبع لا، لأن التلفاز هو جهاز عرض، ومن غيره لا يمكن استقبال البث بشكل مفهوم لنا صوتاً وصورة، فَلِمَ لا تكون علاقة الدماغ بالفكر على هذا النحو؟ إن عمليّة الابصار والسمع والصوت والفكر كلها لها علاقة بالدماغ، ولكن الدماغ ليس مصدرها، لأن مصدرها في إعتقادي الشخصي هو الله تبارك وتعالى.

إنني أرى أن الدماغ هو عبارة عن جهاز عرض، أداة لإستقبال الاشارة السمعية والبصرية والصوتية والفكرية من الله تبارك وتعالى، ثم يقوم الدماغ عُقبها بمعالجتها واعادة انتاجها لكي نرى ونسمع ونتكلم ونفكر، كما يفعل التلفاز الذي يستقبل الإشارة ويعالجها في داخله، ثم يعيد إنتاج الإشارة لكي تظهر لنا الصوت والصورة التي نراها.

ولو اختل جزء في الدماغ، يختل جزء في الإنتاج، ولكن ليس في الإشارة التي استقبلها الدماغ! لأن الدماغ ليس مصدرها، بل الله تبارك وتعالى، تماماً كما في التلفاز، إذا اختل جزء فيه، تتعطل الصورة، ولكن لا تندثر الاشارة التي استقبلها التلفاز! فالاشارة موجودة، ومصدرها ليس التلفاز.

مثال آخر، لو كان الفكر مصدره الدماغ، ومنبتهُ مادّي، فكيف نفسر موضوع الأحلام والرؤى التي يراها شخص معين في آخر لا يعرفهُ، وليس لهُ أي صلة أو علاقة به؟! وعندما يقصّها عليه، يتفاجئ الآخر بأن كل ما قصّهُ الحالم عليه حصل معه واقعيّاً! وهنا يأتي السؤال النهائي: أين هو الأصل المادي لما يحدث هنا؟

هذا ما دفع طبيب الأعصاب النمساوي اليهودي الشهير (سيغموند شلومو فرويد) مؤسس علم التحليل النفسي وعلم النفس الحديث، أن يكذّب كل ما يتعلق بالرؤى والأحلام في كتابه "تفسير الأحلام"، فحرّر فيه ما يلي: "لا يوجد أحلام تنبؤية، وكل الأحلام تحليليّة"، ويعني بهذه الجملة أن كل ما تَخبره في الحس يعاد إنتاجه في المنام! وهذا طبعاً كذباً إفتعله لكي يخرج من مأزق الرؤى التنبؤية فقط، والتي تحدث في الحقيقة وتحدث واقعيّاً بعد مدة من رؤيتها.

أما الكاتب والشاعر البريطاني (روديارد كبلينغ) كان يُخاطب موجوداً بغير عيان، فكتب يقول: "أنا لم أكن أؤمن بالروح والأحلام التنبؤية، حتى حلمت ورأيت نفسي أدخل قصر الملك، وأمشي في صالة بداخله حتى وصلت منتصفه، وقفت عند بلاطة معينه، فجاء من خلفي رجل صاحب بشرة شقراء، وربت على كتفي، وقال لي شيء ما، ثم استفقت من نومي".

قام روديارد كبلينغ بتدوين حلمه هذا، وبعد عدة أيام جائته برقية بالحضور الى القصر الملكي، فلبّى الدعوة، وعند وصوله وإيعابه في المكان، حدث ما لم يكن بالحسبان، فقال: "ذهبت للقصر، وعندما دخلته، وإذا به تماما كما رأيته في حلمي! ثم دخلت الى الصالة ووقفت بمنتصفها عند نفس البلاطه التي رأيتها في حلمي!"، ثم أردف يقول: الأعجب من ذلك كله انه جائني ذلك الرجل الاشقر من خلفي، وربت على كتفي، وقال لي نفس العباره التي قالها لي في حلمي!".

كان لهذه القصّة وقع عظيم في قلب روديارد كبلينغ، حيث أفضت به إلى الإيمان بالروح، ليختم مسيرته بهذه الكلمات: "الانسان كائن روحاني وليس مادي".

في النهاية:

الأحلام والرؤى بأشخاص آخرين لا تستطيع منظومتك الداخلية برهنتها، لذلك يجب الإستناد بمرجع خارجي، وهو الله تبارك وتعالى عبر كتابهِ وسنة نبيّهِ صلى الله عليه وسلم.

إقرأ

نحن لم نفهم الله

يعتقد العموم أنّ هبوط أبوينا "آدم وزوجه" من الجنّة إلى الأرض كان عقوبة لهما لأنّهما أكلا من الشّجرة، لكن حسب تقشيري للمسألة فإني أجدها تأخذ منعطفاً آخر، فلم يكن هبوطهما إلى الأرض عقاباً لهما لعدم إمتثالهما لأمر الله! قد يتفاجئ المعظم سواء على الصعيد الإسلامي أو غيره من المدارس الأخرى، ولكن سأثبت ذلك إن شاء الله.

الجنّة في الأرض وليست في السّماء

قبل أن أوغل في الموضوع، أريد أن أعقّب على أمر مهم، وهو أن الجنّة التي كان فيها أبوينا ليست هي جنة الخلد، لقوله تعالى: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ" (الأية رقم 17 من سورة القلم).

إن "الجنّة" لغةً تُطلق على الأرض الخضراء وما فيها من أشجار ونخيل وغيرها، كالبستان والحديقة، والذي جعلني أتطرّق إلى هذا التفسير هو أن جنّة المأوى ليست دار تكليف ولا يوجد فيها معصية، لقوله تعالى: "جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا" (الأية رقم 61 من سورة مريم) ولقوله تعالى أيضاً: "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ" (الأية رقم 34 من سورة فاطر).

إذن، جنّة الخلد ليس فيها تعب أو جهد، ولا ضعف أو إعياء، ولا كذب أو نميمة، بل ولقد جاءُ في موضع آخر في كتابنا الكريم قوله تعالى: "إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى" (الأية رقم 118 من سورة طه) وهذه مواصفات جنّة بسيطة وبِدائيّة، وليست مُواصفات جنّة الخُلد التي حدّثنا الله تعالى عنها في آيات كثيرة.

ولتأكيد ذلك سأطرح عليكم سؤالاً، كيف يُكْذَب على الله تعالى في جنة الخلد وقد قال سبحانه: "لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا" (الأية رقم 35 من سورة النبأ) كيف؟! كيف يُتاح في جنّة الخُلد أن يُقسم إبليس بالله كذباً لآدم كي يأكل من الشجرة؟! أليس هذا يناقض ما جاء في الآية الكريمة آنفاً!

إضافةً إلى أن من صفات جنة الخلد أنه لا يوجد فيها خطأ ولا معصية، فكيف يُعصى الله تعالى فيها!؟ قال تعالى: "وعصى آدم ربه فغوى" (الآية رقم 121 من سورة طه) إذن هي ليست جنّة الخُلد، وإنما جنّة على الأرض.

وبرهان آخر في قول الله تعالى مُخاطباً آدم وزوجه وإبليس: "قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (الأية رقم 38 من سورة البقرة) وفي آية أخرى يقول سبحانهُ: "قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" (الأية رقم 24 من سورة الأعراف) وفي آية أخرى قال جل في عُلاه: "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ" (الأية رقم 123 من سورة طه).

الهبوط هو حركة على سطح الأرض، وليس من الجنّة في الأعلى إلى الأرض في الأسفل! بل هي إنتقال من مكان لآخر على سطح الأرض، بدليل قوله تعالى في نبينا موسى عليه السلام: "اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم" (الأية رقم 61 من سورة البقرة) إذن هو إنتقل من مدينة إلى أخرى، من فلسطين إلى مصر! ألم يقل الله سبحانه في نبينا نوح عليه السلام عندما أمره ببناء السفينة في الصحراء: "قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ" (الأية رقم 48 من سورة هود).

إذن الهبوط لا يُقصد به من جنة السماء إلى الأرض، وإنما إنتقال من مكان لآخر على سطح الأرض.

وهناك معنى خطير في قوله تعالى على لسان إبليس: "قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى" (الأية رقم 120 من سورة طه) تعبيره في الآية الكريمة بعِبارة "شجرة الخلد وملك لا يبلى" يَضْوِي في عقلي فكرة، وهي أن الجنة التي كان يرتع فيها آدم يعُمُّها الفناء والموت! فقوله "شجرة الخلد" يعني أنه كان يرى الموت فيها، وكان يشاهد طي أعمار المخلوقات فيها! وأما قوله "ملك لا يبلى" يدُل على تبدل الحال والمآل، وهذا يؤكد على أنها جنة أرضية كان يأكلها الموت ويبلع من فيها.

وفي موضع آخر قال سبحانهُ على لسان هذا الملعون أيضاً: "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين" (الأية رقم 20 من سورة الأعراف) عندما نطق إبليس بكلمة "خالدين" في هذه الآية أثناء حواره مع آدم، أكّد لي أن آدم كان يعرف الموت، وكان يراه بعينه، لأن نقيض الخلود هو الفناء والإنتهاء، وهذا يعني أنه كان في مجموعة من جنسه، أو ضمن كائنات معينة يرى الموت فيها! لذلك قال له إبليس "بتعبيري العامّي": "إذا أكلت أنت وزوجك من هذه الشجرة فإنكما لن تموتا، وستصبحان من الخالدين"، وفي جنّة الخُلد لا مكان للموت!!

ودليلي الآخر هو في قوله تعالى: "وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" (الأية رقم 20 من سورة ص).

إنتبه يا عزيزي لقوله تعالى: "وأورثنا الأرض"، ولقوله سبحانه: "نتبوأ من الجنة"، إذن جنة الخلد ستكون على الأرض، وليست في السماء! حيث سيعاد بناء الكون مرّة أخرى على أنقاض هذا العالم، حينما تفجّر البحار، وتنتثر الكوكب، وتنشق السماء، وتتبعثر القبور، وتبدّل الأرض غير الأرض، ويطوي الله تعالى السماء بيمينه، كلها علامات تومئ إلى إنتهاء هذا الكون، وولادة عالم جديد.

قال تعالى: "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهّار" (الأية رقم 48 من سورة إبراهيم) وقوله تعالى: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين" (الأية رقم 104 من سورة الأنبياء).

إن الواضح من هذه الآيات أن هذا الوجود بما فيه السماوات وما فيها، والأرضين وما فيها سيأتي يوم لكيّها وطيّها، وإعادة بناء كون جديد مرّة أخرى على فتات هذا العالم، وستكون لبنة البناء هي من ذرّة أزلية غير قابلة للفناء، لأن العالم الجديد والمقبلين عليه هو"الجنة، والنار"، وهذا يتطلّب إعدام هذا الوجود بما فيه الإنسان لتشييد آخر يكون قائماً للأبد، وموت الإنسان هو من مشمولات هذه العمليّة، لإعادة خلقه هو الآخر مرّة أخرى على نحوٍ أبدي يتكيف فيه مع العالم الجديد "الجنة والنار" والذي سيبعث فيه ويخلّد فيه.

هناك بشر قبل آدم

عندما قرّر الله سبحانه وتعالى خلق أبونا آدم عليه السّلام، وبعد أن فرغ من تصميمه، كانت هناك حضرة إلهيّة خاصّة به سبحانه، يجتمع فيها مع أقرب وأطهر المخلوقات إليه، ألا وهم "الملائكة وإبليس"، وبالمناسبة "إبليس" لم يكن ملكاً كما يعتقد البعض، لقوله تعالى: "إلّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه" (الأية رقم 50 من سورة الكهف) إذن، إبليس كان من الجن، ولكنّه كان من الصالحين العابدين، ومن المقرّبين ذو رتبة عالية وسامية تُمكنه من حضور هذه الحضرة الملكوتيّة الإجلاليّة العظيمة لله تبارك وتعالى بجانب الملائكة.

عقد الله سبحانهُ هذا المجلس المُعظّم، والذي لا يعلم مكانه إلّا هو سبحانهُ، ودعا إليه المقربين والمطهّرين من خلقه لينبأهم بأمر عظيم، ألا وهو تنصيب خليفة في الأرض، فقال تعالى: "إني جاعل في الأرض خليفة" (الأية رقم 30 من سورة البقرة) فكانت ردّة فعل الملائكة أنّها إستهجنت أن الله تعالى جعل آدم الخليفة، وإستفظعت ذلك متسائلة: "أتجعل

فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء" (الأية رقم 30 من سورة البقرة) وهنا يعترضنا سؤال: كيف وَضَحَ لهم عليهم السلام أنّ آدم سيفسد في الأرض ويسفك الدماء ولم تطأ بعد قدمه بساط هذا الكوكب؟!

إستفسرت الملائكة عن أبونا آدم عندما عُرِض عليهم من قبل الله تعالى، ولكنها إستعجبت من قراره سبحانهُ عندما قلّد أبونا منصب "الخليفة" على الأرض وولّاهُ عليها، وهذا الإستفهام هو الذي جعل فكرة أن هناك بشراً قبل آدم تنقدح في ذهني!

يبدوا أن الصّورة التي رُكِّب فيها أبونا آدم، من الممكن أنّها كانت تشبه بشراً قبله كانوا يتخبّطون في صحن الأرض! لذلك كان إستهجانها وإستفهامها عندما قالت: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" (الأية رقم 30 من سورة البقرة).

توصيف الملائكة لفعل آدم في الآية عندما قالت "ويسفك الدماء" أكّد لي أن هناك بشراً قبله إستوطنوا الأرض! لأن الدّماء مفهوم انساني، ولا يوجد دماء في تركيب الجن أو الملائكة! إذن هي تتحدث عن بشر يشبه آدم هيكلاً وهيئةً وخِلقةً، وكان مسبوقاً في الأرض.

وليس كما لُقِّنّا قديماً في المدارس والجامعات وفي كتب الأثر أن الجن عاشوا قديماً لقرابة ألفي عام على الأرض، ثم أفسدوا فيها وقتّلوا بعضهم! وليس أيضاً ما قيل لنا من خطب ودروس في المساجد أن الله كشف الغيب لهم ليشاهدوا مستقبل النوع الإنساني! وليس أيضا ما خُط من روايات حاولت الإقتراب من معنى هذه الآية، كما جاء في رواية "الحن والبن" هذه المخلوقات العجيبة والغريبة! وليس أيضا ما أخبرتني به إحدى النساء التي كانت تحمل شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية أن المقصود هم "الديناصورات"! أو حتى غيرها من الحيوانات أو المخلوقات أو المسوخ! بل هي تتحدّث عن بشر مماثلين لآدم في الصورة والبناء، لأن إستفهامها وسؤالها كان مباشرة بعد أن عَرَض الله سبحانهُ آدم عليهم شكلاً، فقارنته هي بدورها بمن يشبهه الآن على الأرض.

إن الملائكة لا تعلم الغيب ولم يُكشف لها، وإنما هي في الحقيقة شاهدت مخلوقاً بشريّاً قريباً في الصّورة من أبونا آدم في الأرض، يصدُر منه فعلين، الأول هو الإفساد، والثاني هو سفك الدماء.

ولكيلا أُفهم خطأ، أنا لست من أنصار التطور، ولا من أتباع عالم الأحياء الشهير (تشارلز داروين) الذي تحدث في كتابه "أصل الأنواع" عن إنحدار الإنسان ومراحل تطوره، وسأكون مُنصفاً وحياديّاً بحقه، فهو لم يقل أن أصل الإنسان قرد كما نُقل لنا عنه من العامةّ والخاصّة، وإنما قال أن الإنسان والقردة جاؤوا من سلف مشترك.

أنا أعارض تماما ما جاء في هذه النظرية، ولا أوافق قول بعض العلماء الغرب والعرب بأن هناك أشباه بشر فيما يعرف "بالأوستروبيثيكوس Australopithecus" أو "الإنسان البدائي Homo Neanderthalensis"، وأن مجموعتنا والمسماة "بالإنسان العاقل Homo SapiensSapiens" قد إنشقت من هذا الجنس، أو إنحدرت منه، أو حصل تزاوج معهم! ولا أريد أن أخوض في هذا المبحث الآن، فهو يحتاج إلى كتاب آخر أتحدّث فيه عن نظرية التطور"Theory of Evolution" لدحضها علميّاً وتنكيس رايتها، ولكني سأتطرّق لها سطحيّاً في الفقرة اللّاحقة لتوضيح بعض الإشكالات.

أعود، قال تعالى: "إني جاعل في الارض خليفة" (الأية رقم 30 من سورة البقرة) هذا يعني أن آدم كان موجوداً! ولكن الجديد في الأمر هو أن الله "جاعلهُ"، بمعنى "سيجعلهُ" خليفة في الأرض، ودليلي على ذلك قوله تعالى لنبيّنا إبراهيم عليه السلام: "إني جاعلك للناس إماما" (الأية رقم 142 من سورة البقرة) هذا يعني أن إبراهيم كان موجوداً، ولكنه لم يكن إماما بعدُ!

إذن، آدم كان له وجود قبل أن يكون الخليفة، ثم جعله الله خليفة، ولكن قبل ذلك ومن وقت بعيد لم يكن له وللبشر أي وجود، فقال تعالى: "إني خالق بشرا من طين" (الأية رقم 71 من سورة ص).

آدم نهاية سلسلة من الأطوار

في كتاب "حوار مع صديقي الملحد" للدكتور المصري الراحل (مصطفى محمود) رحمه الله، ذكر فيه أن القرآن يصف مراحل خلق الانسان على فترات وأطوار في زمن إلهي ممتد، كما أنّهُ أنكر فيه أن آدم "الإنسان" خُلق من الطين مباشرة، وإنما من سلالة من طين، مستشهداً بقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" (الآية رقم 12 من سورة المؤمنين) وقوله تعالى: "مالكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا" (الآية رقم 13و14 من سورة نوح) وتم توضيح هذه الأطوار في مواضع أخرى في الكتاب في قوله تعالى: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" (الآية رقم 7 إلى 9 من سورة السجدة).

يقول د. مصطفى محمود أن البداية كانت من الطين، ثم جائت سلالة من ماء مهين، ثم سوّاهُ "التسوية"، ثم صوّرهُ "التصوير"، ثم نفخ "الروح" فيه، فأصبح للإنسان سمع وبصر وفؤاد "وهي سلالة آدم"، ولقد حدث هذا في زمن إلهي يقتضي ملايين السنين، فقال تعالى: "وإن يوم عند ربك كألف سنة مما تعدون" (الآية رقم 47 من سورة الحج).

وخلاصة ما خرج به د. مصطفى هو أن آدم نهاية سلسلة من الأطور فصّل القرآن في ذكرها، ولم يكن بدءاً مطلقا من العدم على الطريقة التي يصفها الملاحدة، أو من الطين مباشرة على الطريقة التي يصفها المتديّنون والإسلاميّون.

يستدل د. مصطفى في قوله تعالى: "والله أنبتكم من الأرض نباتا" (الآية رقم 17 من سورة نوح) أن عملية الإنبات تعني وجود زمن وعدّة أطوار ومراحل تسبق خلق الإنسان بشكله النهائي، فالخلق لم يكن على مرّة واحدة، وإنما إنتقل فيه الإنسان من العدم إلى الوجود، فقال تعالى: "هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا" (الآية رقم 1 من سورة الإنسان).

وقد سُأِل د. مصطفى مرّة في إحدى مقابلاته من قِبل إحدى المضطّلعين: ماذا كانت تلك المراحل والأطوار بالضبط؟ هل كل شجرة الحياة جائت من أب واحد؟ وهل جاء من الطين خلية واحدة أولى تعددت وأنجبت كل تلك الأنواع والفصائل الحيوانية والنباتية بما فيها الإنسان؟ أم أن هناك بدايات متعددة؟ فالنباتات لها بدايتها الخاصة، والحيوانات والإنسان كذلك الأمر، كلٌّ له جذرهُ الخاص، وأصل منوط به؟ ولا أعلم صِدقاً ماذا أجاب، ولكني سأجيب من وجهة نظري التواضعة، وهي أن لكل مخلوق جذره الخاص به، فبداية البشر من طين، والجن من نار، والملائكة من نور.

لقد تحدّث عالم الأحياء التطوري (تشارلز دارون) في كتبه أن بنية الكائنات الحيّة كلها متشابهة، وهذا ما جعله يصدع بالتطور، لكن تشابه بنية الكائنات الحيّة في نظري تدل على أن الخالق واحد وهو (الله تبارك وتعالى) كما أنها تبيّن لنا أن خطته وأسلوبه في الخلق هو واحد.

وإذا كانت نظرية التطور تفسر أن "البقاء للأقوى"، فهي لا تفسر "البقاء للأجمل"، فهذا النقش الجميل في جناحي "الكناري" لا يمثل أي كفائة! ولون شعر "الهسكي" الرّهيب لا يمثل أي فعاليّة! جُلّها عبارة عن فن ورسم، وكأن هناك يداً قامت بنحتها ورسمها وصبغها وتلوينها، وإذا دخل الجمال في التفضيل فستنهار نظرية التطور، وستبقى عاجزة عن إجابة أهم الأسئلة وهو: لماذا خرج من الوعل القوي حيوان أرق وأقل منه قوّة كالغزال!؟

إنّ من جملة الأسئلة التي ستقطع عنق التطور هو: كيف تفسر نظرية التطور ريشة الطاووس؟ عندما تشاهد هذا الطير وهو ينفش ريشه العجيب والغريب والرهيب، وكأنك أمام يد رسام وفنان وبديع يتفنن ويُبدع الأشياء! ولسنا أمام صدف وطفرات وعشوائيات وصراع على البقاء.

وكل ما هو حولك يؤكد وجود خطة مسبقة، وليس صدفة عشوائية، فلا يمكن رمي حروف مقطعة في الهواء لتشكل وحدها قصيدة لشكسبير!!

إن الضربة القاضية لداروين وللتطور ومجتمعه وعلمائه وأنصاره، أن العلماء إكتشفوا حديثاً أن لكل حيوان خريطة جينية خاصة به، ويستحيل أن يخرج نوع من نوع بسبب هذه الخريطة، والخط العام للإنسان الذي تطورت فيه أفكاره ومفاهيمه من الإنسان البدائي إلى العالم والفيزيائي يعلمه الله تعالى، لذلك قال تعالى: "إني أعلم مالا تعلمون" (الآية رقم 30 من سورة البقرة).

صياغة البشر من جديد حدث فيها أربعة إستثناءات ومراحل وقفزات لكي يكون آدم الخليفة

حسب مطالعتي لكتاب الله الكريم، وقفت على أنّ آدم مرّ بأربعة قفزات، وهي كالآتي:

القفزة الأولى- يد الله عجنة طينة آدم

عندما أمر الله تعالى الملائكة وإبليس بالسجود لآدم، لبُّوا جميعاً إلا إبليس، فقال تعالى: "قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ" (الأية رقم 75 من سورة ص) تعبير الله تعالى في الآية عندما قال "لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ"، يدل على أنّه سبحانه إنفرد بذاته في عجن طينة أبونا آدم، فقال تعالى: "إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ" (الأية رقم 71 من سورة ص) لذلك يُفهم منها أن الله تعالى إنفرد بيده الشّريفة برسمه ونحته وصناعته، فلقد كان بإستطاعته جل في علاه أن يأمر الطين لفظيّاً أن يتشكّل ويتخلّق ليصبح إنساناً! ولكنّه تعالى تفرّد بذاته العظيمة وبيده الشريفة لعجن وتخليق طينة أبونا آدم.

القفزة الثانية- تسوية آدم

أثناء خلق الله تعالى لهيكل أبونا آدم من الطّين مرّ بمراحل، الأولى "الطين"، فقال تعالى: "إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ" (الأية رقم 71 من سورة ص) والطين هو الماء الممزوج بالتراب.

والمرحلة الثانية "طين لازب"، فقال تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ" (الأية رقم 11 من سورة الصافات) والطين الّلازب هو الّلزج الملتصق.

والمرحلة الثالثة "الحمئيّة"، فقال تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ" (الأية رقم 26 من سورة الحجر) والحمأ هو الطين المتغير من حال إلى حال، المتغيّر إلى صورة آدمي، قال البغوي في تفسير ذلك: "إنّ الله تعالى خمر طينة آدم، وتركه حتى صار متغير أسود، ثم خلق منه آدم عليه السلام".

والمرحلة الرابعة "الصّلصاليّة"، فقال تعالى: "خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ" (الأية رقم 14 من سورة الرحمن) في هذه المرحلة يصبح الطين فيها يابساً جافاً من دون أن تمسه النار، حتى إذا طرقته خرج له صوتاً كصوت الفخار.

والمرحلة الخامسة هي القفزة الثانية "التّسوية"، وهنا كان التمييز الأوّل بين آدم ومن سبقوه، فقال تعالى: "فإذا سوّيته" (الأية رقم 29 من سورة الحجر) أي جعلته جميل الهيئة وكامل الخِلقة ومستوي ومنتصب القامة، فهناك كائنات خلقها الله تمشي على أربع، وهناك من يزحف على بطنه، ولكن الإنسان هو من المخلوقات المنتصبة المستوية التي تمشي على إثنتين، وهنا الحكمة أنّه تعالى أطلق يدي أبونا آدم لكي يستطيع قيادة كوكب الأرض، فهو الخليفة والمسؤول عنها، وذلك يقتضي أن تُطلق يداه لكي يبحث ويُنقّب ويقود ويكتب ويكتشف ويصنع ويخترع.

القفزة الثالثة- نفخ الرّوح وأنسنت البشر

تم نقل البشر نقلة نوعية بعد تسويته، هذه النّقلة جعلت من البشر أناسي "تأنسن البشر"، وكان هذا التحوّل والإنقلاب بفِعل نفخة الروح التي نفحها الله في جسد أبونا، فقال تعالى: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"

(الأية رقم 29 من سورة الحجر) وكما ذكرت آنفا أنّ حرف "من" هي بعضيّة وليست جزئيّة، يعني روح من عند الله وليست جزء من الله، والروح هي شيء مقدس عند الله سبحانهُ بثّهُ في آدم، ولا يوجد في مكنون الكائنات الأخرى كما أُفهمنا سابقا، لأن السجود لآدم تم بعد وضع الروح فيه، ولو كانت الروح دبّت في الحيوانات مثلاً، لأسجد الله الملائكة لها، لكنها نفخت فقط في الانسان "آدم"، وليس في البشر والدواب والجن والملائكة، وبسببها إنفطر الإنسان على العبوديّة، وعلى فكرة أنّ هناك خالق وأنّه عبد له، وعلى إثرها زُرع المعنى والأخلاقي والإنساني في جذره.

إختلف العلماء في الروح، فمنهم من قال إنها سر الحياة، ومنهم من قال إنها العقل، ومنهم من قال إنها الفكر والمعرفة، ومنهم من قال إنها الطاقة والوقود المحرك لأجسادنا، وغيرها من محاولة الإقتراب من ماهيّة ومفهوم الروح، وأنا أتساءل: هل سيتوصّل الإنسان في يوم من الأيام إلى معرفة ما هي الروح؟ أو الاقتراب من مفهومها؟ قال تعالى: "ويسألونك عن الروح" (الأية رقم 85 من سورة الإسراء) هل سَيُعلمنا الله العلم الذي نصل به إليها؟

على العموم، يبدوأ أنّ هناك خطّة لآدم كي يكون الخليفة، فلقد جرت لغة حوار جميلة بين الخالق والمخلوق، بين العبد والمعبود، بين الله والملائكة، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على سعة رحمة الله؛ فلقد ناقشت الملائكة ربها، وأجرت مقارنة بين شخصها وبين آدم، فقالت: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" (الأية رقم 30 من سورة البقرة).

بلغتي الحاسوبيّة "كوني أنا متخصص في هندسة الحاسوب" فإن الملائكة هي مخلوقات مبرمجة، لأنهم "لا يَعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون" (الأية رقم 6 من سورة التحريم) ولكن هذه المرّة المسألة مختلفة، لأن آدم مختلف، فهو نسيج من خير وشر، وله القدرة على الإيمان والكفر، وهذه الحريّة هي أحد الأعمدة التي لا تمتلكها الملائكة، والتي بناءً عليها جعل الله تعالى آدم مسؤولاً عن الأرض.

إنه قادر على عمل الخير والشر، وهذا هو الهدف من وجود الشر ورمزه "إبليس"، لكي تُمتحن حريّة الإنسان وإختياراته، ولو لم يكن هناك شر يُلاحقنا لكنّا كالملائكة تماما، ولن يكون هناك فرق بيننا وبينهم، وهذه ليست خطّة الله عز وجل لآدم، فالمسألة ليست تسبيح وتقديس، لأن الملائكة مخلوقة لهذا الغرض أساساً، لكنه جلّ في عُلاه يريد كائن مركب من الفعل ونقيضه، وعليه تم تشييد ساحة لهذا الشر وأنصاره ورمزه "إبليس" للتواجد إلى جانبنا من أجل إمتحان حرّيتنا.

فردّ الله على ملائكته: "إني أعلم ما لا تعلمون" (الأية رقم 30 من سورة البقرة) هناك علم يعلمه الله لا تعلمه ملائكته!

القفزة الرابعة- وعلّم أدم الأسماء كلّها

بعد نفخ الرّوح في أبونا آدم، إصطفاهُ الله بالعلم والمعرفة، فقال سبحانهُ: "وعلّم آدم الأسماء كلها" (الأية رقم 31 من سورة البقرة) وقال تعالى: "الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم" (الأية رقم 4 من سورة العلق) وهنا كانت قفزة أخرى للنّوع الإنساني.

فبعد أن تفرّد الله تعالى بخلقه ومراحل تطويره، ونفخ فيه من روحه، ومنحهُ الحريّة، أهداه الله تعالى ملكة العقل وعلّمهُ، حيث أنبت فيه نظام الكلام والبيان الّلغوي، فكان آدم هو أوّل من نَطق وتكلّم.

أمّا البشر الذين كانوا قبله لم يكن لديهم بيان لغوي، لذلك كانوا أقرب إلى الهمجيّة والبربريّة، وهذه المرحلة لها وجود حقيقي في حياتنا، فالطفل الصغير قبل أن ينطق، يَغْلُب على طابعه الغضب والفظَاظه والحِدّة، وهذا ما لاحظته في ابني "نبيل" الذي لم ينطق لبضع سنوات وتأخر في الكلام، فكان عصبيّاً وحاد المِزاج، لأنّ وعيه كان عالٍ بسبب عدم نُطقه.

كان لا يستطيع أن يعبّر لي عن رغباته وعما يريده منّي، لذلك كانت تتملّكهُ الحِدّة ويثور، ويميل إلى التخريب والعُنف، وبقي على حاله حتى نطق، وعندما تكلّم حدث إنقلاب في شخصيّته! وأصبح هادئ وورومنسي المِزاج ولديه حسّ الفكاهة.

أحد أسباب إنفراد الله تعالى بأبونا آدم بوضع النظام البياني الكلامي واللّغوي فيه وتعليمه، لأنه لا يستطيع أن يعالج أي مسألة إلا عندما يُسمّيها ويُعرّفها، فعادة عند إكتشاف الإنسان لشيء جديد أو جسم غريب فإنه يُسمّيه، وهو يَعمَد إلى ذلك لكي يستطيع التعامل معه، فمثلا، عند إجتياح الوباء عام 2019م، فإنّ أول عمل قام به الإنسان هو أنه قام بتسميته "فيروس كورونا"، لكي يستطيع التعامل معهُ ومعالجته وتفاديه. وعند إختراعه لآله أو دواء مثلا، فإنه يسمّيه قبل أن يستخدمه، لكي يتعامل معه، وبالتالي ليسيطر عليه ويمتلكه.

لذلك قال أحد أشهر علماء الاجتماع العالم الفرنسي (كلود ليفي شتراوس) في كتابه "التفكير الوحشي" أنّ الإنسان بدأ "صائتا"، بمعنى أنّه بدأ "بالصوت" بالمقاطع الصّوتيّة، ولم يكن يعرف تركيب الجمل في البداية، أو المعاني، والسبب في نظري أن البشر كانوا ضمن المملكة الحيوانيّة، ثمّ إنفصلوا عنها بنفخة الرّوح، ثم جاء بعدها تعليمهُ الأسماء كلّها، وهذا يعني أن الله تعالى أنسن البشر فصار إنسانًا، وهذه هي القفزة الكبرى بالإنقلاب الروحي والتي صار البشر على إثرها إنسان، وتميّز عن الحيوان.

إن إبتعاد الإنسان عن المملكة الحيوانية هو من جعل الأخلاق تنبثق وتنبعث، وكلما إقتربنا من المملكة الحيوانية كلما إنعدمت الأخلاق وتجرّد الإنسان منها، فلا يوجد هناك معنى أخلاقي لفهد يقتل غزالًا ويأكله.

إن مشهد الدراما العجيب لخلق أبونا آدم، وتمييزه عما سبقوه من كائنات، والتي كانت بداية عواملها وإطلاقها على يد الله تعالى بخلقه بيديه الشريفتين "إني خالق بشرا من طين"، ومن ثم تسويته وعدله "الذي خلقك فسواك فعدلك"، ومن ثم نفخ الروح في جذرهِ "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي"، ومن ثم إنبات البيان اللغوي في عقله وتعليمه "وعلم آدم الأسماء كلها"، ولكنه مع كل هذا ما زال يفسد ويقتل!! بل إن معظم حياة الانسان هي عبارة عن حروب وتدمير وسفك دماء!!

وهنا يأتي جوابي على هذه المشكلة، وهو أن هذه النشأة مخلوقة للإبتلاء وللإختبار وللإمتحان، فلو لاحظنا أن الإنسان في الإجرام والإفساد يتدلى الى الافق البهيمي، وينزلق الى المرحلة الأولى من الخليقة والتي أشارت إليها الملائكة "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"، ولكن عندما يرتقي يصبح شبيهاً للملائكة ونظيراً لها سلوكيّاً.

في الخليقة الجديدة جاءت الأخلاق والضمير والأنفس، "الأنفس الثلاثة: الأمارة بالسوء، اللوامة، المطمئنة"، والتي مزجت في نفس واحدة، وعليه جاء جهاد النفس بالإرتقاء بها من الامارة بالسوء الى المطمئنة "وهنا الملائكية"، أو الإنزلاق بها من المطمئنة الى الأمارة بالسوء "وهنا الشيطانية"، وهذا هو التنوع الإنساني.

نكمل، أحد مفاهيم "وعلّم آدم الأسماء كلّها" ومسوّغات إستخلافنا للأرض، هو أنّه سبحانهُ علّمه كل ما يلزمهُ من العلوم لكي يكون الخليفة، فلو أمعنّا النظر في قوله سبحانهُ "كلّها" في الآية، والتي تَنْصب في كل الأسماء والمفهومات وتحت جناحها أنواع العلوم، كالكوزمولوجي "علم الكونيات"، والأسترونومي "علم الفلك"، والأنتولوجي "علم الطبيعة"، والأنثروبولوجي "علم الإنسان"، والبيولوجي "علم الأحياء"، والإيرونومي "علم دراسة جو الأرض والكواكب"، والإيكولوجي "علم البيئة"، والميتافيزيق "علم ما وراء الطبيعة"، وغيرها من العلوم والمسمّيات، والتي وضُعت في عقل أبونا آدم عليه السّلام، وكانت في حالة سكون حتّى جاء من حوضِه ومن نسله المخترع والعالم والأديب والمهندس والطبيب والنجار والحداد والطباخ والعامل والبناء " ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ".

إن كل هذه العلوم الجزئيّة والبسيطة والتي وُضعت في عقل أبونا آدم كانت من أصل المعلومة ألا وهو الله تبارك وتعالى، فهو سبحانهُ صاحب العقل المطلق السّرمدي، ومالك العلم الأبدي الأزلي.

ولتعلم يا عزيزي أن لكل عِلم مُعلّم، هناك أستاذ لكل طالب علم في هذه الحياة، سواء كان يتلقى العلوم الأكادميّة والعلميّة، أو المهنيّة والحرفيّة، فحتماً هناك من علّمهُ ليتخرّج من تلك المدرسة والجامعة، وأنت أيها الإنسان المُتكبّر والمُتعجرف، هناك من علّمك! هناك من فهّمك! إنّه الله سبحانهُ، هو بنفسه بذاته بجلاله من أشرف على ذلك، ثم تأتي بكل صفاقة ووقاحة لتتكبّر على من علّمك وفهّمك وكبّرك ورزقك ومن يحميك ويشفيك!؟ ثم بعد كل هذا تعصيه وتخالف أوامره!؟ ثم بعد كل هذا تنساه وتلحد به وتكفر به!؟ تبّا لنا!! تبّا لنا ولعلمنا إن لم يكن لله وفي سبيل الله وفي مرضاة الله، ولكي نصل به إلى الله، ونتعرّف عليه، قال تعالى: "إنّما يخشى الله من عباده العلماء" (الأية رقم 28 من سورة فاطر).

نُكمل، "ثم عرضهم على الملائكة" (الأية رقم 31 من سورة البقرة) أي عرض هذه الأسماء والعلوم التي لقّنها لآدم على الملائكة، وقال لهم: "أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين" (الأية رقم 31 من سورة البقرة) أي أخبروني بأسماء هذه العلوم ومسمياتها إن كنتم أحق بالخلافة منه على الأرض؟!

لكن الملائكة عجزت، لأن العلم الذي لديها مبرمج ومحدود، فقالت: "سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم" (الأية رقم 32 من سورة البقرة) أي: يا ربنا، إنّا نجهلها، وإنك لم تُعلّمنا إياها؟!

فطلب سبحانهُ من آدم المِثل: "قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ" (الأية رقم 33 من سورة البقرة) فما كان من آدم إلا أنه سمّى للملائكة كل شيء بإسمه، وذكر حكمته التي خُلق لها.

ثم وجّه سبحانهُ خطابهُ للملائكة قائلاً: "قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ" (الأية رقم 33 من سورة البقرة) وكأنه سبحانهُ يقول للملائكة بتعبيري: "ألم أخبركم أني أعلم أن آدم هو الأحق بالخلافة منكم وهو ما أظهرتموه"، أما عن قوله تعالى: "وما كنتم تكتمون"، لأنه جاء عن الملائكة في الأثر أنها قالت: "لن يخلق الله مخلوقا أكرم منّا عليه"، لقد كانت مُفاضلة الملائكة بدافع حبها لله تبارك وتعالى.

نُكمل، قال تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (الأية رقم 34 من سورة البقرة) يا الله! إلى هذه الدّرجة يُحبّنا رب العالمين! يبدوا أنّنا لم نفهم الله! لقد أمر سبحانهُ أطهر خَلقه وأكرمهم وأحبهم إليه "الملائكة وإبليس" أن يسجدوا لآدم! أن يسجدوا لنا! فامتثلوا لأمر الله تعالى وسجدوا لآدم، سجدت لمحبوب الله، سجدت لي ولك! فإنظر يا عزيزي كم قدرك عند الله، فكم قدر الله عندك؟

إبليس وحده من أبى، واستكبر وامتنع عن السجود، وكانت هذه أوّل معصية في الوجود، التكبّر يا أصحاب المقامات والمناصب! يا أصحاب الكراسي والمعالي! يا زعماء ويا مسؤولين! التكبّر هي أوّل معصية في وجه الله تعالى.

ولقد جرى في هذه الجزئيّة حوار جميل ولا أروع بين الله سبحانهُ، وبين عبده المُتكبّر والعاصي إبليس، فقال تعالى: "قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ" (الأية رقم 75 من سورة ص) سأله الله وهو أعلمُ بما يُحيك في صدره ويثور في عقله، ولكنّه تعالى يريد أن يضع الحُجّة عليه، وكأنه سبحانهُ بتعبيري يقول: لماذا لا تريد أن تسجد لهذا المخلوق الذي شرّفته وكرّمته وإخْتَصَصتهُ بهذه الخِصيّصة عن سائر الخلق؟

ويستوضح الله تعالى منه: "أَستَكبَرتَ أَم كنتَ منَ العالينَ "(الأية رقم 75 من سورة ص) يا إبليس "أستكبرت"، أهو الكِبرعلى آدم من ناحية الخلقيّة والمصنوعيّة، لأنه من تراب وأنت من نار، وخصائص النار أفضل؟ "أم كنت من العالين"، أم أنّهُ العُلو يا إبليس لأنّك عبد مُقرب مني، وذا رتبة عالية وسامية تستطيع من خلالها حضور مجلسنا هذا؟

ليجيب إبليس مبيّناً رفضهُ للسجود قائلاً: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" (الآية رقم 12 من سورة الأعراف) إنّهُ الكِبر! التكبّر!

فوبّخهُ الله تعالى قائلا: "قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ" (الأية رقم 13 من سورة الأعراف) صدر القرار بهبوطه وحرمانه من حضور هذه الجلسات المُقدّسة، وكأن الله تعالى أزال عنه هذه الرّتبة وصغّره لأقل منها، لأنه تكبر على من خلقه وأمر.

وبالمُناسبة، لقد أُهبط إبليس هبوطين، الأول وهو هذه المرّة عندما أزال الله عنه هذه الرُّتبه فأصبح ذا شأن صغير، ولا يستطيع أن يَحضُر حضرات الملأ الأعلى " فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ "، ولكنّهُ ما زال في الجنّة "وهذه الجنّة ليست جنّة الخلد كما أسلفت سابقا، وإنما الخشبة التي رويت عليها هذه القصّة.

والهبوط الثاني عندما أغوى أبوينا فأكلا من الشجرة، فقال الله عز وجل: "اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا" (الأية رقم 38 من سورة البقرة) إذن، هذا هو الهبوط الثاني لإبليس من الجنّة "مكان الحدث والقصّة" إلى آخر على الأرض.

وهنا تَتَعَالى وتَتَجلّى حكمة الله كما أسلفت، بجعل هذا الملعون على الأرض إلى جانب آدم، لامتحان حريته وقرارته.

نُكمل- قال تعالى: "وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" (الأية رقم 38 من سورة البقرة) أطلقهُ الله لفعل ما يشاء، وأكل ما يريد، ولكن حذّره من أمر واحد، وهو الإقتراب من شجرة! هذه الشجرة التي اختلف فيها العلماء، هي في تحليلي "الحرام"، أعتقد أن الله تعالى جسّد "الحرام" على هيئة هذه الشّجرة، تماماً كما سيحدث في يوم الدين عندما سيجسّد الله تعالى الموت بعجل سمين ليذبح، ويُقال: "يا أهل الجنة خلود فيها، ويا أهل النار خلود فيها"، لذلك لا يَهُم ما ثَمَرها أو ما نوعها، المهم أنّها "حرام".

أنذر الله تعالى آدم وحذّرهُ من إبليس، لأنّه سبحانهُ يعلم نواياه وقلبه المليء بالحقد والكره والغِيره إتجاه أبونا آدم، فقال تعالى: "فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ" (الأية رقم 117 من سورة ص) بيّن الله تعالى لآدم أن إبليس هو عدوّهُ، ووعظهُ بالحذر منه، لأنّهُ يعلم أنه سيكون السبب في خروجه من النعيم للشّقاء.

ثم قال تعالى: "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ" (الأية رقم 20 من سورة الأعراف) وسوس لهما هذا الملعون، فقال له ولزوجه "بتعبيري": إن سبب منع الله تعالى لكما لكيلا تأكلا من هذه الشجرة هو أنكم إذا أكلتم منها ستَتَحوّلان إلى ملكين، أو سَتحُولا من الخالدين ولن يفترسكم الموت؛ "وقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ" (الأية رقم 21 من سورة الأعراف) لقد حلف إبليس بالله كذبا على ذلك! فأكلا منها.

ثم قال تعالى: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" (الأية رقم 36 من سورة البقرة) سبّب لهما إبليس ما يزلّان من أجله في دينهما، فهفا آدم وأخطأ، ونال منهما إبليس، وأوقعهما في الخطيئة التي كانت العِلّة بإخراجهما من الجنة.

تنبيه، يَظْهَر لنا من سياق الآيات أن المخاطب هو آدم، فهو الذي ناداهُ الله، وهو الذي حذّرهُ بأن لا يستمع لإبليس، وهو الذي أكل من الشجرة، وهو الذي وقع في الذنب، وزوجه "حوّاء" ليست لها أي عُروة بما جرى، لأنها كانت تَبَعاً له.

نقف هنا....

الخطيئة ليست هي السبب المباشر في إخراج أبونا آدم من الجنة، لماذا؟ لأن الله يعلم مُسبقا أنّ آدم سوف يُخطِأ، وأنّه سيأكل من هذه الشّجرة، ومع ذلك أراد له سبحانهُ من البداية أن يكون الخليفة! إذن المسألة ليست عقاب.

آدم صاحب القلب الطّفولي الطّاهر بلا ذنب، وبسذاجة الطفل البرىء لم يكن يَعلَم أنّهُ يوجد من سَيقسم بالله كذباً! ولكنّه في الوقت ذاته هو صاحب ملكة العقل والفكر والحريّة، وعلى إبّانها تَعرّض لأول إختبار يخُصّ النوع الإنساني بعد الخلق رأساً، وبعد أن علّمهُ الله وأطلقهُ حُرّ التصرّف.

وهذا الإمتحان هو الشجرة التي جسّد الله الحرام بها، وأتاح للشر أن يكون له حضور على يد ابليس، وعلى النقيض فقد علّم الله آدم، وبيّن له الصراط المستقيم، وحذّره من إبليس، وتركه حرّ التصرّف، لامتحان الحريّة المتمثّلة بالخيريّة والشريّة المركبة فيه.

الله عز وجل كان يُراقب محبوبهُ، وكان يَعلَم سبحانهُ أنه سيأكل من الحرام، لكن ما أرادهُ الله تعالى من وجهة نظري هو أن يتّخذ آدم أوّل قرار حُرّ في حياته بدون تدخّل إلهي، وبناءً عليه سيكون حُكم الله لآدم هو الهبوط على الأرض ليكون الخليفة، وهذا يعني أن آدم سواء أكل من الشجرة، أم لم يأكل منها، أي كان إختيارهُ فمصيرهُ على كل الحالات أنه سيُهوى به على الأرض ليكون الخليفة، فلقد خُلق مِنها ولها ومن أجلها.

إنني أعتقد أن أبونا آدم بعد إتخاذه القرار سواء بالصّواب أو بالخطأ، سيكون بكامل جاهزيّته ليقود الأرض، فهو بتلك القفزات الأربعة سيكون قادراً على إتخاذ قرارته بدون إنضمام الإله إليه مباشرة، وبالتّالي يستطيع إدارة هذا الكوكب الأزرق، فأخطأ الخطيئة التى أخرجته وأخرجتنا من عالم الطّهراة والبراءة، إلى عالم الإمتحان والإختبار بين الخطأ والصواب والذنوب والإستغفار، بمعنى آخر هو أقصانا إلى عالم الحريّة، إلى عالم المعنى وضدّ المعنى، إلى عالم الخير الممزوج مع الشّر، لكي تصل بعد إنصهارك مع نفسك وصراع الخير والشر على ساحة جسدك إلى الله تبارك وتعالى، "لكي تَنتَهي إلى لا إله إلا الله محمد رسول الله بإختيارك وإنتخاب عقلك وإيمان قلبك وتوجيه روحك".

لقد كانت القضيّة من الفاتحة هو أنّ الله لا يريد أن يجبر محبوبه على عبادته، لأنه يريدك أن تأتيه حبّاً، فهو يحبّنا، ولهذا تركنا أحراراً، لكي نبحث عنه ونصل إليه ونتعرّف عليه، وهذا هو خلاصة مُراد الله تعالى مِنّا! أعمالنا وعباداتنا لا تزيد الله شيئاً، وهو بغنى عنها وعنّا، لأنهُ سبحانهُ يريدنا نحن! هو يريدك أنت...

وأحد المعاني في مسألة الهبوط، وأن هذه الأطروحة ليست عقوبة كما عُلّمنا وفَهُمنا سابقا، هو أن الله تعالى علّم آدم أن يستغفر عُقبها ليتوب عليه مباشرة، قال تعالى: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (الأية رقم 37 من سورة البقرة) لقد غفر الله له ذنبه، لأنّه كان كالطفل الصّغير لا يعرف كيف يعتذر عن الخطأ! ومن وقتها عرفت البشريّة لأول مرة معنى الإعتذار، وهو فى التعبير الدِّيني "توبة"، والدُّنيوي "إعتذار"، فعلّم الله محبوبه آدم كيف يتوب ويعتذر له سبحانه، وتاب عليه.

إذن، الموضوع أبدا لم يكن الخطيئة، بل كانت جاهزيّة آدم عليه السلام لخلافة وعمارة الأرض، فهل كنتم أهلا للخلافة؟ هل كنتم أهلا للعمارة؟ هل كنتم أهلا للعبادة؟ هل كنتم أهلا للرّسالة؟

الدين واحد، فلم أخذتوه وصنعتوه أديانا

هناك كم كبير من اللغط والجهل الغير طبيعي المنتشر عند الناس عامة والمسلمين خاصّة، وهذا الإشكال يتعلق في مسألة الأديان، فحسب إطلاعي وبحثي إنتهيت إلى أنّ دين النوع الإنساني واحد، وهو الإسلام الذي إرتضاه الله تبارك وتعالى من آدم عليه السلام الى محمد ﷺ، الدين واحد، فلم أخذتوه وصنعتوه وحوّلتوه أديانا؟!

قال تعالى: "قولوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (الأية رقم 136 من سورة البقرة) تبيّن الآية أن دين الله تعالى الذي أنزله على أنبيائه ورسله واحد وهو الإسلام، فلم جعلتموه أدياناً؟!

لم يرد في تضاعيف مصحفنا الكريم من سورة البقرة إلى سورة الناس "114 سورة، 2236 آية، 77437كلمة" أن جائت فيها كلمة "أديان" بصفة الجمع، بل وردت بصفة المفرد "دين".

مرّت كلمة "دين" في كتابنا "مفردة" يا أهل القرآن والكتاب والتنزيل الحكيم، ولم تأتي بالجمع، كما إنها لم تأتي مقرونة بالمسيحية أو باليهودية، وإنما بالإسلام فقط، لذلك قال تعالى في سورة المائدة: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ" (الأية رقم 48 من سورة المائدة).

إفتحوا أبواب غرف أدمغتكم، لأني سأدلف الآن إلى طابور الأنبياء جميعاً، وستعلمون الحقيقة التي هي أمام أعينكم ولكنّكم لا تبصرون، وإن أبصرتم لا تعقلون.

ماذا قال نوح عليه السلام لقومه عندما أعرضوا عن دعوته وتولّوا، قال: "فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (الآية رقم 72 من سور يونس) هذا يعني أن نوح كان مسلماً!

ماذا قال الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام: "إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" (الآية رقم 131 من سورة البقرة) يخبرنا الله تعالى بكل وضوح أن إبراهيم كان مسلماً!

وقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالإسلام في هذه الآية، فقال: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (الآية رقم 67 في سورة آل عمران).

ثم دعا إبراهيم عليه السلام ربّه قائلاً: "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (الآية رقم 128 في سورة يونس) الآية تُلوّح صراحة إلى أن ذرية إبراهيم كانوا مسلمين على دين أبيهم إبراهيم!

ليس هذا فحسب، بل في مكان آخر في كتابنا الكريم يوصي كلّ من إبراهيم عليه السلام ويعقوب عليه السلام ابنائهم أن يكونوا مسلمين، فقال تعالى: "وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" (الآية رقم 132 من سورة البقرة) بائن في سياق الآية أن إبراهيم وابنائه ويعقوب وابنائه كانوا مسلمين!

نبينا يعقوب عليه السلام عند قدوم الموت له وإحتضاره، يجمع بنيه ويأخذ العهد عليهم أن يكونوا مسلمين، قال تعالى:" أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون" (الآية رقم 133 من سورة البقرة) جليّ في قوله تعالى أن يعقوب وبنيه، وإبراهيم وبنيه، وإسماعيل، وإسحاق، كانوا جميعهم مسلمين!

كما أن سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما السلام كان مسلماً، قال تعالى: "توفني مسلما وألحقني بالصّالحين" (الآية رقم 101 من سورة يوسف).

موسى عليه السلام يخاطب قومه قائلا: "وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ" (الآية رقم 80 من سورة يونس) تومئ الآية أن موسى وقومه كانوا مسلمين!

ماذا قال سليمان عليه السلام في مجلسه عندما طلب من خاصّته أن يأتوه بعرش بلقيس: "قال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين" (الآية رقم 38 من سورة النمل) هذا يدل على أنّ نبيّنا سليمان كان مسلماً! بل إن قومه وكل من كان معه من إنس وجن كانوا أيضاً مسلمين!

بلقيس ملكة سبأ ماذا قالت لحاشيتها: "وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الآية رقم 40 من سورة النمل) هنا تبيان من خطابها أنّ سليمان كان مسلماً، وأنها أسلمت إلى جانبه هي الأخرى!

عيسى عليه السلام لمّا شعر ولمس الكفر في قومه ماذا قال: "فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (الأية رقم 52 في سورة ال عمران) تؤكّد الآية على أن الحواريون كانوا مُسْلِمُونَ على دين نبيهم عيسى "المسيح" الذي كان مسلماً من قَبلهم!

الحواريون في آية أخرى ماذا قالوا لنبي الله عيسى "المسيح": "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ" (الآية رقم 111 من سورة المائدة) في هذا الموضع تم حسم المسألة، فعيسى لم يكن إلاّ مسلماً! والحواريون كانوا على دينه مسلمين! والحواريّون هم تلامذة عيسى، وكانوا إثنى عشر شخصاً من بني إسرائيل، ومنهم (بطرس ويوحنا ومتّى وتوما وأندرياس وفيلوبس) كانوا جميعهم مسلمين، والرّسل والأنبياء قاطبة حتى الذين هم من بني إسرائيل، كانوا مسلمين على تشريع موسى وعيسى عليهما السلام.

لقد أكمل الله تعالى هذا الدّين، وأتمّهُ في حبيبي وقرّة عيني محمد ﷺ: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (الأية رقم 3 من سورة المائدة) إكتمل دين الإسلام الذي إرتضاه الله سبحانهُ للنوع الإنساني من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

بل إنّ الله تعالى ختم النّص لدينه الواحد "الإسلام" بآيتين:

الأولى- قال تعالى: "إنّ الدّين عند الله الإسلام" (الآية رقم 19 من سورة ال عمران).

والثانية- قال تعالى: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ" (الآية رقم 85 من سورة ال عمران).

ثم بيّن وأوصى سبحانهُ النوع الإنساني أنّ مِلّتهم هي مِلّة واحدة، فقال تعالى: "إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" (الآية رقم 92 من سورة الأنبياء) وتعني أن ديننا واحد وهو الإسلام، وأن ربنا ومعبودنا واحد وهو الله.

وهذا هو الطبيعي الذي يطمئن له القلب، والحقيقي الذي يتأمّله العقل، أن الله تعالى واحد، فقطعاً سيكون دينه واحد! ولو كان هناك أكثر من رب لكان هناك أكثر من دين، حيث سيصبح لكل رب دينه الخاص الذي سينازع به الآخر!

إنّ اللّغط والإشكال الذي وقع فيه الأغلبيّة، هو أنهم لا يميزون بين الدين والشرائع، فما أُنزل على الرّسل والأنبياء هي شرائع وليست أديان، شريعته التي تتناسب مع قومه في ذلك العصر.

كل الرسل والأنبياء نُشروا على كلمة الإسلام، ولكن بتشريعات مختلفة تتناسب مع زمانهم، وهنا يجب أن أبيّن الفارق بين الرسول والنبي، فالرسول يبعث بتشريع جديد، وبرسالة جديدة، ولكن ليس بدين جديد، أما النبي هو الذي يدعوا إلى عبادة الله تعالى على تشريع الرسول الذي كان في زمانه، فقال الله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ

قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُون" (الأية رقم 78 من سورة غافر).

إن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولً، والرّسل الذين بعثهم الله بتشريع جديد هم خمسة فقط: (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد) صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

أمّا عن آدم عليه السلام فقد كان الخليفة على ابنائه وقومه، وحسب قرائاتي المتواضعة "في الإسرائيليات"، والتي عرضت أن الله تعالى وضع لآدم قانوناً خاصّاً به، وهو أن يزوج بنيه من بناته، لأنه كان الأوّل في جنسه.

زوجه، والتي قيل لنا في الكتب الإسلاميّة أنّ إسمها "حواء"، فإنه لم يُعلن لنا عن إسمها واقعيّاً في المصحف الكريم، كانت تحمل في بطنها توائم، "ذكر إلى جانب أنثى في كل كيس"، فكان قانون الله آنذلك له فيما ورد في الإسرائيليات أن يتزوج الأخ أخته من الحمل التالي، وليس توأمه من نفس البطن، "بمعنى أن الأخ الأول من البطن الأول يتزوج أخته من البطن الثاني، والأخ من البطن الثاني يتزوج أخته من البطن الأول"، وهذه من خصوصية آدم.

وعندما حدث السجال بين ابني آدم "قابيل وهابيل"، كان على رفض قابيل الزواج من أخته التي جائت في الحمل الآخر، لكن في مصحفنا الكريم وردت جزئية أن قابيل قدّم قربانه إلى جانب أخيه هابيل لله تعالى من أجل البت في هذا الجِدال، قال تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابنيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" (الأية رقم 27 من سورة المائدة).

قد يكون ما جاء في الإسرائيليات صحيح، لأن الله تعالى حرّم زواج الأخوة من بعضهم لاحقاً بعد إنقضاء مرحلة آدم، فقال تعالى: "حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم" (الآية رقم 23 من سورة النساء) لماذا؟ لأنه في عهده كان يجوز، أمّا في الأحكام الّلاحقة مستقبلاً سيأتي تحريمها.

أوّل الأنبياء والرسل الذين حملوا الرسالة أو شيء منها هو نوح عليه السلام، فقال تعالى: "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ" (الآية رقم 13 من سورة الشورى).

ولو تطرّقنا إلى **تشريع نوح** عليه السلام كانت "الشرائع النوحيّة"، أو "شرائع نوح السبع"، وهي سبعة أوامر أخلاقية منحها الله تعالى إلى رسوله نوح ليبلغها لقومه، وهذه الشرائع السبعة حسب التلمود تمنع الوثنية، وجريمة القتل، والسرقة، والانحلال الجنسي، والتجديف، وأكل لحم حيوان حي، وتدعوا الى فرض إقامة نظام عدل لتطبيق الشرائع الستة السابقة.

أمّا **تشريع إبراهيم** عليه السلام كانت "صحف"، والتي هي "صحف إبراهيم"، وتعد هذه الصحف من الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى للناس، وإمتلأت بالكثير من الحِكم، والعبر، والمواعظ، والأوامر والنواهي.

فجاء في السنة النبوية أنه قد تم ذكر بعض ما جاء في هذه الصحف، والتي إشتملت على مواعظ ووصايا، ومما ورد في ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال، قلتُ: "يا رسولَ اللهِ، فَما كانَت صُحفُ إبراهيمَ؟ قالَ: كانَت أمثالًا كلُّها"، كالنص التالي: "أيُّها الملِكُ المسلَّطُ المبتَلَى المغرورُ، فإنِّي لم أبعثْكَ لتجمعَ الدُّنيا بعضَها إلى بعضٍ، ولكن بعثتُكَ لتردَّ عنِّي دعوةَ المظلومِ، فإنِّي لا أردُّها ولَو كانَت مِن كافِرٍ".

وكما جاء أيضاً في الآتي: "علَى العاقِلِ ما لَم يكُن مغلوبًا علَى عقلِهِ أن تكونَ له ساعاتٌ؛ ساعَةٌ يُناجي فيها ربَّهُ عزَّ وجلَّ، وساعةٌ يحاسِبُ فيها نفسَهُ، وساعَةٌ يفكِّرُ فيها في صُنعِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وساعةٌ يخلو فيها بحاجتِهِ من المطعَمِ والمشرَبِ، وعلى العاقِلِ أن لا يكون ظاعِنًا إلَّا لثلاثٍ؛ تزَوُّدٍ لمعاد، أو مَرمَّةٍ لمعاش، أو لذَّةٍ في غيرِ محرَّمٍ، وعلى العاقِلِ أن يكونَ بصيرًا بزمانِهِ، مقبِلًا على شأنِهِ، حافِظًا للسانِهِ، ومن حسَبَ كلامَهُ من عمَلِهِ قلَّ كلامُهُ إلا فيما يعنيه".

نلاحظ أنه يظهر لنا عند الإمعان في صحف إبراهيم عليه السلام أنها إحتوت على توجيهات أخلاقية، ودعت إلى فضائل سامية، ورسخت حقائق إيمانية، وتحدثت عن صفات الله تعالى، وذكرت بمصير المرء ومصير الأمم السابقة.

أمّا عن **تشريع موسى** عليه السلام فهو "التوراة"، كتاب التوراة، وهو إسم عبراني معناهُ "الشريعة، أو التعليم، أو التوجيه"، ويرمز للأسفار الخمسة الأُولى من الكتاب المقدّس اليهودي، ما يعرف لديهم "بالتناخ".

السفر الأول وهو سفر "التكوين"، أو "الخلق"، وقد ذُكِر فيه خلق العالم، وقصة آدم وحواء وأولادهما، ونوح والطوفان وتبلبل الألسن، ثم قصة إبراهيم وابنه إسحاق وابنه يعقوب وعيسى، ثم قصة يوسف، ومما ورد في "سفر التكوين" النص الآتي: وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل ما مَلَك ملكٌ لبني إسرائيل.

السفر الثاني وهو سفر "الخروج"، ويتحدث عن خروج اليهود من مصر، وفيه أيضاً تم ذكر قصة موسى من والدته وبعثته، وفرعون، وخروج بني إسرائيل من مصر، وصعود موسى الجبل وإيتاء الله له الألواح.

السفر الثالث وهو سفر "اللّاويين"، أو "الأحبار"، نسبة إلى لاوي بن يعقوب، ويتحدث عن الطهارة، والنجاسة، وتقديم الذبائح، والنذر، وتعظيم هارون وبنيه، وفيه حُكم القربان والطهارة وما يجوز أكله، وغير ذلك من الفرائض والحدود.

السفر الرابع وهو سفر "العدد"، وفيه يُحصى قبائل بني إسرائيل منذ يعقوب، وأفرادَهم، ومواشيهم، وبعضه في الشرائع، وبعضه في أخبار موسى وبني اسرائيل في التيه وقصة البقرة.

أما السفر الخامس وهو سفر "التثنية"، أو "إعادة الناموس"، وفيه أحكام، وعبادات، وسياسة، وإجتماع، وإقتصاد، وثلاثة خطابات لموسى عليه السلام، ومما جاء في "سفر التثنية " حكاية وفاة موسى ودفنه: فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مؤاب، مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم.

وهذه الأسفار الخمسة عند اليهود يُطلق عليها المسيحيون "بالعهد القديم"، والعهد القديم هو ما يَزعم النصارى أنه كُتب فيه ما أوحَى الله به للأنبياء قبل ظهور عيسى عليه السلام، والذي جاء فيه أيضاً الحديث عن آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم عليهم السلام جميعاً، كما أنه يحتوي على وصايا وأحكام وبشارة بالمسيح عليه السلام، وأما "العهد الجديد" فيزعمون أنه مكمل للعهد القديم، وفيه الحديث عن عيسى عليه السلام وحياته وأعماله وتعاليمه وغير ذلك، وكُتب ذلك كله بإلهام من الله لكتبته.

تشريع عيسى عليه السلام هو "الإنجيل"، كتاب الإنجيل، ومعناهُ "البشارة السارة"، أو "بشرى الخلاص"، وتعني لدى المسيحيين بالمفهوم الروحي: البشارة بمجيء يسوع الذي هو المسيح، وتقديم نفسه ذبيحة فداء على الصليب نيابة عن الجنس البشري، ثم دفنه في القبر، وقيامته في اليوم الثالث كما جاء في كتب النبوات في العهد القديم.

وتشريع عيسى عليه السلام هو" العهد الجديد"، وهو الأربع كتب "الأناجيل الأربعة"، والتي نسبت إلى كل من "متى ومرقس ولوقا ويوحنا"، حيث يؤمن المسيحيون بأن هذه الكتب الأربعة كتبت بوحي من الروح القُدس، وليست من تأليف بشري كما جاء في رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس "وهو أحد الأساقفة المسيحيين".

فجاء مثلا في "إنجيل يوحنا" النص الأتي: "ستَفتح يدك تجاه إخوتك الفقراء والمحتاجين من بين بني إسرائيل، عندما نرى إخوتنا المحتاجين ونفتح أيدينا تجاههم، فإن هذا يظهر محبة الله للبشر".

وفي "إنجيل متّى" ينسب الكاتب للمسيح قوله عن علامات نهاية الزمان ما يلي: "وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه والنجوم تسقط من السماء وقوات السموات تتزعزع".

وأيضا جاء في "إنجيل متى" عن تجربة الشيطان للمسيح الآية التالية: "ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له اعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي".

كما جاء في "إنجيل يوحنا" حول حادثة الصلب المزعومة هذه الآية: "وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات، لكن واحدا من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء، والذي عاين شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم".

وفي "إنجيل مرقس" جاء عن المسيح هذا القول: "فجاء إلى بيت رئيس المجمع ورأى ضجيجا، يبكون ويولولون كثيرا، فدخل وقال لهم لماذا تضجون وتبكون، لم تمت الصبية لكنها نائمة، فضحكوا عليه".

وأخيرا، **تشريع محمد** ﷺ وهو "القرآن".

في النّهاية:

قال تعالى: "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" (الآية رقم 13 من سورة الشورى) لو انتبهنا الى وصاية الله تعالى لنا في الآية السابق ذكرها من عهد نوح "مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ"، أن نقيم دين "الإسلام"! لماذا الإسلام؟ لأن هذا الدين هو الذي أقامه من قبلنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ إلى أن وصل إلينا.

وهنا سؤالي: لماذا فرّقتم الدين؟ لماذا جعلتم الدين أديان؟ المسألة ليست لعب ولهو! المسألة خطيرة جدّاً! وأخطر ما فيها هو كمية الجهل الفكري الذي مزق الدين إلى أديان يبثها في الواقع الحقيقي والإفتراضي! على صعيد العامّة أو الإسلاميين أو رجال الدين أو المثقفين أو المفكرين أو العلماء أو الفلاسفة الذين زعموا أن هناك أديان! والله تعالى يخبرنا صراحةً أن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وكل الأنبياء والرسل كانوا على دين الإسلام!!

ويؤكد الله تعالى لنا في موضع آخر أن إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ مُوسَى وَعِيسَى وَالرسل والأنبياء جميعاً كانوا مسلمون، قال تعالى: "قولوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (الأية رقم 136 من سورة البقرة) ونحن نشهد لك يا الله بأننا على ملّتهم جميعاً، وأننا مسلمون.

إنّ الكتاب "المصحف"، أو"التنزيل الحكيم" الذي بين أيدينا، يضم بين سطوره صحف إبراهيم والفرقان والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، قال تعالى: "الم، ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" (الآية رقم 1 -2 من سورة البقرة) وجميع هذه التشريعات هي شرائع، جاءت توحيديّة تحت جناح دين واحد ألا وهو الإسلام، وهذا الدين "الإسلام" يدعوا لعبادة رب واحد وإله واحد وهو (الله تبارك وتعالى) وعليه فإن دين الله واحد، فلا تجعلوه أديانا!!

كما أن الله ليس حكراً على رجال الدين من رهبان وأحبار وحاخامات وأساقفة وباباوات وقُسس ومشايخ، الله ليس فكرة ضيقة يختزلها الحاخام اليهودي أو الراهب المسيحي أو الشيخ المسلم، أو السنّي أو الشيعي أو الصوفي أو البهائي أو الإباضي أو غيرهم! الله واحد أحد، ونحن له عابدون؛ ودينه واحد وهو الإسلام، ونحن له مسلمون...

عذاب القبر صوري وليس فيزيائي

معظم علماء الدين الإسلامي يؤمنون إيماناً قطعيّاً بأن هناك عذاب في القبر يقع على الجسد بعد الموت، وقلّة منهم من أنكر هذا العذاب جملةً وتفصيلاً.

وهناك فريق شحيح منهم كان يؤمن ثم عدل وأنكر هذا العذاب بعد تمحيص، كأشهر مُفسّر للمصحف الكريم في العصر الحديث الشيخ الفاضل (محمد متولي الشعراوي) رحمه الله، والذي وصل في نهاية المطاف إلى أنه لا يوجد عذاب قبر.

أمّا عن نفسي فإنني أعتقد ومن خِلال بحثي وتقشيري لهذه القضية، أن الإنسان وقبل أن يزوره الموت لا يدخل في العدم، بمعنى أنه لا ينتهي كليّاً بعد الموت! فعند قبض النّفس ينعدم الهيكل والبناء الفيزيائي للإنسان، لكن لا تنعدم الروح! وإنما تنتقل من عالم لآخر، حيث يكون لها وجود في بُعدٍ آخر "البرزخ"، وهذا الوجود البرزخي والأبدي لها يتواجد معه نوع من الإدراك، بمعنى أن الروح يتخللها نوع من الإدراك.

إنني أرى أنّ إدراك الإنسان يمر بثلاثة مراحل: الأول "إدراك المُستيقظ والواعي"، والثاني "إدراك النّائم"، والثالث "إدراك الميّت"، ولا أريد ان أتطرق الآن عن إدراك المُستيقظ فهو مفهوم، بل سأتحدّث عن إدراك النّائم.

عندما ينام الإنسان ويغوص في حلم مُعيّن، ويرى فيه مثلاً أن هناك أفعى تتجه نحوه لتبلعه، وهو متمسمر مكانهُ خوفاً ورعباً.

في الحقيقة أنه نائم، وجسده بخير، إلا أنه إستيقظ مرعوباً، وتأثر جسدة الفيزيائي مع أنه كان يحلم! لقد كان حلماً، إلا أنه كان عذاباً بحد ذاته مع أنّه لم يمس الجسد، فكيف لو نال منه؟ إنّ الحاصل هنا في الواقع أنّ الذي شاهد الحلم هو عين الروح، فهي التي تمسمرت وخافت.

هناك حالتين عند دخول الإنسان في النوم، فإما أن يرى أحلاماً جميلة ومبشّرة، أو أحلاما مرعبة وغير سارّة، وهذا هو إدراك النّائم؛ وإدراك الميّت شبيه بإدراك النّائم، فمن فارق هذه الحياة إما ستبصر روحه مرائي جميلة أو كوابيس مرعبة، ولكن الفارق بينهما هو أنه لا يوجد جسد فيزيائي في حالة الموت، ويكون الميت أمام صورة واحدة يشاهدها باستمرار حتى يُبعث للحساب، وسيواصلهُ هذا النعيم أو العذاب الحسّي والإدراكي حتى يُبعث بجسد فيزيائي جديد يوم الدين.

أنا أعتقد بأن هناك عذاب قبر، ولكنه نوع من العذاب الصوري، والذي تدركه الروح وتبصره عينها، ولا يقع على أرض الجسد، لأنهُ إنتهى وتَحلل.

كما أنه لا يمكن أن يكون هناك عذاب فيزيائي وجسدي قبل الحساب! لذلك الروح سترى عذاب صوَري على شكل صُور من الكوابيس المُرعبة والمخيفة، بدليل قوله تعالى: "قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ" (الآية رقم 52 من سورة يس) والمرقد في اللغة العربيّة هو النوم الطويل.

ودليل ثانٍ في موضع آخر في قوله تعالى: "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ" (الآية رقم 46 من سورة غافر) إنّ تفسير كلمة "يُعرضون" في اللّغة العربيّة أي "يشاهدون"، يشاهدون النار وتُقدّم لهم أمام أعينهم، والذي يرى ويُشاهد ويُدرك في هذه اللحظة هي الرّوح وليس الجسد، لأن العذاب المادّي والفيزيائي سيقع على الجسد لاحقاً، في يوم القيامة بعد الحساب، ولا عذاب قبل الحساب.

قال تعالى: "إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم، يصلونها يوم الدين" (الآية رقم 13،14،15 من سورة الإنفطار) الأبرار سيسكنون في نعيم، والفجّار سيمكثون في جحيم "يوم الدّين"، أي يوم القيامة بعد الحساب.

في النّهاية:

قال تعالى: "يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ" (الآية رقم 6 من سورة الزّلزلة) كلمة "لِّيُرَوْا" في الآية هي فعل مُضارع، معنى ذلك أنه لا يوجد عذاب يقع على الجسد قبل عرض الأعمال وقبل الحساب! والحساب سيكون "يَوْمَئِذٍ"، أي يوم القيامة.

وقال تعالى في "أبو لهب" عم الرسول صلى الله عليه وسلم: "سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ" (الآية رقم 3 من سورة المسد) كلمة "سيصلى" في الآية هي فعل مُضارع، معنى ذلك أنه لم يتلقّى العذاب الجسدي بعد! وسيصلاهُ ويذوقهُ يوم القيامة بعد الحساب.

الرياضيّات هي اللّغة التي كتب الله بها الكون لكي نفهمه

هناك ثلاثة علوم طبيعيّة تسوق لنا فهم الكون "الفيزياء، الأحياء، الكيمياء"، ولو أردنا ترتيبها من الأدنى إلى الأعلى ستكون الأحياء هي الأدنى ثم الكيمياء ثم الفيزياء، فالفيزياء هي أعلى العلوم الطبيعيّة.

أمّا الرياضيات فهي ليست جزء منها، وهي تعد من العلوم الرّسميّة، ولكن هناك علاقة راسخة وقويّة للرياضيات بالعلوم الطبيعيّة، أما المُذهل والمُدهش في القضيّة هو أنّ الرياضيّات تفوّقت على الفيزياء في فهم الكون، مع أنّها ليست من العلوم الطبيعيّة! فلماذا كانت الرياضيات هي العلم الأنجح في فهم الكون؟

هذا كان سؤال عالم الفيزياء والمفكّر الديني المسيحي (جون بولكينغهورن) الذي ألف خمسة كتب عن الفيزياء، وستة وعشرين كتاباً عن العلاقة بين العلم والدين، والتي كان يتسائل فيها: لماذا كانت الرياضيات هي العلم الأنجح في فهم الكون؟

فأجاب بالآتي: "إن السبب هو أنّ الفيزياء مشيّدة ومُؤسسة على الرياضيات"، والدليل على صحيح ما قاله جون بولكينغهورن هو أن الرياضيات تُفسر الفيزياء، ولكن الفيزياء لا تُفسّر الرياضيات! بل إن الرياضيات تُفسر العلوم، ولكن لا علم يفسّرها.

نحن بالرياضيات نتمكن من صياغة النظريّات العلميّة التي تفسّر الظّواهر، ونتعامل معها من خلال المعادلات الفيزيائية، لذلك كانت وما زالت الرياضيّات هي أساس العلوم، وهي لغة العلم التي نفسّر بها الظّواهر الطبيعيّة، ولايوجد علم من العلوم البحثية إلا ويستند على الرياضيات، والأمر ينسحب على شتى العلوم كالكوزمولوجي " Cosmology"، والأسترونومي "Astronomy" في حساب مسافات الأفلاك، وقياسات المدارات، ولقد قال ربنا جل في علاه: "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (الأية رقم 177 من سورة البقرة).

لو جنّحنا نحو الهندسة بأنواعها، والطب، وعلم الاقتصاد، سنجدها تفرع طبيعي لعلم الرياضيات، والذي تفرع منه أيضا الإحصاء، وعلوم الاتصالات ونقل المعلومات والإنترنت وغيرها، كلها تستند في نهاية المطاف على أصول رياضية، ولولاها ما كان لهذه العلوم أن تضع أقدامها على بساط هذا الكوكب وتبصر النور، فحتى الطفل الصّغير يجب أن يكون لديه الدّراية بها إبتداءً من جدول الضرب، وجمع وطرح عدد البرتقال!

ولا يتوقّف الأمر هنا، بل إنّ العديد من أفلام الخيال العلمي، وأبرزها الفيلم الرهيب الذي شاهدته "Arrival" وتعني "الواصل أو الوافد"، والذي صدر عام 2016 للكاتب الأمريكي "تيد تشيانغ"، كان قصّتهُ تحكي عن وافد غريب وصل إلى أماكن معيّنة على كوكب الأرض، ولم يتمكّن أي إنسان أو حتى عالم من التواصل معه، لأنه لا يتحدث أو ينطق بلغة معينة، ليستعين الخبراء بعالمة اللغويّات والتي تُدعى "لويز"، وعالم الفيزياء والذي يُدعى "إيان"، لمحاولة إيجاد طريقة للتواصل مع هذا الكائن الفضائي الغريب، وبعد آلاف المحاولات قام هذا الكائن الفضائي برسم رموز دائرية دُخانية! ومن هنا بدأت نقطة الإنطلاق بين عالمة اللغويّات "لويز" وبين هذا الكائن الفضائي الغريب، وإمكانيّة الإقتراب من فهمه عبر لغة الرياضيّات.

ألم تطأ قدم الفلكي (نيل آرم سترونج) القمر بالرياضيّات؟! ألا يسعى الإنسان إلى الآن غزو المجرة واكتشافها بالرياضيات.

إن كل شيء أساسة وبنيته رياضيّة، بداية من الكون وما فيه من موجودات حتى نصل إلى الإنسان، والذي خلق هو الآخر على حدود رياضية، وعلى النسبيّة الذهبيّة "Golden Mean أو Golden Ratio"، وهو الرقم الرياضي "١,٦١٨" المُركّب في الإنسان، وصدق تعالى حينما قال: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (الأية رقم 4 من سورة التين).

إن هذه النسبة الذهبيّة تتواجد أيضاً في الطبيعة والفلك والحضارات والفنون والهندسة، وسبحانه عندما قال: "إن كل شيء خلقناه بقدر" (الأية رقم 49 من سورة القمر) وهذا الذي دفعني إلى طرح سؤال كان العلماء والفلاسفة قد نثروهُ من قبلي، وهو: ماذا لو كانت الرياضيّات هي الّلغة التي كتب الله بها الكون؟

الفيلسوف اليوناني المثالي (أفلاطون) تلميذ الفيلسوف الطبيعي (سقراط) كان يقول: "الرياضيات ليست من عالم البشر بل هي من عالم الربّ"، كان يقصد بها أن الرياضيات ليست من صُنع البشر، وإنما هي عطِيّة الله عز وجل للنوع الإنساني لكي يفهم ويفسّر بها كيف وُلد الكون وإنبثق الوجود.

وعالم الفيزياء والرياضيات (يوجين بول ويغنر) كتب مقالاً بعنوان "الفعاليّة الغير معقولة للرياضيات في العلوم الطبيعيّة"، يقول فيه: "إن معجزة ملاءمة لغة الرياضيات لصياغة قوانين الفيزياء هي هدية رائعة لا نفهمها ولا نستحقها"، لقد كان يرى أن الرياضيات مُعطى إيماني وليست من العلوم الطبيعيّة!

بل إنّ الفيلسوف اليوناني (فيثاغورس) إتّجه إلى أبعد من ذلك، حيث سار على خُطى الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) وعالم الرياضيات اليوناني (إقليدس) فكان يعتقد فيثاغورس أن الرياضيات ليست مجرد أرقام ورموز عددية، ولم يقتصر هو والفيثاغورية على قراءة الأعداد قراءة رياضية فقط، أو كعلاقات حسابية، أو صورها الهندسية، بل نظر إليها نظرة كمزيج من الأبعاد الرياضية بالأبعاد الدينية والفلسفية والكونية.

حيث أدرك فيثاغورس أنّ الرّموز الرّياضيّة هي رموز لها أبعاد أخرى غيبية، فكان يعتقد أن الرياضيات علم ما هو ثابت وأبدي، وغير خاضع للحس أو الزمن أو التغير، وتبدو صلة الأعداد الفيثاغورية بالأبعاد الدينية والكونية والنفسية والأخلاقية جليّة في تصور فيثاغور للأعداد.

وعندما قال فيثاغورس جملته الشهيرة "الكون كله يدور.. ونحن كذلك"، عقّبت (ثيانو) زوجتهُ على ذلك: "لم يقل فيثاغور بأن كل شيء يولد من العدد، ولكن كل شيء تكوّن على نحو منسجم مع العدد، لأن في العدد يكمن النظام".

وهنا يستحضرني ما قاله الفيلسوف اليونان (أفلاطون) في كتابه "الجمهورية" هذه العبارات: "الهندسة هي علم معرفة الأبدية وليس الهالك والعابر"، لأنه كان يعتبر الرياضيّات رمزا للمثالية لما فيها من إمكانية للتجريد، وكأنها رمز لفكرة أو معتقد برمز محدد وثابت وغير متغير بالزمن، ومن هنا كانت الرياضيات باباً للولوج إلى الحقيقة المطلقة، فحقيقة الرياضيّات هي حقيقة الوجود كله بالنّسبة له، أمّا بالنّسبة لي فأنا أرى أنّ لغة الرياضيّات هي حقيقة فهمنا لهذا الوجود وما فيه.

في النّهاية:

أنا أعتقد أنّه من (كوبرنيكوس إلى فيثاغورس) لم تكن الرياضيات القديمة عِلماً فقط، وإنما كانت دِيناً! كانت مُعتقداً دينيّاً وإيمانيّاً، وأنا أؤمن أنّ الله تعالى خلق الكون على صورتين "صورة بلاغيّة وصورة رياضيّة"، والشكل الرياضي هو علم ولغة كتب الله تعالى بها الكون لكي نفهمه، فقال تعالى: "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" (الأية رقم 88 من سورة النمل).

إنّ أصل العلوم والمعلومة هو الله، والرياضيات هي أحد تلك العلوم التي وهبها الله تعالى للإنسان لكي يقرأ بها الكون، والتي تتصف بالدقة، وكل ما إزداد علم الإنسان بالرياضيات أكثر كلما إزداد إقترابه لفهم الوجود أكثر، فلبنة هذا الكون بما فيها الإنسان هي الرياضيات، والتي أسس الله تعالى بها كل هذه الخليقة، فقال تعالى: "أحصى كل شيء عددا" (الأية رقم 28 من سورة الجن) وقال تعالى: "لقد أحصاهم وعدهم عدا" (الأية رقم 94 من سورة مريم).

هناك عوالم ولكنها نهائية

قال تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ" (الأية رقم 33 من سورة الرحمن) هذه الآية الكريمة دفعتني لجملة أسئلة: هل يمكن أن يحدث في يوم ما أن تُفتح هذه العوالم على بعضها؟ وهل يمكن أن نلتقي بقاطنيها؟ أو ان يحدث صراع وحروبات بيننا وبينهم!؟

هذه العوالم في إعتقادي ليست لا نهائية كما قال عالم الدين المسيحي والفيلسوف الإيطالي (نولانو دي نولا) المعروف "جوردانو برونو"، والذي إتهمتهُ الكنيسة بالهرطقة لقوله بتعدد العوالم اللانهائي، وتم تنفيذ حكم الإعدام به حرقا وهو حي!

عالم الدين المسيحي نولانو دي نولا، هو أول من ألهم كل من قال بفكرة تعدد العوالم من العلماء، حتى صكّت نظريّة لاحقاً، ومن جملتهم العالم الفيزيائي الأمريكي (هيو إيفرت) صاحب نظرية تعدد الأكوان "Multiple Universal" في فيزياء الكم، والتي نصّت على وجود أكوان متعددة وأكوان أخرى مُشابهة للكون الذي نعيش فيه، وقد أبلغت عن تصوّري سابقا في هذا المدار أنهن سبعة عوالم أو سبعة أكوان فقط، وليست لا نهائية كما قال نولانو دي نولا، أو كما قال صاحب النظرية هيو إيفرت، لأنه سيصبح حينها الحديث عن عالم مادي أزلي لا حاكم له ولا رب! لذلك قمت بتقنين هذه العوالم إلى سبعة حسب تحليلي للكتاب "القرآن".

المصحف الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي تحدث عن تعدد العوالم، حيث أشار إليها في قوله تعالى: "الحمد لله رب العالمين" (الأية رقم 2 من سورة الفاتحة) معظم المفسرين ذهبوا لتفسير هذه الآية على أن المقصود "بالعالمين" هو عالم الإنس وعالم الجن، ومنهم من ذهب إلى تقسيم من يقيمون في الأرض الى عوالم، كعالم الأسماك وعالم الطيور وعالم الثدييات إلى آخره، ولكني أعتقد أن الآية أوسع من هذا بكثير، فيبدوا أنها تتحدث عن عوالم وأكوان ومخلوقات وأجناس لا نعلمها، ولا يعلمها إلا الله.

في النهاية:

قال تعالى: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قديروأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا" (الأية رقم 12 من سورة الطلاق) كلمة "مثلهن" في الآية الكريمة تعني التماثل في كل شيء، بمعنى أنهن سبعة أراضين، ليست متراكبة فوق بعضها، لأنه تعالى لم يقل "طباقا"، بل قال "مثلهن"، أي مثل السماوات في العدد والحجم! فإحتماليّة أن هناك سبعة أرضين تسبح في فضاء هذا الكون وارد بشكل كبير، وعندما قال تعالى: "يتنزل الأمر بينهن" (الأية رقم 12 من سورة الطلاق) أي أن الوحي يتنزل بين السماوات السبع وبين الأرضين السبع أيضاً.

وفي حديث روي عن الرسول ﷺ، والذي أخبرنا أن ندعو به عند الذهاب للنوم أو عندما يلتهمنا القلق، فقال ﷺ: "اللهمّ ربّ السماوات السبع وما أظلّت، وربّ الأرضين وما أقلّت، وربّ الشياطين وما أضلّت، كن لي جارًا من شرّ عبادك كلّهم جميعا أن يفرّط عليّ أحدٌ منهم أو يطغى، عزّ جارك وجلّ ثناؤك "، نلاحظ أنه ﷺ قال: رب الأرضين، ولم يقل رب الأرض!؟ وهذا تأكيد منه ﷺ على أنهن أكثر من أرض.

وجاء في حديث "البيهقي" في الأسماء والصفات، أثراً عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال في تفسير هذه الآية: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن"، أي: "سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى".

الكون معمور ولسنا وحدنا

هذه السبعة أراضين "سبعة كواكب أرضية" هل تستضيف الحياة؟ وهل هذه المخلوقات الفضائية أو المجهولة عنّا لا تشبهنا، أم أنها تشبهنا؟ وهل بحوزتهم الذكاء الرقمي المتواجد لدينا؟

فرضيّاً هناك إحتمال أن تكون ملايين الحيواة العاقلة في الفضاء، ولكن علميّاً وتجريبيّاً لا يوجد شيء يصدق هذا الإحتمال! فنحن لم تصلنا أيّة إشارة أو رسالة من الفضاء، أو من أي كوكب في السماء.

العالم والفيزيائي الإنجليزي (جون ديفيد بارو) والعالم الفيزيائي الأمريكي (فرانك جى تيبلر) قالا بأنه من النادر جدّاً أن تكون هناك حياة عاقلة في الكون، وأن كوكب الأرض إستثنائي ولا شبيه له في الكون، بخلاف كلّا من العالم الفلكي والفيزيائي الأمريكي (فرانك دونالد دريك) والعالم الفيزيائي المتخصص بعلوم الفلك (كارل إدوار ساغان) الذين أكّدوا أن هناك ملايين الحيواة العاقلة في الكون، وأن كوكب الأرض ليس إستثنائي، ويوجد الملايين من الكواكب المتطابقة له ولخصائصه.

بينما هناك ثُلةٌ قالت أنه يوجد حياة عاقلة في الكون، ولكنها لا تريد التواصل معنا، لكوننا كائنات بسيطة وحقيرة ومتخلفة بالنسبه لهم! وهناك قلّة أخبرت أن هناك حياة عاقلة في الكون، وأنهم هاتفوهم وتواصلوا فعليّاً معهم! ولكنهم وضّحوا أننا لا نستطيع أن نكتشف ذلك وأن نتناوله أو حتى أن نستوعبه.

إن المؤكد لنا أن الدواب تستوطن الأرض، ولكن هل هناك دواب تستعمر السماء أو الفضاء؟ وإن كان هذا حقاً، هل هذه الدواب عاقلة أم لا؟!

إنني أرى أنه بالإمكان وجود دواباً تسكن السماء، ولا أقصد الملائكة بقولي هذا!؟ لقوله تعالى: "ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة" (الأية رقم 49 من سورة النحل) حرف الواو في الآية الكريمة هي عطف للإختلاف، إذن الملائكة ليست دواب! واحتماليّة وجود مخلوقات تفترش السماء واردة بشكل كبير!

قال تعالى: "وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ" (الأية رقم 45 من سورة النور) اذن الدواب خلقت من ماء! ووصفهم كما جاء في الآية "فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ"، وهذا الخلق والوصف يختلف كليّا عن الملائكة، فلقد جاء عن الرسول ﷺ أنه قال: "خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ"، وفي وصفهم قال تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (الأية رقم 1 من سورة فاطر) وهذا يؤكد أن الملائكة ليست هي المقصود! كما أنهم ليسوا الجان، فقد قال تعالى فيهم: "وخلق الجان من مارج من نار" (الأية رقم 15 من سورة الرحمن) إذن، من الممكن جدّاً أن تكون السماء مسكونة بدواب! وهذه الدواب ليست الملائكة ولا الجن.

هذه الدواب لا نعلم شكلها أو وصفها أو حجمها أو عددها أو جنسها، أو أي أدنى معلومة عنها! قد تكون على كوكب ما في هذا الكون الفسيح، وقد يكون هناك حياة عاقلة على كون آخر!

هناك من علماء المسلمين من ذهب الى القول بأنه قد يكون هناك دواب أو حياة عاقلة ما على إحدى هذه الكواكب أو المجرات، كالخطيب والمفسر (فخر الدين الرازي) والعالم والفقيه التونسي (محمد الطاهر بن عاشور).

عالم الفيزياء الشهير (آينشتاين) كتب مرة يقول: "إذا كان هناك أكوان فهي بالبلايين، وهي على الأغلب شبيهه لكوننا، ويستحيل أن تخلوا كلها من الحياة، وفي هذا الكون نحن لسنا وحدنا"، أما عن الفلكي الأمريكي (كارل إدوارد ساغان)

المتخصص في دراسة الحياة العاقلة، كتب مرة يقول: "يستحيل أن لا توجد حياة عاقلة أخرى في هذا الكون الفسيح، ولو كانت لا توجد حياة على كوكب آخر فإن هذا يعتبر هدرا لمساحة هذا الكون العظيم!".

في النهاية:

قال تعالى: "وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء" (الأية رقم 31 من سورة الشورى) هل هذه إشارة إلى إستعمارنا للكواكب في مجرتنا أو خارجها يوماً ما من خلال الثقوب الدودية مثلا؟! أم أنها تعني أنه قد تكون نقطة بداية إلتقائنا بهذه الكائنات الأخرى بالفضاء؟!

أما عن قوله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ" (الأية رقم 29 من سورة الشورى) فهي دلالة على وجود حياة في كواكب أخرى غير كوكبنا، وأن الله قادر على جمعها! وهو هنا لا يتحدث عن يوم القيامة، لأنه تعالى قال: "قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ" (الأية رقم 12 من سورة الأنعام).

كلمة "ليجمعنكم" في الآية، تعني ليجمعنك في الآخرة! أي أن ذلك حاصلا يقيناً أنه سيجمعنا يوم الحساب، وليس الجمع معلق بالمشيئة في هذا الموضع، ولكن في الآية السابقة الجمع معلق بالمشيئة، وتعني "إذا شاء الله سيجمع في هذه الدنيا الدواب التي تسكن السماوات والأرضين".

إن الكون معمور ولسنا وحدنا!!

هل الأرض مسطحة أم عقولنا هي المسطحة؟!

لقد إستولى شكل الأرض على شق كبير من تدبّر الفلاسفة منذ القدم، بل إن العلماء في ذلك الوقت واجهوا صعوبة في تحديد شكل الأرض الهندسي، فكانت تعتقد الأساطير العتيقة والحضارات التّليدة أن الأرض عبارة عن قرص مسطح دائري، يحيط بها قبة سماوية تسبح بداخلها الأجرام والكواكب والنجوم، ويتبادل القمر والشمس في جوفها الأدوار بين ليل ونهار.

سطحية الأرض بدت جليّة في الفلسفة اليونانية، في عصر (ديموقريطوس، ليوكيبوس، طاليس) كما أن الإسرائيليات وصفت الكون بهذا الشكل.

لكن مع ظهور الفيلسوف اليوناني وعالم الرياضيات (فيثاغورس) إنعطفت الأمور، وقذف أول سهم في قلب نظرية الأرض المسطحة، فبناءً على براهين رياضيّة أثبت كروية الأرض.

اقتدى أثره الفيلسوف اليوناني المثالي (أفلاطون) وتلميذهُ الواقعي (أرسطو) وتلاهم العلماء تلو الآخرين حتى استترت الأرض المسطّحة خلف الستار لسنوات طويلة.

بعد ذلك تم إنعاش التسطيح من جديد في أمريكا، ويستند هذه المرّة على أفكار المخترع البريطاني (صموئيل بيرلي روبوثام) في القرن 19، والذي استمده من آيات العهد الجديد، ومن خلال بحث شهير أجراه في صيف عام 1838م في نهر بدفورد، والذي أثبت فيه إنبساط الأرض، حيث وقف هذا التّقصّي بين مؤيد ومعارض لسنوات، حتى انتهى بتأسيس جمعيّة الأرض المسطّحة "Flat Earth Society" والتي تدعم النموذج القديم لشكل الأرض، لتعود الأرض المسطحة إلى الحياة من جديد.

ركض خلف مؤخرة هذا التسطيح فئة كبيرة من رجال الدين الإسلامي وعلمائهم في القرن 21، زاعمون أننا نعيش في مؤامرة عمرها مئات السنين، وأن الأرض قرص مسطّح دائري الشكل، وهي ثابتة لا تتحرك!

لا يستوعبون هؤلاء السطحيون الإسلاميون والغربيون أن هناك كون نصف قطره 46 مليار سنة ضوئية! لأنهم في تحليلي يتيهون ويضيعون فيه، لذلك يندفعون إلى النموذج السهل والصغير والضيق، لأن عقولهم ضيقة ولا تقبل هذا الإتساع، مع الأخذ بعين الإعتبار أن رجال الدين الإسلامي وعلمائهم الذين نادوا بتمهيد الأرض وانبطاحها لا يملكون الأدوات المعرفيّة والمُستحدثة، ولا البرامج ولا الأجهزة لكي يثبتوا لنا ذلك!؟

لقد قال مؤخراً عالم الفلك البريطاني (ستيوارت كلارك) إن البشر يحبون القصص لأنها تمنح معنى لحياتهم وعالمهم، فالأمور العلمية معقّدة بالنسبة للعامّة وللإنسان البسيط، مما يولد ميلا لديهم إلى رفض الواقع والعلم، والركون فقط إلى الخرافات المريحة، لأنها تشعرهم بالسعادة أنهم يعرفون ما الذي يجري من حولهم، وهذا هو سبب الهوس بالأرض المسطحة.

قال تعالى: "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" (الأية رقم 47 من سورة الذاريات) سافِرٌ في هذه الآية الكريمة أن الكون في إتساع! ولقد عبر الله تعالى عن هذا الاتساع باسم الفاعل "مُوسِع"، واسم الفاعل يكون في الأزمنة الثلاثة "الماضي والحال والمستقبل"، كما يقرر ذلك علماء اللغة العربية، أي أن هذا الاتساع بدأ في الماضي، وهو مستمر في عصر نزول الآية، وسيستمر لاحقاً إلى ما شاء الله تعالى، وهذا الإتساع في الكون حقيقة لم يتمكن الإنسان من إدراكه إلا في الثلث الأول من القرن العشرين.

وفي نظري فإن فكرة اتساع الكون، أو وجود عوالم، أو كائنات أخرى غيرنا، أو كرويّة الأرض، كلها تخيف الانسان المتكبر والمتعجرف الذي يظن نفسه أنه هو مركز هذا العالم! أو أن الأرض هي مركز الكون!

بل إن بعضهم يعتبر نفسه وفيّاً للإسلام إذا قال بنظرية الأرض المسطّحة "FLAT EARTH"، كمفتي المملكة العربية السعودية "عبد العزيز بن باز" رحمه الله، والذي قال إن الارض ثابتة ولا تتحرك! لكنه لم يتطرق الى شكل الأرض هل هي كروية أم مسطحة، بل قال إن الأرض ثابتة ولا تتحرك، متجاهلاً كبار العقول وعلماء العالم الذين أثبتوا أن الأرض كروية، وأفتى بتكفير كل من يقول إن الأرض تتحرك!

لقد ذكر الله سبحانهُ وتعالى في الكتاب تحرّك الشمس، فقال تعالى: "والشمس تجري لمستقر لها" (الأية رقم 38 من سورة يس) وقال تعالى أيضاً فيها وفي القمر: "وهو الّذي خلق اللّيل والنّهار والشّمس والقمر كلّ في فلك يسبحون" (الأية رقم 33 من سورة الأنبياء) وتعبيره سبحانه وتعالى بكلمة "يسبحون" لها دلالتان بالنسبة لي، الأولى هي أن كل النجوم والكواكب تتحرك، والثانية هي أن ما يوجد في الفضاء هو سائل "liqued"، فالسباحة لا تكون إلى في سائل، وليس كما يزعمون أن الجاذبية تنعدم في الفضاء، ما يجعل كل شيء يتطاير كما صورت لنا أفلام هوليود! بل إن مادّة الفضاء هي سائل، فلقد قال الله تعالى: "وكان عرشه على الماء" (الأية رقم 7 من سورة هود).

أما بالنسبة للأرض قال سبحانه: "وترى الجبال هامدة وهي تمر مر السحاب" (الأية رقم 88 من سورة النمل) وفي موضع آخر قال تعالى: "والقى في الأرض رواسي ان تميد بكم" (الأية رقم 15 من سورة النحل) والميدان لا يأتي من جاثم وساكن! وهذا يؤكد على أن الأرض تتحرك، وعلماء الكوزمولوجي "Cosmology" والفيزياء أكدوا هذا علمياً.

قال تعالى: "وترى الشمس إذا طلعت" (الأية رقم 17 من سورة الكهف) الذي يرى هو الانسان، يشاهد الشمس طلعت وتحركت، ولكن الذي يحصل فعليّاً أن الأرض تتحرك أيضاً على سيفها، وكل شيء يحدث بسبب مواجهة الأرض نحو الشمس، ولذلك عبر الله تعالى بكلمة "وترى"، لكي يفهم الانسان العادي والبسيط الذي يعيش في زمن الرسول ﷺ هذه الآية، ويستوعبها.

في النهاية:

قال تعالى: قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق (الأية رقم 20 من سورة العنكبوت) يحثنا الله سبحانه وتعالى على السعي والنظر والسؤال عن بذرة الخلق، وبفضل فورة العلم الذي علمنا الله إياه فقد بلغ الانسان الكثير في مجالات متعدّدة، حيث تم بناء الفيزياء لدينا من كرة ثلاثية الأبعاد، والصور من الفضاء تظهر عالمنا ككرة، ومع ذلك فإن المعظم يصوّرونها على أنها مسطحة! مع إنه من الواضح أن العالم ليس مسطحاً.

لقد كان لعلم الكون نصيب كبير منها، فقد وثّق رواد الفضاء والمسابير الفضائية شكل الأرض بصور واضحة من مسافات بعيدة، وكانت أقرب إلى البيضاويّة منه إلى الكرويّة، فقال تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاها" (الأية رقم 30 من سورة النازعات).

وفي موضع آخر وصف لنا الله تعالى بيضاويّة الأرض، فقال تعالى: "أولم يَرَوْا أَنَّا نَأتي الأرضَ نَنْقُصها من أطرافها" (الآية رقم 41 من سورة الرعد).

كما أنه ثمة سبل أخرى للتأكد من بيضاويّة الأرض بالعين المجردة، فإذا ذهبت إلى البحر ونظرت إلى السفن أثناء مغادرتها، فستلمح أنها تتوارى جزء فجزء عند الخط، وكأن السماء ملتصقة بالبحر.

إن البراهين كثيرة، لكن يبدوا أن عقولنا هي الثابتة والمسطحة وليست الأرض!

سكرة الخمر وسكرة الموت

من خلال تعمّقي في مسألة سكرات الموت، فإني وجدت أنه ليس المقصود بها الألم أو الوجع، بل إنها تعني الغياب عن الوعي! تماما كشارب الخمر، فعندما يبلغ حالة الثمالة فإنه تتعطل لديه عملية الإدراك لغياب عقله، فلا يتذكر ما الذي صنعهُ حينما أتته سكرة الخمر.

قال تعالى: "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ" (الأية رقم 72 من سورة الحجر) بمعنى أنهم في سكرتهم يعمون ولا يبصرون، وسكرة الموت قريبة من ذلك.

إن تعريفي للسكرة: هي أنها حالة بين أن يعقل ولا يعقل، وسكرة الموت هي ذهاب الصحوة في هذا العالم وغياب الوعي فيها، فقال تعالى: "وجائت سكرة الموت بالحق" (الأية رقم 19 من سورة ق).

السكر هو نقيض الصحو، وهو غياب العقل، ولكن سكرة الموت تختلف عن سكرة الخمر بأن الوعي يغيب فيها إلى قيام الساعة، بينما سكرة الخمر يغيب فيها الوعي مؤقتاً في هذه الدنيا، ويعود إليها مجدّداً حين انتهاء مفعول السكرة.

أما الألم الذي رُوِي لنا عنهُ ساعة الموت من قبل المشايخ ورجال الدين في دروسهم ومحاضراتهم وخطبهم، ليس له علاقة بالسكرة "سكرة الموت"، وإنما هو ناتج عن استخراج النفس عند حضور الملائكة، فمن كان مؤمن ومقبول عند الله يكون الألم بسيط، والعكس بالنسبة للكافر.

في النهاية:

دليلي على ما فات ما جاء على لسان قوم فرعون في الكتاب: "قالوا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن" (الأية رقم 52 من سورة يس) والمرقد في الآية هو المضجع، ويقصد به الموت وغياب الوعي عن هذه الدار.

وعندما يبعث الله أنفسهم من جديد، يعود الوعي والادراك مرة أخرى لهم، فيجيبون قائلين: "هذا ما وعد الرحمن" (الأية رقم 52 من سورة يس) يتذكرون ما وعدهم به الله ورسله، وهو البعث من جديد للحساب، فقد كانوا يعتقدون ما يعتقده الملحد في زماننا، وقد ذكر الله تعالى قولهم هذا في مصحفنا: "وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" (الأية رقم 42 من سورة الجاثية) وفي موضع آخر: "إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" (الأية رقم 37 من سورة المؤمنون).

أيها الإنسان كن مستعدّاً للإحياء بعد الموت، فكما يرسلنا الله يوميّاً وينشرنا بعد النوم، فإنهُ سيبعثنا مرّة أخيرة من قبورنا للوقوف بين يديه للحساب، فقد قال تعالى: "وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور" (الأية رقم 7 من سورة الحج).

معجزات الأنبياء لها دلالة على تطوّر الرّكب الإنساني

العالم المسلم الكردي (سعيد النورسي) والمعروف بـ (بديع الزمان النورسي) كتب مرّة في الإشارات الإعجازيّة في تفسير سورة الفاتحة يقول: إنّ كل معجزات الأنبياء لها دلالة في تطوّر الرّكب الإنساني.

حيث كان يرى أن هناك رسالة للنوع الإنساني من خلال معجزات الأنبياء، وهذه الرّسالة هي أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى تحقيق هذه المعجزات!

فمثلا، تحققت معجزة البراق في الإسراء بالرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أي من السعوديّة إلى فلسطين، حيث تم إختراع الطّائرة التي تنقلك من دولة إلى أخرى في أقصى العالم، مع الأخذ بعين الإعتبار التفاوت بين خلق الله تعالى وصنع الإنسان.

مثال آخر، كان عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه، وفي زماننا الحالي تحقّقت معجزته، فالبروفيسور والطبيب (روبرت مكلارين) وصل إلى إدخال جينات إلى العين لإحياء وإنعاش الخلايا المسؤولة عن إستقبال الضوء، ونجحت العمليّة الجراحيّة، واعتمدت كطريقة للعلاج الجديد للعمى، وكان أول مريض كفيف يخضع لتقنية العلاج الجديدة هو "جوناثان وايت".

في النهاية:

الفقيه والمفسّر والإمام (فخر الدين الراز) والذي إمتدت بحوثه ودراساته ومؤلفاته من العلوم الإنسانية اللغوية والعقلية، إلى العلوم البحتة في الفيزياء والرياضيات والطب والفلك، ذهب يقول في تفسير الأية "22" من سورة العنكبوت: "وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ"، أنه قد تُفرض وسيلة يستطيع الإنسان من خلالها أن يسكن السماء، لقوله تعالى لنا في الأية "وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ" والإنسان لم يسكن السماء! إذن هناك إحتماية أن يصعد الإنسان إلى السماء ويسكن في كوكب معيّن مثلا، فهي واردة في كتاب الله تعالى حسب تحليله.

فهل حقّا أنّ إحتماليّة إستعمار النوع الإنساني لكوكب ما في السّماء قد تصبح حقيقة في يوم من الأيام؟ الله تعالى أعلى وأعلم في كل شيء، وفي كل ما كتبته أو قلتهُ أو إجتهدتهُ.

المؤسسة الزوجية لا تُبنى على الحب

كم من علاقات غراميّة صدّعت رؤوسنا لتنتهي أخيراً بالطلاق؟! وكم من هائمة خذلها الحب وراحت تبكي تحت المطر وبين الزّقاق؟! وكم من عاشقة قتلت عشيقها برصاصة الحب؟! وكم من متيّم مات وعجز عن إنعاشه الطب؟! وكم من قصص عشق رأيناها وعشناها وقرأناها وقد قتلها هذا القلب؟! وكم من حب مات قبل أن يولد؟!

هذا ما جعلني أسعى طويلاً حتى وصلت إلى أن المؤسسة الزوجية لا تُبنى على الحب! ولا يمكن إنشاءها وإقامتها بالحب!

عند إمعاني في قوله تعالى: "وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الأية رقم 21 من سورة الروم) وجدت أنه كي أكون أنا سكناً لزوجي وهي سكناً لي يجب علي وضع طوبتين هما أساس هذا المسكن، ولا يُمكنني تشييد هذا الوطن إلا من خلال هذه اللّبنتين، وهما "المودّة و الرحمة".

لن تقوم في رأيي أي مؤسسة زوجية في هذا العالم إلا بهتين الطوبتين "طوبة المودّة وطوبة الرّحمة" ولا أساس للحب بينهما! ولا يوجد أي علاقة لقيمة الحب في إنشاء هذا البناء، لأن الحب هو قيمة مُضافة ومُتغيّرة تحضر لاحقًا من رحم هذه المؤسّسة.

الآن، ما هو تعريفي لهتين الطوبتين "المودة" و "الرحمة":

ما هي المودّة؟ ليس المقصود بها الحب، لأن الله تعالى قال في كتابه: "فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" (الآية 54 من سورة المائدة) ولو كان المقصود بها الحب، لأخبرنا الله بهذا صراحة، لأن المصحف الكريم دقيق جدّا بانتقاء كلماته وأحرفه، لذلك وجدت أن المودّة ليس المُراد بها الحب، وإنما "التلطّف"، بمعنى التقرّب، وكسر المسافات، حتى يتّصل الزوجين ببعضهما عبر نقطة إلتقاء يتشاركوا فيها حلو ومر هذه الحياة.

ما هي الرحمة؟ هي المغفرة والصّفح، وتعني أن تخفض جناحك لزوجتك وتتجاوز عما بدر منها، وهي في المقابل تتغاضى وتفصح عما جرى منك.

أما بالنّسبة للحب، فإني أعتقد أنها القيمة الأجمل، والتي سيتم إنجابها من إندماج المودّة والرّحمة وتكاملهما.

ولكي أكون واضحاً، فإني أجدُ أنّ قيمة الحب متغيّرة، فما سُمي القلب قلباً إلا لأنّه يتقلّب، والحب أحياناً يطفو كأمواج البحر، وأحيانا أخرى يَخفِت كضوء الشمعة، وقد يأتي يوم وتُطفأ شعلته، وهنا تبقى الركيزتين الأساسيتين لقيام المؤسسة الزوجية وهما "المودّة" و"الرّحمة"، والتي يقف عليهما أقدس بناء ومسكن وعلاقة وموطن.

قال تعالى: ولا تنسوا الفضل بينكم (الآية رقم 237 من سورة البقرة).

في النّهاية:

رسالتي إلى كل زوجة: حاولي أن تفهمي معنى الزوج!

ورسالتي إلى كل زوج: لا تضرب زوجتك ولو بوردة!

الجميلون الثلاثة في العلائقية

عانت المجتمعات على طول المشوار الإنساني من أزمات، فمثلا، رجل الإقتصاد الأمريكي (جون موريس كلارك) وهو أحد زعماء الإقتصاد في أمريكا، كان يعتقد أن الأزمة التي يعاني منها المجتمع هي أزمة إقتصادية، وأما عالم النفس الألماني الفيلسوف (أريك فروم) وهو عالم في التحليل النفسي، كان يرى أن الأزمة التي يعاني منها المجتمع هي أزمة إجتماعية، بينما الفيلسوف الفرنسي الكاثوليكي (جاك ماريتان) وهو أحد زعماء الدعوة إلى البروتستنتية، ذهب يقول إلى أن الأزمة التي يعاني منها المجتمع هي أزمة عقائدية "أزمة دينية"، فيم عارضه الروائي والفيلسوف الفرنسي الملحد (جان بول سارتر) وهو زعيم الفلسفة الوجودية في فرنسا، وأوضح أن الأزمة التي يعاني منها المجتمع هي أزمة معرفيّة وليست دينية، وأمّا عن عالم المنطق والفيلسوف الملحد البريطاني الشرس (بيرناند راسيل) وهو مؤسس الفلسفة التحليلية، كان يرتئي أن الأزمة التي يعاني منها المجتمع هي أزمة فكرية.

كل منهم ذهب إلى إتجاه يدعو من خلاله إلى إنسانية جديدة...

أما أنا، إذا أردت أن أتحدث عن أزمة العصر، فنحن نعاني بلا شك من أزمة أخلاقية! نحن في محطة إنسانية تاريخية صعبة وخطرة، إنني أعتقد مليّا أن مصيبة الإنسان في القرن 21 هي أخلاقية، بل إنه لم يعرف تاريخ الحضارة في خط سيرهِ أزمةً بشرية مثل تلك التي يواجهها الإنسان اليوم والآن في القرن 21 من شظفٍ في الأخلاق!! في الشارع، في العمل، في الجامعات، في البيت، في المدرسة، حتى بلغ الأمر مُنتهاه إلى نسب ونشتم ونضرب بعضنا في المساجد!!!؟؟؟

إنّ المفكرون لا ينفقون أوقاتهم عبثًا، والظروف المحيطة بنا تحثّنا على البحث في طبيعة الأزمة، وعن الوسائل التي تساعدنا في الخلاص منها.

كل مفكر أو عالم أو فيلسوف له عقيدته التي يرى من خلالها أنها تؤدي إلى العالم الأمثل والأجمل، وكانت هناك قديماً محاولات للبعض، ومنها مُقترح الفيلسوف المثالي (أفلاطون) في إنشاء "المدينة الفاضلة"، ولكنها باءت بالفشل، فنحن لسنا في الجنّة يا أفلاطون، وإنما في الدنيا، ونصطدم فيها يوميّاً بشياطين من البشر، ونُكوى بجحيمهم فيها، وقد لخّص الممثل الأمريكي الشهير (آل باتشينو) شدّة الإنحطاط الأخلاقي الذي نعاني منه في هذا الزمن برسالة جميلة ومعبّرة وجهّها إلى إبليس وخاطبهُ فيها: "لا تقلق يا إبليس، فالأمور هنا تسير على النحو الذي تريده، بحيث أصبح الناس أكثر سوء منك".

إذا أردت أن تختبر أحدهم في هذا العصر الفارغ من أي قيمة فاضلة، أو عند وقوع مشاحنة بينك وبين قريب أو صديق أو زميل ستشاهد السّفول الأخلاقي بأبشع صوره، فلا زلت أذكر في ليلة 27 من رمضان عام 2024 عندما قامت بعض العائلات بصغارها وكبارها وشبابها بدهس بعضهم البعض، وإطلاق الرصاص على بعضهم البعض من أجل ركنة للمركبة! حيث قام شاب من العائلة الأولى بركن مركبته مكان شاب آخر من العائلة الأخيرة، وكانت النتيجة إندلاع حرب عالميّة ثالثة!!

وأنا أتساءل: هل نحن مسلمون!؟ هل عرفنا الله حقا؟ هل هذا هو المسلم الذي يريده الله؟! هل هذا فعلا ما أمر به الله!؟ ألم يقل الله تعالى لنبيه محمد صلوات ربي وسلامه عليه: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأية رقم 102 من سورة الأنبياء) ألم يقل له: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ" (الأية رقم 159 من سورة آل عمران) إنني هنا أحاول أن أقدم رؤية جديدة في العلائقية، لعل وعسى أن نخرج بإنسانية جديدة بأبهى صورها.

نحن نحاول بكل ما أتانا الله من علم وحكمة أن تنبت تلك الوردة في حديقة الشيطان، أن تخرج تلك الزهرة من رحم فوضى هذا الدمار، أن نعيد بناء الإنسان على أنقاض ذلك الحيوان، قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الأية رقم 13 من سورة الحجرات).

أثناء حديث الله معي وأنا أتلو آياته وكلماته، وإذا بي أمر على الجميلون الثلاثة، هكذا عنونتهم "الجميلون الثلاثة في العلائقية" وهم "الصبر، الصفح، الهجر"، ففيها جمال الإنسان ومعناه، وهذه القيم الثلاثة لا يعمل بها الا الجميلون.

في النهاية:

عند نشوب سجال بينك وبين أي إنسان على وجه الأرض، إستحضر القيمة الأولى ألا وهي الصبر، قال تعالى: "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلً" (الأية رقم 5 من سورة المعارج) فإذا جاء الآخر معتذراً، إستحضر القيمة الثانية، ألا وهي الصفح، قال تعالى: "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" (الأية رقم 85 من سورة الحجر) فإن لم يعتذر، ويرغب في بتر هذه العلاقة والصداقة، إستحضر القيمة الثالثة، ألا وهي الهجر، قال تعالى: "وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا" (الأية رقم 10 من سورة المزمل).

وهذا ليس ضعفاً، فلقد قال ربي حبيبي جل في علاه: "وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" (الأية رقم 237 من سورة البقرة) وقال سبحانه في موضع آخر: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" (الأية رقم 134 من سورة آل عمران).

وتذكر دائماً يا عزيزي أن الإنسان هو محبوب الرحمن، وأنه أغلى ما نملك..

أخيراً

أنا على يقين بأن الإنسان كهيكل لم ينحدر نسلهُ من أوسترالوبيثيكوس، لكني أصبحت متأكداً أن عقلهُ قد ينحدر!

المفكر الإسلامي

م. محمد نبيل كبها

المحتويات

المقدمة 7

قبل أن نبدأ 8

لماذا يضحي الإنسان بحياته البيولوجية من أجل قيمة أخلاقية 8

الجانب الآخر لهذا الوجود وللموجود 8

الشك الإبستمولوجي 9

المفكّر الحقيقي من يبدأ بالشك الإبستمولوجي وينتهي باليقين 10

الشك الإيجابي بوّابة لإستيلاد وإستخراج الأفكار 12

لا يوجد حقيقة تُتناول من غير مُسائلة 14

حرية الإختيار لا تُعرف إلا من الجانب الآخر 15

الروح 17

الروح هي جزء مفارق يسكن الجسد 18

الروح في عيني ليست هي النفس في عين سقراط 22

روح الإنسان ومشروع خلوده 25

الروح هي خصِّيصة الإنسان فقط 27

الروح هي المرحلة التي رقّى بها الله النوع الإنساني 29

الروح هو أفق يبعث النّظام العَقدي والأخلاقي والجمالي 30

الروح هي السبيل إلى إستشرافنا للغيب والإيمان به 31

الروح لا تخضع لسلطة الجسد 32

الروح لا تُورّث ولا تنحلّ 33

الروح وقفت أمام الله 34

عين الفيلسوف 35

الفيلسوف إما كالعنكبوت أو كالنملة أو كالنحلة 36

عين الإنسان وعين الفيلسوف 37
فرق بين من يرى الوجود بعين عقله ومن يراها بعينه 39
الميتافيزيقي هو من يرى وراء المادة جوهر 40
الأصالة للوجود وليس للماهيّة 43
الخير الأقصى بالنسبة للنوع الإنساني هي السعادة 44
قانون الهوية هو أساس الفكر الإنساني 46
كيف يعقل العقل الوجود 47
معظم البشر هم أرسطيّون وليسوا أفلاطونيّون 49
وجود الوردة موضوعي، أمّا لونها مُركّب 50
المعرفة تبدأ بالتجربة ولكنها لا تنشأ عنها 52
هناك أحكام عقليّة سابقة ومتعالية في العقل 54
ما بين الماهيّات والماهويّة 56
كل المفاهيم المطنقيّة هي ذهنيّة 57
لا سلطة على العقل إلا العقل باستثناء العقل المطلق 59
العبادة أو التقديس قيمة زائدة في الإكسيولوجيا 61
المعيار الأخلاقي بالنسبة للفيلسوف الإطلاقي 63
الله تعالى أمر بالأشياء لأنها خير، أم هي خير لأن الله تعالى أمر بها 65
العقل يحاول أن يعقل نفسه والوجود من حوله 67
هناك حقائق صغيرة وبسيطة في قضايا معقدة 68
DA JA VU الإنسان هو الآن 69
رسالة الغيب لي وتجربة إقترابي من الموت 71
الإدراك الإنساني 76
قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمُحال لذاته، وإنما بالمُحال لغيره 77

الشيء في ذاته، والشيء في إدراكنا 79
نحن نبعث عن الحقيقة لمعرفة الحقيقة 80
أنا أؤمن بالشيء الذي لا يُفهم 81
الله تعالى هو المصدر الخارجي للرؤى 82
إقرأ 84
نحن لم نفهم الله 85
الدين واحد، فلم أخذتوه وصنعتوه أدياناً 95
عذاب القبر صوري وليس فيزيائي 100
الرياضيات هي اللغة التي كتبه الله بها الكون لنفهمه 102
هناك هوالك ولكنها نهائيّة 104
الكون معمور ولسنا وحدنا 105
هل الأرض مسطّحة أم عقولنا هي المسطّحة 107
سكرة الموت وسكرة الخمر 109
معجزات الأنبياء لها دلالة على تطوّر الركب الإنساني 110
المؤسّسة الزّوجية لا تُبنى على الحب 111
الجميلون الثلاثة في العلائقيّة 112
أخيراً 114